علي الشرقي

الاحلام

الطبعة الاولى

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

1383 هـ - 1963 م

شركة الطبع والنشر الأهلية ذ.م.م. بغداد - العراق

-1-

الاحلام

ان الاحلام تطلق على رؤى النائم وعلى رؤى اليقظان، وما هي الا ساعة يسمو بها الخيال على الحقيقة، فما من انسان الا ويستنيم الى احلامه بعض الوقت ، واني لا أعبأ برؤيا النائم اذ لا اريد ان اعيش في دنيا الكرى، انما نحن ملتزمون الى دنيا اليقظة، واحلام اليقظة هي التي تتحدث بها نفوس المصلحين وعقول الفلاسفة وافكار الادباء، وما كان العامل الاول لهذه الحضارة الجبارة الا خيال من أخيلة المفكرين، اولئك الذين يفكرون فيحلمون واعينهم مفتوحة.

لقد كان الخيال ولم يزل مفتاح مستقبل أفضل، وان الحلم عنصر الخيال. ليس الماضي هو الحلم بل المستقبل ، اما الحاضر فهو الواقع، سلسلة مثلثة لكل حلقة اثرها، فلا يحملنا نقصان الحاضر على الاعتقاد بكمال الماضي، ولا كمال الحاضر على الاعتقاد بنقصان الماضي، ولا يجمل بنا ان نتقاعس زهدا ورهبنة فنزرع احلامنا ورودا على شاطئ المستقبل قائلين ان الحاضر ممر لا مقر. انني لا اشايع القائلين بان الماضي عصر جاهلية ولا اتابع

القائلين انه العصر الذهبي وغيره العصر الفحمي كلا فليس الماضي بالمفرط في الهزال او المنفوخ بالسمنة، بل اني اعتقد بالتوازن الكيماوي فكل بنسبته عنصر للآخر، الماضي نواة الحاضر والحاضر بذرة المستقبل والعالم دائما في طريق الكمال ونحن نحلم فنعمل فننعم.

تعال معي ايها القارئ الكريم الى كومة احلام فيها الانات والرنات والهمسات والصرخات، احلام قد تكون مترابطة وقد تكون غير متقاربة الا انها قصة حياتي ، فانت تشاهد فيها حلم الشيوخ وهو دائما في الماضي، وترى فيها حلم الشباب وهو دائما في المستقبل. تعال نتحدث بهذا وبذاك عسى ان تكون في الحديث طوبى.

ان الغرض الذي استهدفه في احلامي هذه هو ما يشبه التاريخ وليس بالتاريخ، او انه يشبه القصيدة وليس بالقصيدة، انما هو لوحة جمعت بين الخيال والحقيقة ، فرسمت عالما انتشرت اطيافه في جو انساني فيه الرغبة والرهبة والرضى والغضب، صورة معراة تمثل ما أحس به أو اتخيله مما مر علي وطواه الزمن حتى كاد ان يصبح خيالا .

ان عمود هذا البحث وصلب هذا الموضوع هو لم متفرق او رد حياة لعالم قد خرج من هذا العالم، حيث لا لبس فيه ولا تلفيق وسلوك في طريق لاحب لا عوج فيه ولا تشعب. احاديث واخبار واعمال ومعان تعتلج بالنفس وتحصحص ، وما كان لي الخيرة في المسلك ، ولكنها النوازع، فشتان بين الباحث في بطون الكتب والباحث في اعماق نفسه ، واحسبني قد استقريت الخبر من قبل ومن بعد ، فقد عشت مع الماضين في كتبهم ومع الحاضرين

في مجالسهم، ولي عند بعض المباحث وقفات لا اجد الطريق لها .

مضى العمر الوانا علي كثيرة ومر على اجفاني السهل والصعب

تعاور اطرافي وتحشو وسادتي ململمة قد حاشها البعد والقرب

نشأت في النجف وتتلمذت على مدارسها ومنابرها، وبما ان النجف زاوية دينية، كانت تطوف بي احلام عقائدية ربما كانت اروع الاحلام، كما وكانت تتجاذبني اطياف اجتماعية فيها العادات والاعراف، صفحات من التاريخ المطوي او الذي يكاد ان يطوى، وتلاحقت تلك الاحلام وحملت الكثير منها معي الى بغداد فكانت تلك الاحلام المتعاقبة سجلا لحياتي من اول نشأتها ولما حول تلك الحياة، من تطورات وماجريات فهاكها مرتبة حسب ما خطرت لي، واول تلك الاحلام ما عنونته باروع الحلام وقد سبق لي نشر طرف منه وانا مقيم في النجف التي تتوافر فيها الاحلام العقائدية ، ثم جمعت اطرافه في بغداد وبعد ذلك اخذت اسجل ما ارغب في تسجيله من هذه الخواطر فجاءت هذه المجموعة.

-2-

أروع الاحلام

عند بزوغ الفجر وانتباهة القبرة كنت راكسا في تأملاتي وأنا بين الحس والغياب لا لليقظة ولا للنوم طائفا بين القلب والعين مبهورا باعاجيب العلم ومعاجز الفكر مصغيا إلى اذاعة صوت اميركا وهي تعلن ان العلماء تمكنوا من اطلاق «بالون» ذي عشر طبقات الى الفضاء الخارجي ، فقلت ، هكذا يبلغ التفاوت، قوم في الغرب يغربون في محاولاتهم فيطلقون تابعا أو رائدا للفضاء الخارجي ذا كبسولة وغير ذي كبسولة وقوم في الشرق يركبون البهيم او يزحفون على الركب. وتذكرت حلم بن فرناس المغربي وكيف تطور حتى تقمصه «غاغارين» الروسي وايلين شبرد الاميركي، وها انا أحلم والتاريخ يعيد نفسه، احلم بانسان ذي جناحين حلق من الارض الى السماء ومنها الى الفضاء الخارجي وقد شد الى جنبيه محفظتين وربط بزنديه زاملتين وجعل على اذنيه سماعتين وعلى عينيه نظارتين، وفي المحفظتين والزاملتين كل ما تحتاج اليه رحلته من آلة تصوير او اجهزة ارسال واذاعة وتلفزيون ورموز للابراق الى محطات الانصات، فكان يرسم كل شيء يشاهده ويخاطب كل المحطات المنثورة في اطراف العالم ويبرق الرموز بالاشعة، وبعد طوافه حول الشمس وفوق القمر وبعد ان فصلت كبسولته المزودة بزاد العلم، عاد حسب الخطة المرسومة، وكانت عودته الى رحب واسع لا هو

بالفضاء الذي ذرعه ولا بالارض التي ارسلته، وقد وجد في ذلك الرحب دنيا غير دنيانا وعالما غير عالمنا، وتلفت فلم يكن وحده في ذلك التيه بل كانت معه ملايين الملايين من البشر انهم اكوام من اعلى الارقام على اكوام، وفتش زوايا ذاكرته فلم يجد فيها نظيرا لهذا الحشد ورجع الى عقله فلم يجد عنده تعريفا لذلك الاجتماع ولبث غاطسا بوجوم وسكون يكاد يسمعه حديث النفس ودقات نبض الوجدان وحركة الضمير .. ما هذا الاكتظاظ والتحاشك اهو ململمة او جمهرة لاولئك الكسالى المخيسين الذين يستغلون شاطئ التمني بمحراث الرجاء الفطير؟ لا كيف اتصور ذلك الاجتماع المهيب من نوع هذا الركام الفاسد ، واذا كان مسيرة كبرى فأين اللافتات والشعارات ومالي لا اسمع الهتافات المتصاعدة من النقابات والمنظمات والاحزاب والكتل والجمعيات، واذا كانت مظاهرة فاين الاهازيج والاناشيد أهي مظاهرة صامتة وهل هي للابتهاج أو للاحتجاج، واذا كانت زفة عروس فاين الشمعة التي تتقدم العروس وأين المشاعل التي تنور الطريق للمطبلين والمغنين وما هذا السكوت العميق والخشوع البادي؟ فاين اللغط والتهريج والزغاريد والدبكة والتصفيق، واين ذلك الهذيان الذي يستولي على تلك الجمهرة حتى تكاد تتجرد من الحس وكأنها مجذوبة تهرف بما لا تعرف؟ كلا فليس هذا الحشد ولا ذياك التجمع من هذا او ذاك انه اروع وافخم. انه هنا يشاهد امواجا لملايين من البشر واكثرهم من ذوي الديانات المعقدة .اما الجماعات التي كانت صورها راسبة في ذكرياته من ذوي الكتب السماوية والشرائع السمحاء فلم تكن نسبتها من هذا الحشد الا نسبة الذرة من الجبل. ان هؤلاء الذين

يبهره تكدسهم خليط من البشر وخليط، اولهم من ذوي الديانات الفاسدة والاساطير واخرهم اصحاب الديانات الصحيحة، تدافعت جموعهم تنسل من الصين واليابان وتبت والهند ومن البلاد الواقعة بين الصين والهند ومن منغوليا وباقي آسيا مثل فيتنام ولاووس وبورما وسيام وبناما والفليبين والملايا وكوريا وسنغافورة ، لقد جاءت اكوام البشر الاسود من افريقيا واكوام الهنود الحمر من الامريكيتين واكوام بني الاصفر من اليابان وبلاد الصين واكوام الشقر والشهل والزرق من اوربا والروم والقفقاس ومن مجاهل روسيا وما وراء النهر والافغان وجاء البيض من ايران وجاء السمر من بلاد العرب .

كل هؤلاء يساقون الى حيث لا يدرون ، ما اغرب هذه المجموعة ، انها كعين نمل فوارة او حشد من الدبى بعضه فوق بعض، ارحام تقلع وارض تبلع، ان هذه القبور ملئت الارض الوف المرات وان الارض افرغتها الوف المرات وهكذا استمر الشحن والتفريغ، لقد اكلت الارض البشر مرارا كما وان البشر اكل الارض مرارا، ما بال هذه المتراصة لا يلتفت منها شخص الى شخص، لقد فرغ كل الى خاصة نفسه ، ما بالهم يهيمون في قاع صفصف ليست ذات ربع خال بل اربعة ارباع مشحونة ومكتظة. لقد استعرض سائر الممالك والمسالك التي عرف شيئا عنها في عالم اليقظة فلم تكن تشبه ما رآه، لقد رأى الناس يترنحون فيفاجئه خاطر مرعب، هل هذا هو يوم التناد؟ أجل هو هو، ذلك اليوم الموعود الذي تتهيبه كل الاجيال وتتخوف منه كل الاقوام، ولم يزل المظلومون ينتظرون منه يوم الحق . ففزع الى ربه راغبا ان يمن عليه بعارفة وهي الا يحاسبه امام الاشهاد، ولا يدل على فضائحه

عيون العباد، بل يكله الى نفسه قائلا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم حسيبا، نعم حسبه الوجدان فان قرصه اشد من لظى. لقد هاله الفزع وسمع شهيق جهنم وشاهد عنقا من نار يمد لسانا اندلع على اهل المحشر وكاد يحيط بهم ورأى الغلاظ والشداد وفي مقدمتهم مالك خازن النيران وقد تجسمت له الاهوال التي كان يسمعها من المنذرين ويقرؤها في كتب التحذير وقد استبدت به الحسرة ولم يجد تسلية تخفف عنه، ولشد ما ادهشته روعة النظام في ذلك الاجتماع . انه مستتب من نفسه بنفسه فلا يوجد هناك مرتبون ولا شرطة مبثوثة. ان النظام الاجتماعي هناك والادب العام لا يحتاجان الى قوة تنفيذية، وقد تركه هذا الحشر البشري يسخر من تلك النظرية البلهاء القائلة ان تاريخ الانسان ستة الاف سنة، فقد نطقت الاثار التي اكتشفت ان البشر موجود منذ عشرات الالوف من الاعوام، وها هو اليوم منتشر في جوانب الارض باعداد تقارب الثلاثة الاف مليون نسمة ولا امارة على النضوب لهذا المنبع، بل ان الاحصاء يدل على زيادة العدد في كل عام ولا نعرف موجة المستقبل، فاين الملل والنحل منذ البدء هل كانت لهم مناهج وادلاء على تلك المناهج، وهل لهم تعاليم وعليهم تكاليف حتى يحاسبوا عليها او رفع عنهم القلم وسقطوا من الميزان فليس لهم بعث ولا اثارة .. واذا صح ما قيل ان من وراء آدمكم هذا اربعمائة آدم فيمكن ان تكون هذه القيامة التي شاهدها هي لآدم الاخير وليس الآخر، وبعد انفجار القنابل الهيدروجينية تقوم قيامة جديدة ثم يجيئ آدم جديد وينجب نسلا جديدا ، وكيفما تكون الخاتمة فقد تشكلت المحكمة الكبرى ونصب الميزان وجاء البصير بخافية

الصدور وحضر الكرام الكاتبون ومعهم الملفات التي لم تغادر صغيرة او كبيرة الا احصتها احصاء دقيقا بلغت فيه الفرضية مثقال الذرة، فوقف يشاهد من خفت موازينه ومن ثقلت، منظر رهيب تذوب فيه الاوصاف وتتلاشى ، ولبث يتصفح الوجوه البيض والوجوه السود ويحس كأن دماغه دماغ محموم قد استحضر دفعة واحدة جميع ذكريات دنيا اليقظة وماجرياتها حتى كأن العالم قد افرغ امامه صبة واحدة، وها هو يشاهد الماضي بزمانه ومكانه واشباحه وشخوصه. كم صوت ينصب في مسمعه ويلتفت فلا يجد من يناغيه كانما هاتف من السماء يطل ويخاطبه من وراء هذا العالم. ومن جهة اخرى لقد فرح بذلك اليوم الموعود الذي يمكن ان يرى فيه دين الحق من بين تلك الاديان الغفيرة التي كانت تقيم الدنيا وتقعدها في الدعاوى لمبادئها وبسط سلطانها، تلك الاديان التي ابتدأت باساطير منتشرة بين القبائل والشعوب البدائية الذين هم لا يعرفون موسى ولا عيسى ولا محمد، كما انهم لا يعرفون براهما ولا بوذا ولا زرادشت ولا ماني ولا مزدك ولا خوفو ولا مردوخ ولا فرعون ولا هامان ولا الهة اليونان ولا اصنام العرب ولا اوثانهم، وبعد ان طويت هذه الشعوب البدائية او بعد ان اندمجت بدول كبيرة مثل دول مصر وبابل والهند والصين وما في بلاد الطورانيين وفارس واليونان والرومان والعرب اندمجت عقائدها ايضا. لقد كان الهمجي الاول وكانت بواعث الاديان عنده ناشئة من تخوفه مما يحيط به من العناصر فكان لضعفه يختار حيوانا او نباتا او حجرا يتخذه ابا يلتجئ اليه او يزعم ان اباه الاعلى حل فيه ، ومن هنا كان تقديس الملوك لان الملك عندهم الاب الاعلى ومثله

تقديس الرئيس، وان ذلك التقديس وهذا الالتجاء كان مبدأ الوثنية يوم كانت في دور التعديد ولما جاء دور التحديد وعبادة الارباب كان رب للخير ورب للشر ورب للحرب ورب للمطر وهكذا دواليك، ثم جاء دور التوحيد فكانوا يعتقدون بالاه واحد يحل في هذا الصنم او يتجسم في ذلك الوثن وقد يتسامون فوق ذلك مثل عقيدة الاحناف وقد يسفون بالارباب فينزلون الى الشياطين والابالسة وهكذا بقي البشر يتردى بين التثليث والثنوية وغير ذلك وقد تكون لهم ارباب تتمثل في مشاهد الطبيعة وقواها كالعواصف والرعد والبرق ومثل الظلام والينابيع والبحار والانهر والشمس والقمر والنجوم والى ارباب تقترن باسماء الابطال والقادة المحبوبين او المرهوبين والى ارباب المعاني مثل رب العدل ورب الاحسان والى ارباب البيت مثل رب الموقد ورب البئر ولا زالت بعض اثار هذه العقائد موجودة عند بعض ربات البيوت القديمة فقد رأيت بعضهن عند الشدائد تدلي برأسها في البئر وتصرخ بالرجاء والدعاء وترى بعضهن عندما تصب الماء الفائر في المطبخ او في البالوعة تصبه بعد مكاء وتسمية ودائما يتهيبن ويحترمن الموقد والتنور والى يومنا هذا لم تزل قبائل وشعوب في همجيتها تعبد النهر او الشمس وتقدس البقرة .
هذا بعض ما شاهد من الغرائب، وقد بشر نفسه بانه سوف يسمع اجوبة الملايين على اسئلة المحكمة ويشاهد حذلقة المحامين وبراعة اساتذة القانون خصوصا عندما تحاكمهم الحرية المكبوتة فتثبت بوضوح ظلامتها وكان على يقين بانه لن يرد المحشر مظلوم أعظم مظلومية من الحرية والفكر.

-3-

وبينما هو غاطس في حيرته، واذا بهاتف يهتف بصوت رهيب ان احضروا الوالد آدم والأم حواء، فقال مبتهجا سانظر النموذج الاول للبشر وارى الانسان العتيق صاحب القصة التي تلوكها الاجيال. نظر واذا هو بشيخ جليل من اولئك الشيوخ الذين ينشاؤن في البلاد الجبلية وكأنه من شيوخ شقلاوة هيكل عظيم فاره الوجه مشرق اللون ليس عليه شحوب او عكان او تجعد معتدل القامة ممتلئ البدن من دون سمنة او ترهل قوي العصب محكم البنيان، وبجنب الشيخ عجوز محترمة لا تقل عنه صحة واحتشاما مشغولة بملاطفته بالقصص والسوالف لم تؤثر عليها السنون ولم يحنها ثقل الدهر ، فاعتقد ان الوالدين المحترمين كانا يعيشان في وضع اصح من عيشتنا واكثر ملائمة للفطرة كانا يتناولان المادة الخام كسائر المخلوقات فلا تهرى بقلي ولا طهي يذهبان الكثير من عناصر التغذية بخارا كما ولا كوامخ او توابل او دهنيات تعطل معمل الهضم. وبقي الابوان بعيدين عن الحضارة المزعومة والتمدن الكاذب فلا شراب مخدر ولاترف مرخ، ينامان مع العصفور وينهضان مع الحمل لا يعرفان الراحة المخيسة للعصب ولا النصب المنهك، كانا يمرحان برفاه الطير ونشاط الفرس وزهو الطاووس، لا هامة ولامة غير محتاجين الى الصحة المجلوبة بالعقاقير والمساحيق. نعم جاء الاب المهيب والام المحترمة ومعهما التفاحة وجلسا في كنف الله.

-4-

ورجع الهاتف يجلجل بصوته ان احضروا النبي موسى ، فاحضر رجل التحف بالمدرعة طويل القامة مشدود العصب بيده اليمنى الالواح وباليسرى عصا غليظة مشى بخطى واسعة في رباطة جأش واطمئنان ووقف باحترام وخشوع، واذا بالنداء احضر قومك يا موسى فانطلق متمثلا وبعد هنيهة رأيت عرصات المحشر تتموج بمنظر الأمة اليهودية في ازياء واشكال، وسمعت عجيجا لمختلف اللهجات، منظر تعرف منه ان ليس للدين بزة او هندام. وهنا هدأ الحشد مصغيا الى صوت خطيبه المصقع وهو يخاطب موسى قائلا انا عملنا بوصاياك وقبضنا على زمام العالم بحبل من عصب الحياة ولا عصب للحياة غير المال، لقد برعنا في جمعه كما برعنا في مراباته. مشينا الى الغاية بقدمين ثابتين هما المخاتلة والتجارة، وقد انتشرنا اوزاعا على كل شركة او مؤسسة مالية في طول العالم وعرضه لنا يد في هذه واصبع في تلك نحن نستدر المال ونحلبه من كل ضرع، يقول حكماؤنا نحن امة داخل كل امة، لا نذوب ولا نترسب . لنا شخصيتنا الطامحة في الاقتصاد والسياسة والاغراء والختل، نحن نحافظ على تلك الشخصية ومزاياها، لنا النشاط في سائر اعمال الدس لا نتكبر على عمل، واننا دائما

ننظر الى جيوبنا ولا نهتم لقلوبنا المال والمال وحده هو المعبود البار. لقد سدنا به اكثر من سيادة بني عبد الدار. اتفقنا معهم في الطريق فلا نعمل لجنة ولا لنار ولكن وصلنا وتخلفوا لاننا عبدنا المال وهم عبدوا الرضم والحجارة. لقد كنا على الجادة دوما وقد كتبنا شعارنا بالقلم العريض (الغاية تبرر الواسطة) لا نهتم للبعيد عنا ولا بالقريب ما دام الكل في شباكنا وقد احسنا استغلالهم. يا موسى نحن اثنا عشر مليونا سخرنا مئات الملايين بل الالوف في اميركا وآسيا واوربا وفي سائر القارات، اننا نزرع بذورا كثيرة ونحصد المال. وهنا قاطعهم موسى قائلا اين بقي المعبد؟ اين الالواح اين التوراة وفرخها التلمود ؟ فقالوا يا موسى انك عتيق وذكرياتك عتيقة وان الوسائل التي كانت في احدى يديك وفي الاخرى العصا قد غرقت في النيل او انها قد بقيت في وادي التيه، وقد جدت لنا وسائل وحبائل امتع وافيد، فخير لنا ولك ان تكون انت في السماء ونكون نحن في الارض لا انت معنا ولا نحن معك ولا ندري فقد نغزو السماء وننور الطريق الى الفضاء الخارجي فنحرجك ونخرجك، يا موسى كن قرير العين مطمئن الخاطر اننا عملنا بنصائحك النافعة ونفذنا اوامرك المفيدة ، يا موسى نحن احباء الله وان عنصرنا يستمد من عنصره استمداد الابن من الاب، يا موسى ان ذوي الطباع الفاسدة من الناس كثيرون ولا يمكن ان يحاكموا بالمناقشات المدرسية وان الحرية السياسية ليست حقيقة بل فكرة فيجب ان نعرف تسخير هذه الفكرة، وهل يستطيع عقل سليم ان يسير في مهام الامور بواسطة المناقشة والمجادلة.

يا موسى ان الحق يكمن في القوة، وانّا دائما نلتفت الى المادة اكثر مما الى ما هو خير محض، وان القوة المقنعة بالالمعية هي التي تنجح، ان العالم في سباق اقتصادي وسوف يظهر تفوقنا ، ونؤكد لك اننا على مسافة هينة من هدفنا، وان علم الاقتصاد الذي حذقناه قد برهن الواقع الاجتماعي انه اقوى من كل تاج، اننا نسخر اناسا من جميع المذاهب وقد وضعنا الجميع تحت سراج الفحص . ويرد عليهم موسى بصوت رهيب، ما هذه الكلمات التي تهذون بها، اني اردت لكم الحرية والخلاص من عبودية الاشخاص وان التيه الذي سلكت بكم فيه هو الدلالة والهدى الى الخلاص لقد اردت نظافة الدم والنشأة من شوائب الفرعونية وطغيانها حتى يجيئ الجيل الجديد بعزة وعلو، فما بالكم تنحطون من عل وتستجيرون من الرمضاء بالنار، تخلصتم من فرعون مصر واستعبدكم فرعون المال، ما بالكم بعد ان نجوتم من الملأ الذي يأتمر بكم اصبحتم تأتمرون بالملأ.

ان الحرية لا تقوم على التحلل ، وان قوة اي انسان لا تمنحه الحق في نشر المبادئ الهدامة، احترموا النظام ففي النظام السعادة واغسلوا صدوركم بماء المروة وضعوا انفسكم في قالب الحشمة. ان التنافس على الثروة مفسدة، ضعوا بين حناياكم روح الملاك لا سلطة الجبار وعنف المارد، ان هيبة المبادئ السامية هي السلطة الحقيقية، فبحرص وبحزم انشطوا لاطفاء الشرور ، ولا تعرضوا الكرامات العامة للخور، استبدلوا الاحابيل بمكارم الاخلاق ولا تكونوا اشواك حقد وضغينة عن وعي وعن غير وعي، لا تشيعوا الفساد ولا تبثوا الفتن ولا تستدروا المال بالكذب والخداع، الم اقل لكم

ان الاديان محترمة وان اختلاف المذاهب لا يجذب الا الشقاق لان الشقاق يضاد المقصد الاسمى الذي تتوخاه المذاهب والاديان، ان الدين كله قيم اخلاقية، وكثيرا ما نفعت الاخلاق بدون العلم ولا تتم المنفعة بالعلم من دون الاخلاق وسيطرتها عليه. يقول ذلك وموجات الغضب بادية على وجهه الكريم، وهو تارة يطرق برأسه واخرى يضرب بيده على كريمته وتارة ينقل عصاه من يمناه الى يسراه وقد تطفح على شفتيه ابتسامة المستهزئ، قائلا اسألكم على م خالفتم تعاليمي . الم اقل ان الحياة قائمة على ثلاث، العلم والدين والفضيلة، الم اقل اعملوا الحسن لانه حسن وان الفكر الصالح والنية الصالحة بمنزلة العمل الصالح، الم اقل ان اول الطيبات ان يحب الجار جاره وليس من الانسان من لم يشارك الانسان في محنته، الم اكرر كلمة الانصاف مرارا حتى تكون كلمة الخير واضحة ، كونوا امناء فان خير الوثائق الامانة ، وان من الفضيلة الصبر والصدق . ان لكل امة مكانها على مائدة الاخلاق والادب، وان الناس جميعا يصنعون التاريخ مثلما تصنع الشمس نهارنا ، فعلام هذا التبجح برابطة العرق والدم، وعلام هذا الجمود والتضييق بالانانية القومية، واحتكار الربح بوجه صحيح وغير صحيح، اتركوا التمسك بالقبلية الضيقة واندمجوا بالعالم متطورين بالتطور العام. فقالوا يا موسى لقد عرفنا التطور كما عرفناه ولكنا لا نعول على الرجال بل نعول على القوة. قال لهم ان ألواحي لا تقول بالعنصرية وان نيتي كلها رغبة الى الفكرة النافعة فكرة الانسانية العامة. فقالوا له لقد قتلنا الزمان خبرة وعرفنا الزرع والحصاد، فلا نريد غير نظامنا ولا نتمسك بسواه. ولما طال الحوار

نادى موسى ربه قائلا ربي اني اوذيت من قومي بما لم يؤذ به احد لقد جرعوني الغيظ مرارا اضاعوني حيا لما تغيبت عنهم بعض الوقت فاتبعوا السامري واضاعوني ميتا فقلبوا روحانيتي الى مادية ضارة. وجاء النداء ان اختزل الخيرة التي اخترتها من النقباء الصالحين ، وسيق الذين ظلموا الى جهنم زمرا اولئك العايثين نفاقا وتحويرا والعادلين عن طريق الحق والهداية الى دهاليز الظلال وحفر البغي حتى افسدوا افكارهم وعواطفهم وقذروا نفوسهم ، كل هؤلاء غضب الله عليهم وغضب موسى وجرفتهم النار التهاما فاصبحت جهنم حارة يهودية كمحلة ابي سيفين في بغداد.

-5-

انتهت رواية اليهود واذا بالهاتف ينادي باسم عيسى، فيحضر المسيح بمسوحه صادعا للمثول والامتثال. حضر وعليه السكينة والوقار فخوطب يا عيسى احضر امتك. وقبل ان يرتد اليّ طرفي رأيت عرصات القيامة وقد تبدلت حتى كأن الارض غير الأرض. أرى عالما صاخبا يتخاطف بالسيارات والقاطرات السريعة والدراجات والعربات وأنواع الترام بأشكال مختلفة وهي تركض تحت الارض وفوق الارض، وأسمع بوق القاطرة ومنبه السيارة وصفير الدراجة وجرس العربة، وشاهدت في النهر السفن الشراعية والزوارق البخارية بكل احجامها وفي مقدمتها الجندول ومن بعيد أرى في البحر الاساطيل التجارية والحربية وهي تمخر من حاملات الطائرات والحراقات والمدمرات والغواصات ، وتحلق في السماء ألوف الطائرات اسرابا اسرابا، وفي الفضاء الخارجي تطوف المركبات المقذوفة بالصواريخ ، ورأيت مركبتين اقبلت احداهما من روسيا والاخرى من اميركا وعندما مرت احداهما بازاء الأخرى تبادلتا التحية لا بالروسية ولا بالانكليزية بل بالالمانية فعرفت ان المعجزة التي تطوي مئات الاميال من المسافات قد جاءت من المانيا من اولئك العلماء الذين قذفتهم الحرب العامة الثانية ، وقد تقمص بمعجزتهم غاغارين الروسي وايلين شبرد الاميركي كل تلك الوسائط النقلية تصل وتتهافت على محطات المحشر وموانيه وقواعده وهي تفرغ حمولتها من

البشر. لقد افرغت ملايين الملايين بل بلايين البلايين من الشباب المترف والغيد الحسان الناعمات من الدلال المايعات من الفتور ، أقبلوا من الدنيا الجديدة والدنيا القديمة ان كانت قد بقيت الى اليوم دنيا قديمة، وترى البرنسية واللوردات والدوقات وهم في بدلاتهم الرسمية وعلى صدورهم سطور الاوسمة نزلوا الى الارض يحملون المحفظات المشحونة بالوثائق متخاصرين مع الغواني، ورأيت الذوق الفرنسي تمثله فتيات باريس او ملائكة فرنسا شتلات الورد والريحان الماشي، تلك الاوراد التي تجعل الهواء شذى فواحا والارض مزرعة زهر يتخطى، فقلت هل انا في المحشر ام انا في وادي هيام وغرام، كلما هناك لطف وارتياح وعواطف وميول ودلال وغنج ورقص وغناء، منظر لا يأتي عليه وصف ولا يحيط به بيان ، ترى الاوانس والسيدات من المانيا وايطاليا والرومانيات البارعات في الجمال ينزلن وهن معتمدات على سواعد الاخ او الحبيب او او الخليل او الزوج تماشى عشيرها بمشية تحسبها رقصا، وترى العلماء والفلاسفة والادباء والقادة والقضاة والسياسيين من اعضاء البرلمانات والاحزاب وولاة الحكم والنقابات في مظاهرة كبرى يتوافدون على عرصات القيامة ، فيحار الطرف ويذهل العقل من تلك البهرجة ويتوارد من بعدهم مسيحيو سوريا وقسس لبنان ونصارى العراق والاناضول واليونان والهند والشرق الاقصى واقباط مصر والارمن والكلدان والسريان والآشوريين والنساطرة واليعاقبة والكاثوليك والبورتستنت فيبهرني الموقف، واقول اما كان الاوفق بالذين يرقعون دنياهم بتمزيق دينهم والاليق بالذين يذمون دنياهم وهم يحلبونها لو بدلوا المسلك

وتجنبوا العيث والعبث بالناس واموال الناس فكانوا مثل هؤلاء يحتسون الكؤوس ويسقون الارض بالباقي ويتخاصرون مع هذه الحور ويتعاطون بما تشتهي الانفس (ضم وتقبيل واشياء أخر) ثم يفدون الى هذه العرصات وليكن بعد ذلك ما يكون.

وهتف الهاتف يا عيسى اني قد باركت في شعبك ومسحت على اطرافه بالعناية لكنهم اضاعوا بركاتي وعطلوا قوانيني وتجاوزوا حدودي. يا عيسى انهم صاغوا من الصليب خنجرا ولطخوا خبز الاستغفار بدم الانسان البريء. فقال عيسى يا ربي اني قلت لهم ان الكنيسة والمسبحة والصليب شعائر للمحبة والتسامح والسلام، وقلت لهم عرضوا الخد الايمن للضرب بعد الايسر وصعدت اعواد المشنقة للفداء، وما الاعتراف والاستغفار الا للطهارة والتنظيف للنفوس من الادران والاوساخ لكنهم اضاعوا قولي. لقد قلت يا رب اني رسول الروح للروح ولكن قومي انغمسوا في القراع تارة وفي الخداع أخرى وقال الهاتف :

عيسى سبيلك للانام محبة ومودة وتسامح وسلام

يا عيسى أسمع استغاثة الملهوفين من أبناء الجرحى والاسرى وأيتام القتلى والضائعين، انظر الى تلك الالوية المصبوغة بالدم تتخاطف ، فمن اين نشأت بين قومك دعوة الشجار والخصام لقد شوهوا وجه الحق وطمسوا معالمه وقسماته ومزقوا لواء العلم واطفأوا انواره وقلبوه من رحمة الى نقمة فبعد ان كان غصن زيتون صيروه عوسجا شائكا وبعد ان كان بلسما جعلوه سما زعافا وبعد ان كان حياة انقلب موتا ، ما بال العلماء يتسابقون الى

ابادة البشر وما بال المكتشفين يفتشون عما يخرب الارض وما بال العباقرة يتبارزون ونشيدهم :

السيف والخنجر ازهارنا اف على الريحان والاسى

شرابنا من دم اخواننا وكأسنا جمجمة الرأس

لقد شنوا الغارة من قبل الحروب الصليبية الى يومنا هذا في القدس والاندلس وفي الدنيا الجديدة والدنيا القديمة في اوروبا واسيا وافريقيا حرب احتلال وحرب استغلال، تاريخ احمر طويل ومواقد نيران لا تنطفي كلما باد سلاح جددوا غيره. لمن هذا التكديس عتاد فوق عتاد ومواد حربية على مواد علام هذا التسابق لانشاء جهنم في هذه الدنيا وغريب انهم يعملون كل هذا باسم الانسانية والمدنية وبث العلم والعدالة وتقرير المصير. ادعوا ايجاد عصبة للامم ولما تقطعت تلك العصبة جاؤا بهيئة للامم وما هذه وتلك الا زوايا مؤامرات وخبايا مغامرات وشباك صيد. لقد ملأوا الدنيا خداعا ومكرا واستعمارا واستعبادا واحتلالا فكانوا يدا تحيي ويدا تلوح بالحسام ، قلبا من حديد وثوبا من حرير. كم قسوة لهم بمرونة وظلم مطلي ببهرجة وفسق مصبوغ بحرية وانحطاط للاخلاق عنوانه الرقي في الذوق وتأخر في المرؤات اسمه تقدم. كم من خصام على حطام وكم من عقبات وفخاخ وحفر في طريق الحرية، لقد قاوموا الارتقاء باسم الارتقاء وسحقوا الفن باسم الفن وسجنوا الارواح والافكار والقرائح والاذواق. فيسمع عيسى كل ذلك، ويعقد اجتماعا من نصارى الغرب والشرق ويتساءل رسول السلام عن السلام وعن الانجيل والمسبحة فكان الجواب ان اوقفوه على معرض الازياء وعلى

آخر انواع الموضة وعلى معرض السلاح من السيف الى القنبلة الهيدروجينية. وسألهم عن البيعة والدير والكنيسة، فجاؤا به الى القواعد الحربية وما تجمع فيها من طائرات وصواريخ ودبابات وغواصات ، وقالوا له لقد سهلنا الصعود الى السماء ونورنا الطريق الى الفضاء الخارجي فاصبح بامكانك ان تزورنا في كل يوم أحد ونحن نرفعك الى السماء بكل سهولة، ويفزع عيسى سائلا ربه ان يرفعه حتى يتنزه عن الارض واهل الارض قائلا : ربي ان نصارى العهد الجديد قد قطعوا كل صلة بينهم وبين نصارى العهد القديم انهم لا يعرفون شيئا عن روحانيتي ولا عن دين المحبة والتسامح الذي بشرت به. انهم يعرفون عن ماركس اكثر مما يعرفون عن بولس. انهم لم يعودوا كاثوليك وبروتستنت ويعاقبة وارثوذكس بل صارعوا شيوعيين وديمقراطيين وفاشية ويستمر عيسى في بثه وتستجيب السماء فتعلو زمجرة ويصعد عنق من جهنم وينادي يا عيسى انا لا نقبل الشفاعة لهؤلاء ولكن سوف نكافئ الذين عملوا على رفاه الانسانية وقللوا ويلاتها ودلوا عيون الناس على مظاهر قوتي وطاقات قدرتي وآيات خليقتي من مخترعين ومكتشفين وقد امرت بوضع تاج الخلود على رأس كل واحد منهم وخلعت حلل الجنة على شهداء الحرية.

وهنا ينصرف عيسى والحواريون الى الفردوس الاعلى . ولكن اخيرا يحلق «نوكالايف» الشيوعي المنتسب الى انصار السلام طائفا بين السماء والفضاء الخارجي طيلة ثلاثة ايام بسرعة مئات الألوف من الاميال يفتش عن رسول السلام فيجده في الكوكب «الأحمر» الذي لم يكتشفه رجال

الفضاء من الذين سبقوه فيهبط على بغيته ويخرج من كبسولته او علبته ويطلب من المسيح العودة الى الارض لان السلام عاد اليها وان حواريوه الذين كانوا يعدون على الاصابع اصبحوا ملايين الملايين فيقول له المسيح ان السلام الذي انشده هو غير السلام الشيوعي الذي تديرون نغمته على شفاهكم لان اهداف ذلك غير اهداف هذا .. اني اريدها دنيا نور ومزرعة خير وعالما للحرية النظيفة، وتريدونها غشاوة تبرقع افظع انواع التحلل. انكم تريدون تفكيك المثل وحبك الاغراء فيقول له نيكولايف «ان دنيا الماركسية واللينية ليست الدنيا التي تعهدها لقد تغيرت الارض ومن عليها وانا لا نريد عودة السلام المسيحي العتيق فهو لا يحتاج الى العودة من السماء الى الارض لانه موجود في الكنيسة المبثوثة في الارض والاناجيل المتفشية. ان ظروف ذلك السلام قد تغيرت ووجدت ظروف غيرها فلو عدت الى الارض لباركتها بسلاح جديد فتكون رسالتك الثانية افيد واعود ويمكنك قبل الهبوط ان تعقد اتفاقية مع انصار السلام وانا ممثلهم لديك .وبعد المفاوضة والمداولة يتفقان ويتصلان بواسطة محطات الانصات فيخاطبان بالرموز هيئة جديدة لامم الارض غير هذه الهيئة المزيفة ويطلبان التصويت على اتفاقية ذات ست بنود :

1- نزع السلاح .

2- إبطال التجارب النووية بعد تفكيك المصنوع منها وتخريب معاملها .

3- الغاء الاستعمار في كل اطراف الارض.

4- الاتفاق على سوق عالمية مشتركة وشاملة .

5- اقرار نظام عالمي صالح للتعايش السلمي .

6- تأسيس محكمة عالمية تسندها حكومة عالمية.

وبعد ان حصل الاتفاق بالاجماع على هذه الاتفاقية يهبط المسيح ليبارك الارض فيستقبل بالمركبات الذرية من دبابات ومصفحات وغواصات وتحلق فوق كبسولته المقدسة حاملات الصواريخ والقنابل الثقيلة فيسمع قعقعة السلاح وجلجلة الحديد وزمجرة العفاريت البشرية ويقول ابمثل هذا يستقبل رسول السلام! فيقول لهم اني اريد بشرا لا يعرف الشر حتى يستعد لصده ولصدمه اريد الخير العام المطلق لا الخير النسبي الذي يطارد الشر اريد عالما انسانيا بعيدا عن الادعاء والحذلقة فيقولون له اختلفنا ونحن في البداية انا نريدها واقعية وانت تريدها خيالية وخوفا من ان يجهر بمبدئه فيفسد عليهم دنياهم اذا تمكن من الارض ورسخت قدمه عليها، يقررون ان الذين صلبوه اولا غير مخطئين وهنا تحمل الصدور صليبا جديدا غير الصليب المعروف ولا الصليب المعقوف.

-6-

وجاءت نوبة المسلمين فيهتف الهاتف باسم المصطفى وسرعان ما يحظى بشرف المثول ومعه وصيه والخلفاء الراشدون. وجاء النداء ان احضروا المسلمين فلم تمر فترة الا ويعلو الضجيج بلغات عديدة منها المتنافرة و منها المأنوسة. منظر ادهش من الاول والثاني يريك ململمة آسيوية وافريقية وشراذم اخرى من بعض القارات كل يضرع بلسانه ويلهج بلغته. لقد رأيت القبائل العربية وهي تردد بلهجتها الدارجة ورجال الدين يصلون ويسلمون، ورأيت المثقفين يرتلون اناشيدهم ورأيت طوائف الحجاز وتهامة وقبائل نجد والعقير واصحاب جبلي اجا وسلمى وسائر طوائف اليمن الخضراء تصيح نحن الاهل الخلص ويزيد الحجازيون فيقولون نحن جيران بيت الله وحرم الرسول منا الاصحاب وذوي القربى ومنا الخيرة التي اختيرت وهؤلاء النجديون قد ازعجونا في اوطاننا وانزلونا عن مراتبنا التي رتبنا الله لها، ورأيت الاخوان وهم شعث غبر يهملجون على عجف النياق ويزجلون .

هبت هبوب الجنة وين انت يا باغيها

وقوم منهم يتفتلون ويزعقون (خيال التوحيد اخو من طاع الله) وهم يعدون على خيول ضامرة كانها مجموعة عصب ويلوحون بسيوفهم ويطلقون العيارات النارية ونسائهم تزغرد وشيوخهم تنشد :

عجت الصحراء تشكو عريها فكسوناها زئيرا ودخانا
ورأيت بازائهم حلقا من الناس يرفعون الاعلام قائلين:
سود وقايعنا حمر صوارمنا خضر مرابعنا بيض ايادينا

وقريب من هؤلاء واولئك مجموعة ضخمة من الاعاجم على رؤوسهم الطرابيش المختلفة والعمائم الملونة باشكال وهيئات مقصبة ومطرزة ، ولفات من مناديل حريرية وصوفية وقطنية زاهية باصباغها كانها نشرة طاووس ، واكوار تختلف اشكالا والوانا من العمائم الهندية، ومجموعة من العقل الريفية ذات الطية الواحدة وذات الطيات التي يسمونها «عقل لف» وهي لباس ذوي الحشمة ويمكن انها نوع من العمائم، وترى الاوانس والسيدات من ذوات الخمار والنصيف والبرقع والقناع والغشاوة بالمناديل او بالعبءة وذوات النقاب و «البيجه» والازار والجادر ومنهن السافرات غير النافرات مكتفيات باكاليل من الشعر او برقع شفاف لا يستر الوجه عن الناظر ، ورأيت الشيعة وقد اخذت بحجزة من امير المؤمنين علي عليه السلام ورأيت الخلفاء الراشدين وقد تعلقت بهم امم كثيرة قائلين انا لم نفرق جماعة بل اخذنا بسنة الله واتبعنا الرسول عاملين بقوله: اصحابي كالنجوم بايهم اقتديتم اهتديتم، وتطلعت فرقة الوهابية قائلة نحن دون غيرنا عرفنا التوحيد حق معرفته وعرفنا العبادة فوحدنا واخلصنا وجاءت المعتزلة والاشاعرة والقدرية والصفائية والجاحظية والعلانية والنظامية والقدرية والهاشمية والبشرية والعمرية والتهامية والجبائية والخبرية والمرغوثية والزعفرانية والضرارية والجهنية والعابدية

والنوفية والزيرتية والاسحاقية والواحدية والمرئجة والوعدية والازارقة والابايضة والنجدات والصغرية والعجاردة والثعالبة والمهشية والنوننية والعلشية والحمخزية والشعبثية الميمونية والصالحية والجارودية والمهدية والاطرافية والحازمية والراشدية والشيبانية والمفهومية والحاصية واليازية واليوفوسية والعبيدية والغسانية والصربانية والسليمانية والموسوية والفاضلية والافطحية والفاطمية والدروزية والواثفية والشمطية والنصيرية والبابية والبهائية والقصعانية والصبح آزلية والشيبانية والحنونية والمعلومية والمجهولية والخارجية والباقرية والاسماعيلية والجيلانية والرفاعية والنقشبندية والشاهورية وغيرهم من الفرق والطوائف. تلك النحل التي جاءت بها الاعاجم واقحمتها في الدين العربي لان اولئك الاغراب فهموا الدين حسب ما في ذهنيتهم من رواسب وبقايا عقائد كانت لهم، ويؤيد رأينا هذا ان كل النحل هذه ما جاءت الا بعد اعتناق غير العرب للدين الاسلامي فانك ترى المؤسس لكل هذه الطوائف غير عربي او ان تلمذته غير عربية. اقبلت هذه الطوائف على الحشر وفي مقدمتهم الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية واقبلت الشيعة الاخبارية والاصولية والكشفية والزيدية والاسماعيلية والجعفرية والبهره وهم الظاهريون من الاسماعيلية والاغاخانية وهم بقية الفاطميين وورثتهم وانهم الباطنية من الاسماعيلية ، وكل هذه المذاهب والفرق كانت تتصارع بالحجة وتتطارح بالتوحيد والعدل والبعث والنبوة العامة والخاصة والعصمة والخلافة والامامة والاجتهاد وانسداد الاجتهاد والتقليد والظاهر والباطن وعلم الاوفاق وعلم النجوم والتصوف والاشراق والكشف والتأويل

وخلق القرآن وكيفية التنزيل .

يكفي شيوخ الدير والزاوية ما هدموا منا وما خربوا

يا قوم في آثارنا الباقية قد جدت الحال فلا تلعبوا

اكل ريف منك يا بادية لـه إمام ولـه مذهب

وبينما نحن في وسط هذا الجمع واذا بصوت يدوي في المحشر والتفت فوجدت جماعة من الدراويش كل منهم نشر على ظهره جلد غزال او معز ولبس خرقة او مدرعة واتشح بمسبحة الفية وعرض على منكبيه قرن وعل وحمل بيده كشكولا واعتمد على عمود من خشب او حديد، وكلهم يرتلون النشيد باسماء اشياخهم ومرشديهم واوتادهم قد افتتحوا قصائدهم بالثناء على ابي البركات وابي الفضل مدين وابي الفتوح وابي السعادة وكمال الدين القطب وفاتح ابواب المعاني ، اصغيت الى بعضهم وقلت مساءلا ما هذه البدع من خرافات ومنامات، وما هذه العبادة بالرقص وبالتهام الجمر ولعبة السيف يا صاحب الخرقة البيضاء :

اقال الله صفق لي وغني

وقل كفرا وسمي الكفر ذكرا

ويا صاحب المدرعة السوداء:

لبست الجبة السوداء ترجو وصولك للسيادة بالسواد

نأت عنك السيادة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

ويتقدم صاحب البوق الكبير قائلا ما هذا الحشو وما هذا اللغو نحن الصوفية الصافون الطوية نحن اصحاب الحقيقة العرفانية والحكمة الباطنية

(صادنا) من الصدق و (واونا) من الوفاء (وفائنا) من المعرفة ، فينا المرشدون ومنا المريدون والمربون ولنا يعود العرفاء والاولياء والاقطاب ، فقيل له بل حولكم المخاطر والمهالك والزلل والوسواس ، شططتم عن الطريق باعمالكم (وما عمائمكم الا طيات من الرعن) .

وتكاثرت فرق الدراويش وتجمهرت جماعات الصوفية بعمائم بيض وخضر وسود، وتذكرت وانا في هذا المشهد ليلة من ليالي الصيف القائض وقد استشرف النجفيون من على سطوح دورهم (وادي السلام) واذا هم بالسرج الوهاجة تلألأ في جنبات الوادي ويبهرهم المنظر متسائلين عن الشعلة فقيل لهم انها قافلة ابواق وركب دراويش من تلامذة (تاج العارفين) وهو رجل نزع نفسه من الثروة الطائلة وتجرد من الصيت العريض الداوي الى شملة يشتمل بها ومسبحة يتشح بها يقود ململمة من المتصوفين ليطوف بها العتبات والمساجد مبشرا بانقلاب وشيك يقوم به مجدد للعالم تنتفع به الروح والروحانيون وتخسر المادة والماديون ، وقد رغبت في الاتصال به لاعرف هل في تاجه درة او انه طرطور على دماغ فارغ وهيء لي الاجتماع به صديق فاضل من علية الجالية الايرانية فجئته في ليلة قمراء والى مخيمه المضروب في السهل الفسيح من ظهر الكوفة وقد تزاحم باشخاص به وباشباح كل واحد منهم يردد بالثناء على مرشده تاج العارفين وتفرقوا الى جماعات منهم من يطبخ الشاي ومنهم طاه يجيء بالحساء ومنهم معتكف صائم عن الطعام والشراب، سألني ذلك المرشد عما اريد فقلت له اني حائر وعسى ان تكون الدليل ، فرحب بي وقال عليك ان تصوم سبعة ايام تباعا

وتصلي الف ركعة وتسبح اربعين الف مرة قائلا سبحانك خذ بيدي الى الحقيقة، وسوف تهتدي وترشد، فقلت له لا بد للتابع من الايمان بمتبوعه حتى يتعاطى بتعاليمه بعقيدة، فارني برهانك لاطمئن اليك واعتقد والا فان ما ذكرته يجمد العصب ويعطل العقل ويسلب القوى ويجعلني شبحا يهرف بما لا يعرف ويشاهد اخيلة تغويه ولا تهديه، فجذب يده من يدي قائلا انك كثيف لم تنعم (بلطف يمكنك من العروج) . وعلى مثل ذلك تركت ذلك المهبول وقومه المخدوعين وقلت في نفسي هل كل الصوفية مجاذيب او ان لكل قاعدة شذوذا وهؤلاء هم حصة الشذوذ في قاعدة الصوفية. وعلى كل حال جاءت السنوسية والحلولية والاتحادية والواصلية والعشقية والتقلينية والذرقية والشمرخانية والمهابية والحلاقية والادهمية والبهارية والاسحاقية والكرفية والقسطية والجنيدية والحالية والمحمدية والواقفية والنورية والبكتاشية والبازية والكازورينية والصفورية ، ونظر عليه الصلاة والسلام الى هذه الاشتات وتلك الفرق والنحل والطوائف فبهر وتعجب وهو يردد سبحان الله ما هذا الزرع المختلف في اي مزرعة زرع وبأي ماء سقي. ولكن القوم في واد غير واديه انهم يعدون ويصخبون واذا بهاتف يقطع نزاعهم زاجرا قائلا اسكتوا ، وعندما هدأت الاصوات وسكتت الاجراس خاطبهم رسول التوحيد ما هذه الفرقة وما هذا الابتداع في اي موضع من القرآن قلت لكم انقسموا على انفسكم وفي اي حديث قلت لكم اجلسوا متكلين على القضاء والقدر مالئين نفوسكم بالخور والضعف ، ألم اقل لكم ان المؤمنين اخوة يشد بعضهم بعضا ألم اقل ان الله يكره العبد فاغرا فاه يقول ربي ارزقني ألم امركم بحسن

الظن وحسن النية الم اقل ان الفتنة نائمة لعن الله من ايقظها الم اقل لا اكراه في الدين يا قوم ان الكتاب والجامع وسائل للعمل الصالح الذي يجبل الانسان على الكمال والفضيلة ويسل به الصراط المستقيم ويؤلف منه مجتمعا راقيا في ملكاته وسمو مداركه ونبله وعواطفه وشرف اهدافه، ذلك هو الانسان الذي يلمسك الخير والطيبة في محتويات انائه وفي بيته ومجلسه وحانوته وحرفه وديوانه وميدانه، فالدين معراج الى هذه المبادئ والدين اسمى من هذا الهرج وان خير الدين دين (العامة) ودين الفطرة والشريعة السمحاء لا التنطع والتقعر، ربي اني لما كنت بين ظهرانيهم نورتهم بنورك وادبتهم بادبك وغسلت ما في صدورهم من درن وما في نفوسهم من دغل وتركتهم اخوان صدق يعملون بوفاق واخلاص وامانة لقد بثثت فيهم النصائح وبعد الانصراف من حجة الوداع قلت لهم اليوم أكملت لكم دينكم، ولكن نزع ما بينهم الشيطان من بعدي واطلع فيهم قرنه فالفاهم لدعوته مجيبين وتنازعوا ما بينهم فذهبت ريحهم وخضدت شوكتهم وضاعت كلمتهم وولت ايامهم.

ثم اشرف المصطفى على رقعة الممالك الاسلامية وسعة خارطتها من الشرق الى الغرب وكيف زحفت تلك الراية المرفرفة على معسكرات الامم ونشرت سلطانها الروحي ونظامها الاجتماعي، فكانت تعاليم وكانت ارشادات كونت دولا وحضارة وعلوما وفنونا ومدنية ومنابر ومدارس ومكتبات انتجت عقولا وآراء وافكارا، وخلقت نوابغ وابطالا ودوخت الممالك وشيدت مجدا وخططت الاسس لما نشاهد وما نرى ، فقال (صلعم) أما سلطاني

الروحي فهو منتشر اوزاعا على وجه البسيطة ، وشهادة التوحيد تتموج معطرة الفضاء صباح مساء، ومسجد محمد معمور، ووطن محمد تستقبله الامم بالركوع والسجود في كل يوم وعشية والحج اليه من كل صوب وحدب، وقرآن محمد هو الكتاب المقدس الوحيد الذي تعطر تلاوته الافاق، ولغة محمد مفروضة تلوكها الالسن، ولكن قومي قد خسروا سلطانهم المادي انهم اضاعوا الرشد وصارت عيونهم في اقفيتهم ينظرون الى الماضي الذي فارقهم بلا عودة مبتعدين عن الحاضر وهم فيه انهم لا يفهمونه ولا هو يفهمهم ، ان الاوهام عندهم اكثر من الحقائق، والمنامات والخرافات اكثر من العقائد الصالحة، والماديات اشهى من الروحيات، اصبحوا مثل الحمل بين الذئاب والحمام بين نسور الطير بعد ان كانوا صقورا وضراغم، انهم عبدوا الجاه والنفوذ فاضاعوا رسالة التوحيد ومعنى التوحيد.

وبعد ان انتهت كلماته الحسنى من بسط البث الى خالق الاكوان وانتهت المحكمة الكبرى من المحاكمة تلي القرار النهائي وجاها غير قابل للاستئناف والتمييز وكان نصه ان هذه الفرق والبدع كلها في النار الا الفرقة الناجية وسمعت هاتفا يتلو: وان منكم الا واردها.

وكان ما كان مما لست اذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

ولقد سرني اني تشرفت بجماعة من الناجين بيض الوجوه نقيات ثيابهم تعرفت فيهم على صلاح الدين والمثنى بن حارثة وطارق وشاهدت الشيخ الطوسي وابن سينا وابن رشد وهشام ابن الحكم وصافحت سهل بن هارون وعبدالحميد والجاحظ وابن المقفع وسمعت قيثارة ابي تمام والبحتري وناي

المثنوي وموشح بابا طاهر وحافظ الشيرازي وابي الطيب وابن شبل البغدادي وشيخ المعرة والنظامي والخيام وابي العتاهية واقبال وكثيرا غيرهم.

وبعد ان رسمت هذا الحلم طلع علي مفكر فاضل قائلا بلطف وترفق، اليس ما يشبه الفضول استقراءك ما تشعب من تلك الاديان وما آلت اليه من فرق ومذاهب وملل ونحل، فان القوانين تقضي بتشعب كل فكرة خصوصا بعد ان يقتلها الزمن، فيصبح من المألوف افراغها من اناء الى اناء وصبها من قالب الى قالب، فلا اليهود ولا النصارى ولا المسلمون كانوا بدعة في ا لتحول ان كل فكرة قديمة قد تجددت وتحولت مرارا «ولا قرار للافكار» انظر الى الفلسفة اليونانية مثال وهي ام العلم كم وجدت لها قواعد تكاد لا تمت بصلة الى اصلها، فقلت اجل ان في قولك الخبرة، ولكن الفلسفة كانت حبة فصارت قبة والعلم كان قدحة فصار قبسا والجوهر هو الجوهر وبقيت البذرة محفوظة في الزرع، وانا لا انتقد هؤلاء الاشياع الا لكونهم ابتعدوا عن الجوهر وهم يدعون التشبث به لقد هربوا عن المبادئ السامية وجانبوا الاسس الروحية وطوبيات المعارف فاضاعوا العزة وتنكروا للمروات، ثم قال ذلك الفاضل ومن جهة اخرى فان اكثر تلك النحل اصبحت تشبه الاساطير البدائية التي كنسها التاريخ وصارت قمامة أثرية فما هذا النبش لما دفنه الزمن. انه بالطي اجدر. اين الدراويش وابواقهم وخرقهم واين زوايا الصوفية وعروجهم قلت بلا وانما اردت تنزيه التاريخ الديني ومسح ما على مراته من صدى واوساخ واذا علمنا ان الانسان يجمع بين المادة والروح فلا بد ان يعمل لهذه ولتلك حتى لا يكون غنيا في مادياته وفقيرا في روحياته واخشى

ان يصم غلاة المادتين الروحانيات الدينية تلك الاوظار، اني يا استاذ سطرتها للمحو ونشرتها للطي وليعلم الباحثون المقبلون ان جوهر الدين براء من كل هذا .

كما اني لا اجهل ان اقلام الكتاب قد رسمت مثل هذا الانتقاد ولكن باسلوب عتيق اصبح غير مألوف والدنيا اساليب تجد وتدثر، فرغبت ان افرغ هذه البحوث باسلوب جديد عسى ان يكون في الجديد موسم للرجاء ويجيئ زرع نافع ورد متفتح ، وان الحلم اللذيذ في الاديان الصحيحة هو الايمان بالتطور الاخلاقي ، وقطع شوط نحو الانسانية الكاملة ونحو مثل الانسانية لا مثل الظواهر والافكار المشوهة واللعب بالاساليب المقنعة، ان هذه الاديان ايمان يرد على القيم الاخلاقية اعتبارها بمرونة لا تحجر فيها ولا جمود ايمان يسفه اليهود وانهماكهم بعبادة المال وانكماشهم بالعرق والقبيلة الضيقة ويتململ من علمانية النصارى وغرورهم العلمي وجبروتهم العسكري واعتزازهم حتى باللون ويسفه المسلمين وينكر عليهم التجرد الصوفي بالمنامات والاحلام كما وينكر حشوية الظاهرين وغموض الباطنيين ووعورة الواهمين؛ ايمان يسحق الشك والارتياب ويطرد الشياطين والدجالين ايمان، ينظر الى العالم من عل ويريدها وحدة انسانية كاملة ، ان الحياة السعيدة والعالم الراقي هو ما كان مؤسسا على الايمان اولا وعلى العلم ثانية فالايمان للنفس المطمئنة والقلب العامر والعلم للعقل المدبر، ان الاديان تريد للايمان حدوده في مملكة الروح والقلب وتريد للعلم حدوده في غير ذلك من شؤون الحياة وربما لا يكون للايمان حدود ولا سدود ويكون للعلم حدود وضوابط.

-7-

احلام الماضي

نحن بحاجة الى فنان يغمس ريشة التصوير في مزيج من الابداع ليصور لنا مخايل اجيالنا الغابرة وسنن ماضيهم . لقد انكمشت شمائل الماضين واوشك ان يطويها الزمن بينما اخذت تحث الخطى اعتبارات جديدة طلعت علينا من واجهتي التقليد والمحاكاة، فمن تلك المجافاة وهذا الاقتباس سوف تطوى سمات الاجداد وتحدث فجوة بين الحاضر والماضي تفقدنا حلقات من سلسلة تاريخنا الاجتماعي، وكلما حاول باحلام الماضي هو حفظ البعض من تلك الملامح. ان الحياة واطوار الحياة احلام من البدئ الى اليوم. اين من فكر في آية النشأة وسورة العمر وقرآن الحياة وآمن في الاية والسورة والقرآن ومتى يأتي من يضع كلمة التعبير او التفسير او التأويل بازاء الحلم الاكبر (الحياة) هذا اللغز المحير والاحجية الكبرى كيف بدأت وكيف تنتهي، ان هذه المجموعة من الاحياء ابتداء من (الاميبا) الى اكبر سوبرمان وسائر انواع الحيوانات والنبات هل من رقم فوق المليون او المليار او البليون يحصي لنا عائلاتها واسرها واقسامها وانواعها وما فيها من اجهزة وعروق وشرايين وآلات تدير معمل الحياة وتلهمها الهدى والرشد للمحافظة على بقاء

الجنس وامتداد حبل النسل وكيف تختار ازواجها وكيف تحتضن افراخها وكيف تنشئهم. اما الانسان وآدمه وحواه فكل ما نعرف عنه هي تلك القصة ذات الفصول العجيبة من شجرة الخلد الى يومنا هذا الذي يبدأ ب (حلم العرس).

لقد كان ابي حلما لأبويه وكنت حلما له وهكذا تمتد السلسلة احلاما تطوف باحلام، كان الشاب يحلم بنصفه الثاني والفتاة تحلم برفيق الحياة ولكن لا الشاب متعرف على نصفه ولا الفتاة متوسمة لنصيبها وانما الامر متروك للماشطة التي تتردد بين الاسرتين المحجبتين، تتردد وهي تتغزل باوصاف الفتاة هنا وتتمجد بشمائل الفتى هناك، فاذا تمت رسالتها ونجحت بمسعاها يجيئ دور الخطوبة فتمشي لمة من قريبات الفتى الى بيت الفتاة المراد خطوبتها وكثيرا ما يكتمن سبب الزيارة ولكن اهل الفتاة يتحسسون ويكون استعراض فاذا صادفت الفتاة هوى النفوس يتطارحن الكلام ويتمالحن بالنكات ويطلبن اليد وعند الموافقة يعج سيل من التبريكات ويطاف باقداح القبول شرابا ابيضا سائغا حلوا غير مشوب بحموضة او صبغ وتزغرد الام بحرارة وترد عليها الحبايب كل ذلك والعروس ليس لها رأي ولا شبه رأي، اما الخطيب فيقولون انه اذن قل اذن خير .

وبعد ذلك تزور الحماة الكنة ومعها (النيشان) وهو هدية من مصاغ او عقد نفيس ويأتي دور حفلة العقد فتستعد ام الفتاة باشياء واشياء اهمها المائدة التي تكون امام المعقودة ساعة العقد وتتألف من خبز وخضرة ولبن انها مجموعة رموز للتفاؤل فالخبز لسعة الرزق واللبن للعيشة البيضاء والخضرة

لخضرة البيت الجديد بما ينبت فيه من اولاد. وهنالك انواع البخور والشموع والاذكار والادعية. اما ام الزوج فترسل النقل والمرطبات وشمعة العرس ومسكوكا ذهبيا يجعل تحت لسان العروس ثمن نطق ذلك اللسان بالموافقة، وأول كل ذلك المرأة وكم يكون الاهتمام بهذه المرأة عظيما وربما بلغ درجة التقديس لانها رفيقة العروس من اول يوم والناصح الصدوق، ثم تصدر من النساء الى النساء ومن الرجال الى الرجال الدعوة وبعد الحضور يأتي العاقد وهو من رجال الدين ومعه بعض الشهود ويؤتى بالعروس وهي ترفل في بدلتها البيضاء فتجلس خلف باب او ستارة وامامها المائدة والى جنبها شمعة العرس مسرجة وعلى رأسها قارئة قرآن او مرتلة ترتل بعض الادعية ويتلو العاقد صيغة التوكيل قائلا اتقبلين – ويذكر اسمها بتلطيف واحترام بان اكون وكيلك لاعقد زواجك على – ويسميه بتبجيل وتنويه ويذكر نوع المهر ومقداره وذلك بعد خطبة العقد وهي الفاظ موروثة يتلقاها المتأخر عن المتقدم ليس لها جرس ولا نبرة وكانها قوالب فارغة وتسكت المعقودة لا عن تردد وفتور ولكن دلالا وغنجا فيكرر العاقد ويكرر وصويحباتها يقلن لها قولي ولا تخجلي قبلك قد ذقنا حلاوة هذا القول، وتنطق بالكلمة الذهبية: (نعم) انت وكيلي. وتزغرد الحبائب ويصب على رأسها نثار العرس وتتحول من مجلسها وهي تتهادى بمشيتها بين التهاني والتبريكات ويوزع النقل وتطوف اقداح المرطبات ولم يكن التعاطي «بحلقة العقد» معروفا وبعد ايام يأتي وفد من امهات الزوج وقريباته يحملن منديلا ابيضا فيه المهر المنقود ومعه قطع من القماش الفاخر يسمى ملافيف وينهمك بيت العروس بتحضير ما يلزم

من اثاث وزينة للبيت الجديد «العش الذهبي» واذا كمل تكون العروس قد تجهزت فيتفق الطرفان على الليلة المباركة للزفاف وعلى الاكثر تكون امسية الخميس او الاثنين ويتجنبون الزفاف في شهري محرم وصفر وفي ليالي المحاق من كل شهر .

وبعد الاتفاق على الليلة المباركة تأتي لمة من حبايب العروس في الليلة التي تسبقها وتسمى ليلة «الحناء» وهن يحملن الحناء المعجونة ويخضبن كفي العروس بتصفيق وزغردة وغناء وتكون تلك الليلة سهرة طيبة وفي الصباح توزع رقاع الدعوة للحمام والعشاء وللزفة ومن عادتهم استيجار احد الحمامات العامة للنساء ومثله للرجال وتوفر فيه كل الحاجة الى الغسيل من اسباب زينة وصابون. وفي ذلك النهار تجيء فتيات من بيت العروس ب «الحملة» والحملة جهاز البيت الجديد ومعهن المطبلة والمغنون وقبل كل شيء يقمن بفرش غرفة العروس وتزيينها وكل الاهتمام يكون بوضع «المنصة» في صدر الغرفة وهي سبع او خمس طراحات (دواشق) منضودة ومغطاة بقطعة من الحرير ووسادة كبيرة لينة وعلى هذه المنصة ينام العروسان نومتهما الهانئة. ومن أثاث ذلك البيت او تلك الغرفة (ابريق النشرة) وهو ابريق من فخار ينقش عليه آية قرآنية وفيه ماء ويستحسن ان يكون من مطر نيسان ولماء مطر نيسان تفاؤلات كثيرة عندهم فيرش من ذلك الابريق على من يدخل تلك الغرفة كتعويذة من الحسد وفي المساء يتوافد المدعوون للمشاركة في الافراح وبعد تناول وجبة العشاء يتقدم جماعة من المحترمين ساعين لزفاف العروس بازار مقصب مخصوص للاعراس

وان لم يكن فعباءة مقصبة تتهادى بها وهي محفوفة بصويحباتها وتتقدمهن شمعة العرس ويتجنبون ان يكون في الطريق ساباط لانهم يريدون ان يكون طريق الافراح مكشوفا ويقف حارس الحارة طالبا هدية العرس فيعطى، اما الفرس فمن عادتهم ان تقف العروس في الطريق حتى يأتي الزوج ويهدي لها مملكة او عاصمة مملكة هدية لفظية فتتقبلها منه وتتوجه الى بيته ، وعند الباب ينحر لها كبش الفداء وتدخل البيت الجديد ويأتي كبير البيت فيأخذ بيد الزوج ويدخله الى غرفة العروس ويؤتى بابريق ومغسلة ليصب الماء على يدي العروسين معا حتى توضع اليد باليد بطهارة ويخرج كبير البيت من الغرفة وتعود العروس الى منصتها ويخرج الزوج لمصافحة الرفاق ويقابلونه بالتهاني ويعود الى غرفة العروس، وفي الصباح يقوم الزوج ليقدم هدية الصباح السعيد لعروسه من نقود او تحف ويذهب الى بيت الحماة فترحب به وتقدم له هدية مناسبة وبعد ذلك يعمر مجلس العروسين بالتهاني طيلة ثلاثة ايام وقد تمتد الى سبعة، وتجيء المعارف من النساء لزيارة العروس الا امها فانها لا تزور البيت الجديد الا في اليوم السابع وعندها تجيء وكل معارفها يحملن الهدايا واطباق الحلوى وهذه الايام السبعة بمثابة شهر العسل الذي لم يكن معروفا حينذاك، وبعد الايام السبعة تكون العروس ربة البيت الجديد او صاحبة التاج في تلك المملكة الصغيرة وهنا يبدأ الصراع الخفي بين الحماة والكنة فالحماة ترى انها ربة البيت ومليكته اما الكنة فترى ان الحماة جراب حفظ ونفض وقد انتهت وظيفته واحيل على المعاش.

-8-

عمارة الاحلام في البيوت النجفية

لا تمتاز العمارة النجفية عن عمارة سائر مدن العراق الا في بعض الامور الكثير منها فارسي اللفظ مثل قولهم «روازين» مفردها رازونة للرفوف الواطية وقولهم «جاركوشه» للمربع وقولهم ريزيكاري للريازة والنقوش وقولهم هشتي للبناء المثمن يكون في مدخل الدار وقولهم مرزاب لمصب الماء من الاعلى وقولهم اوروسي لنوع من الغرف يكون في الطابق الاعلى وقولهم كبش كن للعتبة حيث يخلع النعل وقولهم كلوى لاطار يكون تحت السقف وقولهم بايه للدرج الواحد من السلم وقولهم كبنك لابواب الحانوت . ومن اجزاء البناء هناك الحياض وهي مخازن صغيرة يعقدون فوقها الرازونة وبعض جدران البيوت تحجل بدكة من الخارج مستطيلة وقاية من الرطوبة والتآكل وعلى بعض ابواب البيوت دكتان صغيرتان للجلوس او لركوب صاحب البيت على حيوانه . اما مادة البناء فمن الجص الذي تكثر مادته هناك ومن الحجارة المشوية او المقلوعة من عمارة الكوفة القديمة او من عمارة الحيرة وتوجد اليوم محلة كبيرة في الكوفة تسمى المقالع وكانت هذه الحجارة المقلوعة مكسبا وتجارة لبعض النجفيين وكانت تنقل الى النجف كبقية المؤون الى ذلك البلد المحتاج وتجعل اكواما عند مدخل النجف . الطاباق وانصافه يباع

بالعدد اما ارباعه وتسمى (ارباع) فتباع كيلا بالزنبيل. وسقوف البيوت من خشب الاشجار وجذوع النخل ومن القصب مرضوض وغير مرضوض وقد يفتحون في السقف كوة يسمونها (سماية) أي نافذة الى السماء وتقل الشوارع الواسعة الفسيحة وترى في جانب كل شارع على الاغلب دروب يسمون الواحدة منها دربونة وهي بنيات الطريق وكانوا يكثرون منها لانها احسن وقاية من حرارة الشمس.

والبيت النجفي قديم وحديث ، اما القديم فدويرة فيها الف روح وروح للخير والشر والتفاوءل والتطير زجر وعيافة وحروز وأوفاق وعجائز وسوالف عجائز واوراد وادعية. وأول ما يستوقفك رأس وعل أو رأس غزال مصلوب على الباب ومعه كيس مملوء بحب الحرمل، والحرمل عندهم احسن تعويذة ، ولذلك الكيس ذباذب من العفص، وهو حمل شجرة البلوط وكثيرا ما يتعوذون به، ومع العفص قطع صغيرة من الخزف الازرق ويكتب على ذلك الكيس المعوذتان. وتجد ربة البيت حفظت لكل ليلة تعويذة خاصة وعندها لكل ظاهرة من الظواهر الطبيعية عوذة ورقي ولايام الاسبوع وليالي الشهر تفاءولات او تطيرات. اما نظام ذلك البيت فاثاث مشوش فيه الاواني المعدنية الصدئة وآلات من الحديد والخشب وفيه حوض ماء كثيرا ما يتغير لونه وينتن، وفيه رحى وتنور وحباب ودوه من طين وابية ومجمر من حديد واقداح ومشارب طينية ، وفيه من سعف النخل حصر مسفوفة واطباق وقفاف وغسالات ومراوح. اما المطبخ فمفروش بالرماد ومنبت بالاثافي السود ومصبوغ بالدخان صبغة لماعة وكل وقوده من شوك او من سعف النخل

وكربه او من نبت البادية وشجرها كالرمث والغردق والطرفاء والغضا واللويزة والسدر وغير ذلك. وفي الدار بئر عميق مطوي عليه رشاء خشن طويل يمر على محز بكره وقد شد في طرفيه دلوان. ويسرج البيت بالنفط او بالشمع ولا نغمة في ذلك البيت الا ترنيمة متقطعة على فم فتاة او دمدمة على براطم عجوز تناغي فرخا في المهد او تغني على رحى تديرها بعد ان تملأ لهواتها بالحب وغالبا تقوم عليها في الهزيع الاخير من الليل وما اشجى تلك الترنيمة فكلها نعى او تعديد تبله بالدموع الحارة واذا كان شيء من الغناء فهو الغناء الحزين وغريب ما يقال اذا طابت النفوس غنت ففي هذا البيت اذا استاءت النفوس غنت. اما عجوز البيت فمجموعة قصص وسوالف. وكبير البيت تسمع زمجرته وزجرته تتصاعد الى السطوح وتتقاذف من الشرفات على تلك الحبيسة، للمرأة حدود لا تتعداها عندهم وللرجل حقوق وعليه حقوق. هذا هو القسم الداخلي من البيت اما الخارجي ويسمى البراني، وهو محل الاستقبال للرجال خاصة، فبناية تشتمل على غرفة واسعة شيدت بالجص الابيض ولكن سوده الدخان وشرعت في واجهتها مما يلي الدار خمس او سبع ابواب ولا بد وان يكون العدد وترا ويسمون تلك الغرفة (طنبية) تشبيها لها بالقبة الكبيرة ذات الطنب وأمام الغرفة ساحة وفي ناحية من الساحة موقد لطبخ القهوة وقد يكون الموقد من نفس الغرفة اما فراشها صيفا فمعد من الزل وهو حصر مستطيلة تسف في البصرة او البحرين وشتاء تفرش بالسجاد والبسط وفي اركان المجلس وزواياه حشايا ومساند مبثوثة وهذه الجلسة تساعد عليها ادابهم وازياؤهم، ترى الجلاس وقد تساندوا

ورصت صفوفهم وكلما ضاق المجلس قالوا يسع حتى ان بعض السذج كان يظن ان يسع ملاك يوسع المجلس . ويطاف على الجلاس باقداح الشاي وابارىق القهوة هذا بين يديه نارجيلة وذاك تطرف انامله السيجارة وفي قبضة ذاك سبيل او شطب. تكتض تلك الاندية في الصباح والمساء، مجالس ليس فيها الا المخيس للعصب او المنوم وكان ذوو الوقار يركبون الى تلك المجالس الاتن البيض ويظهر ان هذه عادة قديمة موغلة في القدم وربما كانت متحدرة من العبريين الاقدمين الذين كان اكابرهم يركبون الحمر البيض وبالاخص الاتن. جاء في سفر القضاة الاصحاح الخامس منه مخاطبا الرؤساء (بارك الرب لكم ايها الراكبون الاتن البيض الجالسون على الطنافس ..) . هذا هو البيت النجفي القديم في دخلانيه وبرانيه وكل اهل هذا البيت موغلون بالرجعية حتى انهم يعرفون عن عشرة قرون سلفت اكثر مما يعرفون عن ماجريات يوم واحد من ايامهم الحاضرة وعندما تسمع من تلك البيوت ما يقص عليك عن الاجداد تعتقد انهم معك اليوم وانت معهم فالعادة والعرف والتقاليد والنبرة وكل شيء هو هو حتى كأن الزمن قد جمد او تحجر فلم يتقدم شبرا ولا قطع ساعة . وتجد الرابطة بينهم قد تجزاءت فلا هي رابطة قبيلة خاصة ولا اقليمية. انها رابطة حارة فقط واطفال الحارة كانوا يتحزبون لحارتهم فيحاربون الحارة المجاورة . وهناك ميادين ومبارزات وفي رأسي الان آثار لتلك المشاجرات كما هي في رؤوس رفاقي في السن. لقد كنا نتقاذف بالاكر، وقد تتعدى رابطة الحارة من الصغار الى الكبار ولكنها هنا افيد واعود. فان اهل الحارة يشعرون بالوحدة وكأنهم اخوة من ام وأب وأسباب

التعاون والاشتراكية متوافرة ما بينهم والكثيرون من اهالي الحارة يعقدون مجالسهم على ابواب الدور أو رؤوس الشوارع، وكثير من الباعة يطرحون بضاعتهم في الشارع وينادون عليها ولكن الناشطين من أهل البيوت يسترذلون هذه السلع ويسمون سوقها سوق العاجز او الكسيح والنساء تتهافت على هذه البضاعة اكثر من الرجال.

اما البيت الحديث فقد تجددت هندسته وجدد نظامه وصار من مرافقه الحديقة والحمام البيتي ومن ريازته الاصباغ والادهان ومن مواد انشائه الحديد والسمنت ومن اثاثه الاسرة والكراسي والارائك والمصابيح الكهربائية والمراوح الكهربائية ومكيفات الهواء واشتبكت عليه اسلاك الهاتف والحاكي والتلفزيون والضوء وفيه مكائن الطهي والخياطة والتطريز وآلة المكوى فلا مواقد ولا مخابي ولا دخان خانق ولا رماد وكل الوقود والتدفئة بالغاز او النفط او الكهرباء ، ولا توجد مخازن للميرة ولا مخابئ للكوامخ او للدهن ولا تنور للخبز ولا اجانة للغسيل ولا دلو ولا رحى ولا صفائح لنقل الماء ولا حباب ولا حياض انما هي مواسير وقساطل. وقد تبدلت الازياء وانقلبت انقلابا كبيرا استخدم فيه الذوق والظرف واللياقة والتناسق وكثر حسن الاختيار للالوان والتقاطيع اما المادة فمن الحرير او الكتان او الصوف الممتاز. وجلوس اهل البيت على الكراسي او على الارائك فلا ترى احدا يجلس على الارض. لقد كان رد الفعل عظيما ، كان البيت موغلا في القدم ولكنه اليوم يريد ان يتجدد في كل ساعة. ارى اولادي اذا حدثتهم عن اوائل حياتي ينظرون الي قائلين وما فائدتنا بايام ابيك وجدك بل ولا بايامك

الاولى. ان البيت النجفي الذي لم يكن يسمع صوت جاره الا بتكلف اصبح الان يسمع الصوت من اقصى الدنيا يتردد في زواياه، وبعد ان كان يعتبر الصورة في زجاجة المصور معجزة من المعاجز اصبح يشاهد الشخص البعيد عشرات الكيلومترات ماثلا امامه وهو يخطب او يغني او يرقص او يحارب او يصيد واصبح يشاهد ماءه ينبع من الجدران وضياءه ينبلج من صفحات البيت او من سقفه فلا سقاء ولا ساقية ولكنها الحنفية كما ولا فتيل ولا جاز ولا نفط ولا دخان ولكنها المفاتيح تنور ولا تنور. والبيت محزم بانواع الاسلاك ولانواع الاغراض سلك للنور وآخر للصورة وآخر للصوت وكل بيت هو الدنيا باسرها لكنها دنيا اسلاك ومفاتيح. وبالرغم من هذا فان اهل البيت لم يتطوروا . انك لا تجد في عاداتهم ونظامهم العائلي تغييرا حتى الان. ترى البيت في ولادته وحضانته وتنشئته وزواجه كله روحيات وحروز. والنجفيون يطلقون البيت على الاسرة الكبيرة وقد نشأ في النجف ما يربو على ماية بيت علمي او ادبي احصى منهم الشيخ محمد السماوي في ارجوزته «عنوان الشرف» سبعين اسرة وفاته اكثر مما احصاه. وهذه البيوت النجفية منها ما كان اول شهرته في الكوفة ثم كان لها الانتقال الى النجف ومنها ما نشئ في النجف. اما ما كانت تنشئته في الكوفة اولا كما ذكر ذلك الشيخ السماوي فآل رافع وآل ابي شعبة وآل التمالي وآل ابي سارة وآل ابي جعده الغساني وآل ابي جهد وآل ابي نعيم وآل ابي حيان مولى ثعلب وآل ابي السمال وآل ابي اراكه وبنو دراج النجفي وبنو رباب وبنو فضال وبنو اعين وكثيرغيرهم .

-9-

الحلم بالوليد وتنشئته

في ذلك البيت القديم طاف الحلم بالعروس وحملت الامانة، وعندما احست ضاحكتها الامال وفي اخريات الشهر التاسع حلمت بالهلال يطالعها فافاقت مستبشرة وبعد فترة استهل الوليد، فتناولته القابلة مهللة مكبرة وفي اليوم السابع يعق له (والعقيقة) كبش للفداء يكون للذكر فقط من الاولاد وقد يعقون له يوم ختانه ويوم يحلقون له رأسه وذلك عندما يكون في الثانية من عمره وغالبا يترك عند الحلق خصلة من الشعر وسط الرأس تسمى كعكولة وقد يتركون له خصلة اخرى فوق الجبهة يسمونها «كذلة» من القذال. والطفل تتعهده الامهات حتى الخامسة من العمر والاولاد دائما يتقاسمون الاداب بين الابوين فالعطف للامهات والاجلال للاباء وكثيرا ما تصد الامهات عن اطفالهن الحسد او ترد العين بعوذ وحروز مختلفة وللولد الذكر زفة عند ختانه وأخرى عند ختامه قراءة القرآن وثالثة عند عرسه اما البنت فليس لها الا زفة واحدة وهي زفة العرس، وكان اكثر ما يهم الابوين توفير التربية البدنية للطفل وقليل منهم يهتم للتربية الذهنية التي يتركونها للمدرسة وللنادي وكانت القاعدة الاساسية عندهم قولهم ربه سبعا وعلمه سبعا واصحبه سبعا واتركه لشأنه بعد ذلك .

الملة والشيخ او التعليم والتمرين

كان تعليم الاطفال يبدأ عند (الملة) وهي احدى العجائز من النساء واوله ان يتعلم الحروف غير المشكولة فالمشكولة وبعد الانتهاء من قراءة الحروف يجيئ تعليم قراءة اجزاء القرآن وعند ختام هذه القراءة ينتهي دور الملة بما يسمونه (ختمة) ويجيئ دور الشيخ وغالبا يكون كتاب الشيخ في احدى عمارات الاوقاف وعلى الاكثر المساجد ويفرش الكتاب بالحصر المسفوفة من القصب المرضوض «بارية» وامام التلميذ صندوق خشبي فيه جهاز التمرين من محبرة واقلام وقراطيس وهذا الصندوق يصبغه الوسخ والحبر، تحدب التلاميذ للتعليم والتمرين كطيور تتلاقط الحب. اما الكتابة فتكون اولا تمرير على صفيح وبالقلم الثلثي ويتوج ذلك الصفيح «بالمشق» وهو سطر في اعلى الصفيح يخطه الاستاذ ليكتب التلميذ على منواله ملء ذلك الصفيح ويعتمد الاستاذ برسم ما ينفع التلميذ حفظه في هذا التمرين فمشق يقول تعلم يا فتى فالجهل عار ومشق يكون اذا جادت الدنيا عليك فجد بها ومشق يقول من علمني حرفا صيرني عبدا وهكذا دواليك حتى اذا تمرن التلميذ على مسك القلم تحول الى الكتابة على القرطاس واذا اتقن هذه الكتابة يكون قد انتهى تدريبه، وفي هذا الدور يتعاطى بعض التلاميذ تعلم الحساب، اما ادوات الاستاذ فهي السكين لغرض قط الاقلام وعصا للضرب وفلقة للتأديب وهي عصا غليظة تثقب من وسطها بثقبين يفصلان بمقدار شبر تقريبا وما بين الثقبين حبل واذا استحق التلميذ العقوبة ادخلت قدميه في ذلك الحبل

وامسك بطرفي الفلقة تلميذان قويان ويلويان الحبل فيأتي الشيخ بعصاه ويضربه على باطن القدمين بحساب وبدون حساب اما المضروب فيتألم ويصيح بلفظ التوبة وكم من مرة ذقت تلك العصا وأتيت الى اهلي شاكيا فكانت تسليتهم لي ان العصا من الجنة ، وكان اكبر المحرمات على التلميذ اللعب داخل الكتاب او خارجه. اين هذا من روضات الاطفال اليوم والعابهم الرياضية وفرص اللعب والعطل الرسمية ، وقد كان الصرف على التعليم بكل ادواره لا يتجاوز الليرتين الذهبيتين اي ما يساوي ستة دنانير تقريبا اما اليوم فالكلفة بالمئات او الالوف من الدنانير فالتلميذ اليوم يشتري العلم غاليا ولكن لتعليم اليوم ميزات طيبة أهمها التيسير لقد كنا ندرس العلم الواحد ثم ننتقل الى الآخر وكان التعليم بطيئا فالنحو مثلا يدرس بسنوات اما تلميذ اليوم ففي سنة واحدة يدرس علوما عديدة ويطوي كتبا كثيرة وتمتاز دراسته بالاختبار والمناهج.

وكانت في النجف كتاتيب عربية بحتة وكتاتيب مطعمة بالفارسية واشهر الكتاتيب العربية يومذاك كتّاب آل الفحام وكتّاب الشيخ جعفر المعلم وكتّاب الشيخ باقر قفطان وكتّاب الشيخ محمود، كما وان اشهر الكتاتيب المطعمة كتّاب جناب عالي وموقعه في الطابق الاعلى من المشهد العلوي «الصحن» وكان مختصا لابناء الطبقة العالية. وجناب عالي تسميه اختارها لنفسه صاحب ذلك الكتّاب الارستقراطي تعظيما وهو شيخ علوي كرس حياته للتعليم وكان ما يتقاضاه من التلميذ شهريا اكثر من كل ما يتقاضاه كل معلم غيره وهو كما قلنا ارستقراطي النزعة يقيد تلميذه باداب ومراسيم كثيرة فلا

يقف التلميذ امامه الا مكفرا يديه ولا ينبس بكلمة الا بعد ان يرفع اصبعه طالبا الاذن فان اذن له تكلم . والسلام عليه يكون بتكفير اليدين وانحناء الرأس ولا يخاطب الا بجناب عالي وحتى اليوم لا اعرف اسمه الخاص وقد تادبت عليه طيلة سنتين. وهو يكلف تلاميذه بحفظ منظومة ابن مالك ولا بد وان يرددها كافة التلاميذ دفعة واحدة بترجيع وترنيمة كما يردد تلامذة اليوم الاناشيد المدرسية. وكانت له بنت وهي وحيدته يحبها الى درجة التقديس فكل تلميذ يريد الحظوة عنده يقدم هدية باسمها وكل تلميذ يريد تخفيف العقوبة يقسم عليه باسمها وهو قسم عظيم عنده. وفي شهر رمضان يفرض على كل تلميذ ان يصنع اهله طعاما لافطارها. ومن غريب اطواره انه اذا سمع همسة او نهمة من تلميذ لم يشخصه يسأل عنه التلاميذ فان احجموا عن الاجابة يغلق باب الكتّاب ويتناول عصاه ويسوق التلاميذ امامه يركض ويركضون داخل الكتّاب والويل كل الويل لمن تنوشه العصا وينتهي الامر بعد جولات . وعند صرف التلاميذ لا يرضى لهم الا المشية العسكرية اثنين اثنين او اربعة اربعة، والمتخرج من كتابه دائما يكون متفوقا على كل متخرج من غير كتابه وكانت عنده للتأديب عصا عادية وعصا اخرى غليظة يسمها (جوب عرب) اي عصا عربية يضرب بها من يستحق العقوبة الشديدة .

-10-

ويموت أبو الوليد ويترعرع اليتيم يعوضه حنان الام عن حدب الاب وكانت لامه جارة من آل الفحام ذلك البيت الجليل المنجم بالعلماء والادباء تولت تعليم الوليد. وكان لتلك المعلمة الحبيبة اخوان هما السيد حسن والسيد محمود وكان الكثير من ناشئة النجف يتأدبون عليهما وكان مجلسهما للتعليم في عمارة لليتم الذي انشأه الدرويش ابراهيم خان في اواخر القرن الثالث عشر للهجرة وجعل فيه قسما داخليا وبذل عليه اموالا طائة وموقعه في محلة العمارة تحت الطاق المعروف بطاق الدرويش. لقد اودعت المعلمة الوليد عند اخويها ولما اتقن الكتابة تقدم للدراسة العلمية كان يلبس البزة العربية الشائعة كوفية وعقالا ولكن احتراما للعلم وضعوا على رأسه العمامة وكان من عادتهم ان يلف العمامة للشيخ الجديد شيخ قديم محترم وعندما كورت على رأس الشيخ دمغها الشيخ القديم ورصها كي لا تكون قلقة على هذا الرأس ولكن بكل اسف بقيت قلقة حتى الان .

-١١-

الحلم التاريخي

اذا عرفت ان النجف زاوية دينية تعرف ان القديم فيها اكثر من الجديد لأن الدين بتقاليده وشعائره مصمت . وكان الاجدر بالنجف ان تكون فيها النهضة الادبية قبل النهضة السياسية ولكنها نهضت سياسيا ولم تنهض ادبيا كما يليق بها لان النهضة الادبية تلطف وتصقل كثيرا من المبادئ التي يود البعض ان تبقي على غبارها، وعلى الرغم من ذلك كان القرن العشرون الذي هدم وبنى قد انتقلت عدواه الى نفوس الصالحين اولئك الذين تمردت ارواحهم على الطالح فتعاطوا وجوه الاصلاح بان هدموا شيئا من القديم ووضعوا حجر الاساس للجديد المفيد لكنهم كانوا ممتحنين بحالة اجتماعية ثقيلة، ولم يجدوا طرفا من الاقبال على بضاعتهم فكانوا يعيشون على اعصابهم ويتغذون بادمغتهم وارواحهم وتكاد تكون حياتهم في عزلة وانقطاع حتى كأن الاديب النجفي يعيش في فلك وحده . ذلك الاديب الذي كثيرا ما اطربك بقيثارته تراه منطويا على نفسه ومنقطعا الى منعطفات الوادي بين الدكاك وحول التلعات وهو مثل المفكرين القدامى في بلاد العرب يتلقى الوحي في العزلة اكثر مما يستلهمه من المجتمع. تراه في مغارة الوادي او بجنب الربوة اكثر مما تراه في محفل او في ندوة، لقد كان مدفوعا او

مضطرا الى التشرد على انه كان بوده لو غطس في المجموع وتوسط الناس. ان الاديب النجفي رفع الراية عاليا على ربوات النجف وفراض الفرات ولما ضاق به المجال زحف بالراية الى بغداد وضفاف دجلة فاجزل وابدع. لقد كانت في النجف للحركة الفكرية كما المحنا في غير هذا المقام خميرة وبذور كثيرة انبتتها مزارع مختلفة فالحركة الفكرية في النجف نتيجة لا علة وقد اعان على ذلك المكان والزمان .

المكان

على طف الجزيرة وحمادها بين سواد الفرات وبياض الصحصاح مما يلي ظهر الكوفة وعلى خد العذراء ابراج سور كانت وضعته الهندسية وضعة اسد رابض يطوق مدينة راكبة على متن الوادي متمتعة بانف البرية وجمال الهضاب يناوحها الهبوب الناشف وحولها الربوات البيض تتخللها مساحب السيل والنجفيون يسمون تلك الربوات «طارات». وهناك مساحات مفروشة بالعشب قد نورتها الشقائق. وكم كانت لنا زمن الربيع مجالس على ذلك البساط الاخضر المنقوش بالازهار الفواحة. فالنجف تطل من جهة الشمال والشرق على مخيم فيه القباب والمصاطب والحفائر والدكاك، تلك هي جبانة النجف التي ترفرف في سمائها اجيال واجيال من ارواح البشر، وتطل من جهتي الغرب والجنوب على واد افيح ربما دلت اثاره الجيولوجية على بحر او بحيرة في التاريخ القديم ، سماءصافية وجو بهيج نقي وشمس على شمس من القبة الذهبية الموقرة ومن السماء، النجف هي خورنق اليوم وقريب منها خورنق الامس. ان النجف المعرى الذي تكتنفه اودية منورة الاقاح كان منتزه

الساسانيين والمناذرة والعباسيين وكانت الندامى تقصده في الربيع من اعالي الشام واطراف الجزيرة لجمال موقعه فالبر من طرف والبحر من طرف وحوله لنصارى الحيرة بيع واديرة مبثوثة في بلاد العيون التي تسمى اليوم بلاد القصور ويريدون بالقصور بقايا تلك الديارات التي كانت عامرة بالمقاصف ومجالس الطرب والزهور وبجلال الموقع وجماله وباعتدال الجو وصفائه ولطف الرملة النقية وبهاء الكواكب والقمرين وكان لذلك كله الاثر البالغ في تكوين روح الاديب النجفي ونشأته النفسية والهامه.

الزمان

للشيعة مدن علمية تعاقبت في الظهور حسب الاحوال الاجتماعية والسياسية التي تنقلت بهم من مركز الى مركز ومن وقت الى وقت فكانت الكوفة وكانت «قم» ثم الحلة السيفية ثم حلب ثم شيراز ثم اصفهان ثم كربلاء ثم النجف وربما كانت «جبع» احدى مدن عاملة والصباغية احدى مواقع البطائح والرماحية إحدى مدن خزاعة في الفرات الاوسط من المراكز العلمية. كل هذه المدن كان لها في بعض الاوقات السلطة الزمنية والدينية وكانت محطات علمية توزع تلاميذها على الاقطار الشيعية ويهاجر اليها رواد العلم وطلابه وفي كل منها حتى اليوم اثار علمية، ففي «قم» زوايا ومدارس وخوانق قديمة وفي شيرازمحلة كبيرة تعرف بمحلة العلماء وللعرفان الشيرازي والادب الشيرازي انتشار وشهرة. وكل تاريخ الحلة علم وادب، وكتاب المسائل الحلبية يشهد بما كان لحلب من تاريخ الشيعة، وتكثر في اصفهان وبلاد عاملة المدارس التاريخية والمحلات العلمية وقبور العلماء الشهيرة كما

شاهدتها في جبع واكثر الكتب الحية والتأليف الممتعة التي بين ايدينا اليوم هي للقمي والحلبي والشيرازي والعملي والاصفهاني والرازي والحائري والغروي، وقد انتقل النتاج الفكري من كل هذه المدن الى النجف ولاجل التلمذة على منبر النجف هاجر ولا يزال يهاجر الجمع الغفير من سائر الاقطار. فالشيعة هاجروا بالادب ومواعين الادب. اجل لقد هاجروا باذواقهم وميولهم وعقولهم واسلوبهم الفكري فاوجدوا في النجف حركة فكرية تمتاز عن الحركة الفكرية في امهات المدن العراقية مثل البصرة والموصل وبغداد. وهذه الهجرة نفعت النجف وانعشتها بامور عديدة ادبية واجتماعية واوجدت لها مكانة عالمية مرموقة فالحركة الفكرية القديمة والنهضة الحديثة بما فيها من جهاد علمي وعناد سياسي وتجديد ادبي واتجاه اصلاحي كلها كانت بنافخ من تلك الهجرة. لقد كان لذلك الاحتكاك اثر ادبي في الحركة الذهنية الجديدة التي تمخضت بها النجف منذ نصف قرن تقريبا. وكانت الهجرة للنجف بالامس انفع منها اليوم، وقد اعان على نشاط الحركة الفكرية في صفوف النجفيين ما كان للشيعة من مصادر ثرية للمعرفة تزودهم بزاد الفضيلة من ادب النفس وادب اللسان وصقال الذهن ولطف الذوق والغور في التفكير والتحليق في التصور فكم من الواح تاريخية ولافتات للبطولة وكم من قصص تهز جوانب القصاص وكم من مثل نبيلة وقدوة حسنة ومواقف للرجولة وحث على الطيبات وبعث للمعروف وتشويق لمكارم الاخلاق كل ذلك باسلوب راق وبيان فصيح بليغ جامع مما تسمعه من المنبر الحسيني الموقر اذا اعتلاه الاديب الواعي ومما تقرأه في كتب البث والحث مثل كتاب

نهج البلاغة وشرحه لابن ابي الحديد وكتب المناجاة الروحية والتجرد وما فيها من عروج وسمو وكتب الادعية والزيارات مثل الصحيفة السجادية ودعاء ابي حمزة الثمالي ودعاء كميل ابن زياد ودعاءالصباح. هذا النور وهذا الشذى وهذا الشراب السائغ تجده مشرقا في نفوس النجفيين وفي انديتهم وبيوتهم ولا بد من المامة بالبذور والجذور للحركة الفكرية في تلك البقعة او في البقاع المتقاربة هناك فكم من معاهد ادبية توارثت الحركة الفكرية معهدا بعد معهد مثل «عاقولا» الواقعة حول الكوفة او هي الكوفة في الزمن القديم.

لقد كانت عاقولا مدرسة سريانية وبقيت الى عهد الرومان في العراق وقد انتقلت اليها دراسات يونانية. ولما درست عاقولا نهضت الحيرة فكانت واجهة كبرى للادب ترى فيها الكثير من الافكار المبثوثة بين العاصمة الحيرة وما حولها من الديارات وانتقل ما في الحيرة الى الكوفة ثم انتقل ما في الكوفة الى النجف.

المدرسة العراقية

كان للمدرسة العراقية من قبل ومن بعد اكبر خدمة للغة العربية واداب اللغة لا يجاريها الا الحجاز باسواقه اولا وفي مقدمتها سوق عكاظ وثانيا مدرسة القرآن ، ان العراق قبل الاسلام في الحيرة والمربد قد اشاع اللغة العربية والفكر العربي والادب العربي وشد البلاد العربية برباط ادبي ووحدة اسلوب حتى كان ما في الحيرة والمربد هو ما في الجزيرة وفي بلاد غسان واسواق الحجاز ونواديه وكانت الرابطة متينة بين الشعراء والخطباء رسل الثقافة

يومذاك وما هم الا مدرسة سيارة .

اما في العهد الاسلامي فقد احتضن الحجاز مدرسة القرآن والسنة وبقيت المدرسة العلمية والادبية والفنية بما فيها من ترجمة ونقل اصطلاح وتعريف وتلقيح فكري وزواج ذهني لمدرسة الكوفة والبصرة والنجف وبغداد وقد نشرت المدرسة النجفية كما ستعرف عدة مدارس اعانت على خدمة الذهن واللغة فمن هذه المدارس ومما نشرت تلمس حركة فكرية قوية تسير بخفاء وظهور وسرعة وبطء في المشاهد والممالك لها النصر والفتح وبكلمة جامعة اقولها جازما عن سبر وطواف ان ما جاءت به الحيرة والمربد والكوفة والبصرة وبغداد والنجف من آداب اللغة وما وضعته او نقلته او اصطلحت عليه للعلم بسائر انواعه والادب بسائر الوانه والفن بسائر اقسامه مما اشتملت عليه امهات الكتب والوف المصنفات التي هي الاب والام للبحث والتأليف هذه الثروة العراقية لم يأت بمثلها قطر من الاقطار العربية في يومنا هذا واذا باهلت النهضة الادبية الاولى ومركزها العراق النهضة الجديدة ومركزها مصر ولبنان فالراية ولا شك معقودة للعراق .

-١٢-

الجامعة النجفية

فاتيكان الشيعة وازهر العراق قبل ان يوجد الازهر. ولا تمتاز هذه الجامعة باسلوب فكري خاص انما هو اسلوب الفكر القديم طبعته الكوفة بطابعها طابع الاداب العربية والعلوم الاسلامية وكانت على الاخص مدرسة علوية اسسها منبر علي عليه السلام، ومن تتملذ عليه من ابنائه واصحابه وبعد استشهاده كان قبره الشريف مطافا للابناء والاحفاد والتلامذة فامتدت المدرسة من الكوفة الى النجف وفي القرن الثاني للهجرة بدأت العمارة والتشييد لمدينة النجف تدريجيا فانتقلت المدرسة من الكوفة اليها وبقيت الكوفة تصب في بحر النجف الى القرن الثامن للهجرة وعند ذلك استوعبت النجف كلما كان في الكوفة واصبحت اهم مدينة في العراق حسب صراحة الرحالة ابن بطوطة وصارت الكوفة محلة للاثار والتاريخ. ومن بداية القرن الثالث للهجرة ظهرت شخصيات علمية في النجف مثل شرف الدين بن علي النجفي واحمد بن عبدالله الغروي وابن شهريار وقد يدل على وفرة طلاب العلم في النجف كثرة ما بذله عضد الدولة في القرن الرابع على علماءالنجف وفقهائها . ويظهر ان المدرسة النجفية او الهيئة العلمية لم تتكامل وتكون ذات حلقات ونظم علمية الا في القرن الخامس للهجرة على

عهد الشيخ ابي جعفر بن الحسن المعروف بالطوسي الذي هاجر من بغداد الى النجف بهيئة علمية فانتقلت بهجرته مدرسة كبرى الى النجف وبقيت تلك الهيئة العلمية في النجف الى القرن السابع للهجرة وفيه انتقل معظمها الى الحلة السيفية وبرغم هذا الانتقال لم ينضب المنبع . على ان ذلك لم يدم فما عتمت الحلة إلا ان ترد الامانة الى اهلها وتعود النجف المركز الوحيد للعلم والعلماء.وعلى مثل هذا بقيت ثلاثة قرون تنبسط وتنقبض ويتعهدها مجد اثر مجد الى بداية القرن الثالث عشر للهجرة، وذلك عند تأسيس المدرسة الاصولية في كربلاء بمسعى الاستاذ الكبير محمد الباقر ومن بعده انتقل اكبر تلامذته الحجة محمد المهدي بن المرتضى الطباطبائي الملقب ببحر العلوم الى النجف وتعمر به النهضة العلمية وينجم عصره باكابر العلماء وتصبح المدينة محلة لبيوتات العلم والادب ومحطة علمية يفد عليها رواد العلم والفضيلة وتقصدها وفود الادب من سائر الاقطار، فانت ترى ان العلم في القرون الاخيرة تنقل بين الحلة وكربلاء والنجف ، وقديما كان في النجف ثلاث فرق للشيعة الاثنى عشرية لكل فرقة مدرسة وأول تلك المدارس مدرسة الاخبارية للشيخ يوسف البحراني واهم كتبها كتاب الحدائق الوردية واقل تلك المدارس مدرسة الكشفية وهم من اضعف الغلاة ومدرستهم مدرسة الشيخ احمد الاحسائي اما المدرسة الاصولية فهي مدرسة الاستاذ محمد الباقر وكتبها في الفقه كثيرة كالشرائع للمحقق واللمعة وشرحها للشهيدين وكانت اكثرية الكشفية في كربلاءواطرافها واكثرية الاخبارية في الفرات الاسفل وبلاد الجزائر والجوازر والخوز وشط العرب والبصرة ولهم

كثرة في النجف ولكن المدرسة الاصولية اكتسحت هاتين المدرستين . وفي غضون القرن التاسع والعاشر للهجرة كانت في النجف طائفة علمية كبيرة تنتسب الى (الرماحية) وهي مدينة دارسة من مدن خزاعة في الفرات الاوسط تقع بين النجف والسماوة . واستقرت المركزية العلمية في النجف واصبحت هذه المدينة جامعة علمية ضمنها كليات عديدة ولكن بصورة غير منتظمة فهي مبعثرة في ذلك المحيط المسور فيها كلية للاداب وكلية للغة وكلية للرياضيات وكلية للفلسفة وكلية لعلم الجدل الذي يسمونه اليوم علم الكلام وكلية لعلم الاخلاق وعلم الفقه وعلم اصول الفقه وعلم الفلك وعلم المنطق وكل الدراسة في هذه الكليات تنصب في الوجهات الدينية.

-١٣-

اول مظهر للمدرسة العربية الاسلامية تلك الحلقة المقدسة التي كانت تجتمع في مسجد النبي (صلعم) تتلقى الاحكام وتتطارح الحديث في السنة والادب والادارة ثم توسعت تلك الحلقات والاجتماعات فكانت في مسجدي الكوفة والبصرة ثم صارت سائر المساجد مركزا للحركة الفكرية والدراسات، وهذه الطريقة القديمة محفوظة اليوم في النجف ففي الجامع الهندي ومسجد الشيخ الانصاري والشيخ الطوسي وفي ساحة المشهد العلوي المعروف بالصحن تجد الطلاب مبثوثين حلقا حلقا وتجد الاساتذة على المنابر

يحاضرون ويتطارحون ويظهر ان مشهد علي كان اول نشأته مدرسة كما ذكره ابن بطوطه في عام ٧٢٦ للهجرة وذلك على عهد العمارة البويهية وكما هو اليوم في عمارته الصفوية فانه اليوم يشكل مدرسة تدور عليها خلوات وايوانات وفي وسطها قاعة للتدريس. وكانت تلك الخلوات مشحونة بالطلاب الغرباء وما زال بعضها يعرف باسماء العلماء الذين كانوا يسكونها وقد ذكر ابن بطوطه ان مشهد علي عليه السلام محفوف بالزوايا والمدارس وعلى كل ذلك نقيب، وفي القرن الثاني عشر للهجرة كثر تشييد الاروقة والمدارس في مدينة النجف وربما كان فيها بعض التخصيص مثل مدرسة الهنود ومدرسة الترك ومدرسة القزوينيين وقد تكون باسم من بناها مثل مدرسة القوام ومدرسة الشيخ مهدي ومدرسة الخليلي والخرساني واليزدي والبروجردي وآخر مدرسة انشئت في النجف مدرسة الجامعة .

النقابة والنقباء في النجف

لقد اراد معز الدولة البيويهي ان يخص العلويين بمزية فلم يجعل السلطة عليهم لغير العلويين واسس لهم نقابة لادارة شؤونهم وجعل فيها دائرة تسجيل لانسابهم ودائرة لاوقافهم كانت تجمع الغلة وتفرقها عليهم وتدير مدارسهم ويقوم النقيب بحسم نزاعاتهم وحل مشاكلهم. وكان في بغداد نقيب النقباء وله فروع في النجف والكوفة وكربلاءوالحلة . وكثرت الفروع اخيرا فكانت البصرة والموصل. واول نقيب نصبه المعز هو الشريف الحسين والد السيدين

الرضي والمرتضى، وكانت النقابة النجفية تضم الكوفة وربما كات مضمومة الى نقابة الحلة ، ونقباءالنجف كثيرون منهم بنو المختار واولهم ابو نزار ومنهم بنو عبدالله الاشتر ومنهم بنوكتيله واولهم النقيب زيد ومنهم بنو اسامه ومنهم بنو علي الصوفي ومنهم بنو الفقيه وابوهم هبة الله ومنهم بنو حماز ومنهم آل الآوى ومنهم آل كمكم ومنهم بنو العميد ومنهم ابو القاسم السبعي ومنهم ناصر الدين وشرف الدين وشهاب الدين وعميد الدين وزين الدين ومنهم النقباء الذين يقيمون اليوم في قرية «الزرقية» من قرى الحلة. وفي اواخر عهد الصفويين وكل عهد العثمانيين انحل عقد النقابة كسلطة واصبحت لقب شرف وصار مكان النقيب «الخازن» ويقولون له «الكليدار» لفظ فارسي اي صاحب المفتاح ويختص بادارة المشهد. وسدنة المشهد نعرف منهم آل شهريار وصهر الشيخ الطوسي الشيخ محمد ومنهم حمزة وابنه علي ومنهم بنو طحال ومنهم آل الفتال ومنهم آل الملا وأولهم الملا محسن وآخرهم الملا محمود ومنهم آل الرفيع ويعرفون اليول بآل الرفيعي وأولهم السيد رضا ثم السيد جواد ثم السيد محمد الحسن ثم السيد أحمد ثم السيد عباس وهو الخازن الماثل.

ان كل المدارس في النجف للمطالعة والسكنى اما محلات الدراسة فهي الجوامع وكان في النجف ما يربو على الثمانين مدرسة اقدمها المدرسة المعروفة بمدرسة الصحن وقد تغيرت معالمها فصارت اليوم ملجأ للزوار والفقراء يدخل اليها من احد ايوانات الصحن. والنجفيون يعرفون بعض المدارس القديمة التي درست ونهضت بمكانها عمارة اخرى مثل دار تقع في

محلة المشراق تعرف بدار الملا شاكر ودار في محلة العمارة تعرف بدار الاغاخانية ومثل عمارة لحوانيت ومخازن تقع قريبا من باب القبلة وكثير غيرها. اما طريقة التدريس في النجف فقديمة تتردد بين الطريقتين اليونانيتين طريقة التحليل وطريقة التفسير، اما الاولى فهي ان يتناول الاستاذ الموضوع ويجزئه الى اقسام ثم يتناول كل قسم على حدة ويجزئه الى اجزاء وهكذا يقسم ويحلل حتى يصل الى ادق الاقسام فيتناولها ويبحث في العلل والعلاقات والمعاني والالفاظ. وقد اشتهر العراق بهذه الدراسة فكان الاستاذ يكثر في تقرير الموضوع جريا وراء الفروض والاحتمالات على سائر الوجوه. قدم احد العلماء على مالك في المدينة المنورة وقد كلفه اصحابه ان يسأل مالكا وكلما اجاب يقول له فان كان كذا وبعد الجواب يكرر فان كان كذا حتى ضاق مالك فقال هذه سليسلة بنت سليسلة ان اردتها فعليك بالعراق. ومن شهرة العراقيين بهذا الاسلوب ان الرجل الذي يكثر تعاطيه بالسؤال والتفريع يسئل: اعراقي هذا؟ وهذه هي بعض اثار المنطق السرياني، واليوناني في العراق . اما طريقة التفسير والشرح فهي ان يضع الباحث نص القضية فيدرسها ويأخذ تفسيرها من جميع الوجوه الممكنة ويختار الوجه الذي يستنسبه والتفسير الذي يتذوقه، ويغلب على الاسلوب العلمي النجفي في التحرير والتقرير اسلوب محاورات سقراط المعروفة وهي التي يسمونها اليوم طريق السؤال والجواب.

ومراحل التدريس في النجف ثلاث: المرحلة الاولى في المقدمات يدرس فيها النحو وكتبه على الاكثر «الاجرومية» لابن اجروم المغربي وشرح

القطر لابن هشام ومنظومة محمد بن مالك وشرحها لابن الناظم والمغني لابن هشام .وعلم الصرف وكتبه المكودي والنظام .

وعلم المنطق وكتبه حاشية ملا عبدالله وشمسية قطب الدين والمطالع.

وعلم البيان والبديع وكتبه المختصر والمطول للتفتزاني.

المرحلة الثانية

السطوح وهي دراسة الفقه والاصول على سطح كتاب مفتوح ينشر بين يدي الاستاذ والتلميذ ، اما كتب الاصول فالمعالم للشيخ حسن والقوانين للشيخ القمي والكفاية للشيخ الخرساني والرسائل للشيخ الانصاري. واما كتب الفقه فكثيرة مثل الشرايع وشرحها للمحقق ومثل اللمعة وشرحها للشهيدين والمكاسب للانصاري وغيرها من كتب الفقه الاستدلالي مثل المسالك والمدارك والتحرير والقواعد. وفي هذه المرحلة يدرس الحساب بكتاب «الزبدة» للشيخ البهائي العاملي ويدرس الجدل والفلسفة النظرية في شرح الحادي عشر للميبودي وشرح التجريد للحلي والمنظومة للسبزواري وربما درسوا كتاب الاسفار للملا صدرا، ويدرسون اشكال اقليدوس للهندسة، ويراجع الطلاب لدراسة اللغة القاموس المحيط للفيروزاباري، والصحاح للجوهري ومجمع البحرين للطريحي ، ويراجعون لعلم الرجال كما يسمونه كتاب رجال ابي علي، ويراجعون للحديث كتاب الوسائل، وللتربية كتاب المفيد والمستفيد للشهيد العاملي.

المرحلة الثالثة

هي التي يسمونها الدراسة الخارجية او كما يسمونها «الخارج» وهي

محاضرات يلقيها الاستاذ على مجموعة من التلاميذ لا ينشر لها كتاب بل هي اشبه بمذاكرات على موضوع مركز، وللتلميذ الحرية الكاملة في المراحل الثلاث ان يختار المدرس والمدرسة والكتاب المدروس. وقد خدمت المدرسة النجفية اللغة العربية حيث جعلتها لغة التدريس ولغة الكتابة والتاريخ، ولكن الجالية غير العربية اثرت في لغة التأليف فانك اذا قارنت بين المؤلفات الاولى كالشرايع والتحرير والقواعد والمؤلفات الاخيرة كالمكاسب والقوانين والكفاية ترى الفرق والبون بين الاسلوبين واضحا سواء في المفردات او في التركيب. انك ترى في الاولى صفاءالاسلوب وسموه وحسن اختيار اللفظ فهو كتاب عربي مبين وفي الثانية تجد التعقيد وركة الاسلوب وابتذال اللفظ وغرابة الاشتقاق والتصريف فهو كتاب يقلع العين ويعلس اذن سامعه، واني لأتشوف في صفوف مدرسة «منتدى النشر» بعض الطلائع المبشرة بانقلاب المنهج ووضع الاساس الرصين للنهضة الادبية اللائقة بالنجف وتاريخها .

– ١٤ –

كانت ام الشيخ جذلانة بعمة ابنها فارادت ان تخلع عليه وكان للنجفيين اختصاص بصناعة العباءة فارادت له عباءة نجفية ولم تكن للام الحنون قدرة مالية على اقتنائها جاهزة فاشترت مقدارا من الصوف الجيد وغزلته غزلا دقيقا ووجدت له ناسجا وباركتها للشيخ الجديد صباحا وفي المساء يذهب الى بيت خباز ويضع العباءة على الباب وعند الخروج ينساها لانه لم يعتد عليها ويجيئ الى امه فتفزع متسائلة عن عبائته فيتذكرها ويعود ادراجه ولكن دون جدوى لقد ذهبت بها الايدي الخاطفة. وتجزع الام ولكن الجدة تتدارك الامر وتشتري لحفيدها عباءة جديدة ويلبسها وعند الصباح يبكر مع رفيق له الى احد الاساتذة لدراسة النحو وكان الشيخ يتهادى في مشيته مزهوا بعباءته الجديدة ويتقدم رفيقه حتى اذا بلغ محلا ينخفض عن الطريق تنزلق به قدمه الى ذلك المنخفض وكان رفيقه يجري ورائه وتقع قدم ذلك التابع على ذيل عباءة المنزلق الذي يجرها بغير رفق فتبط امشاطا لا ترتق ولا تخاط ، ويجيئ الى امه فتولول ويتداركها جده ويأمر بتقصير عباءة كانت له ليلبسها حفيده وينام الجد شاكيا من البرداءفتسرج له دوة وتدس فيها رمانة لتشوى ويمتصها الشاكي ويجي الحفيد رافلا بعباءته فينحني لتسليم الرمانة الى الجد وتتدلى العباءة على الدوة وتلتهب وتصيح الام وهي منكسرة يا لك

من شيخ قد ابتلى بفقر الطبيعة فصار لا يرافقه الحظ، ويضيق صدر الشيخ من هذه الاتفاقات فيزهق من النجف الى منتزه الكوفة ويركب سفينة شراعية من طراز «بلم» والبلم في الاصل اسم لصغار السمك وبالتشبيه اطلق على بعض السفن الشراعية. وصعد البلم في الفرات، واستعرض الشيخ في ذاكرته الصور التاريخية للفرات وصنايع اهله ويهب على البلم اعصار كاد ان يغرقه والنهر طاغ ولكنه بقدرة قادر يميل الى الشاطى ليعبر بواسطة معبر ممدود بين الضفتين، وينزل الشيخ الى قرية الكفل الواقعة على الجانب الايسر للمنحدر وفيها قبر النبي «حزقيال» الذي كفل اليهود فسميت اليوم بالكفل ولا زال اليهود يحجون اليها . وموقع القرية بين الكوفة والحلة السيفية وقد قامت على انقاض المدينة المهمة التي كانت تعرف بسام «بلاشكر» تلك المدينة التي بناها احد ملوك الفرثيين عام ٦٠ للميلاد وكانت محطة تجارية كبرى للبضائع التي تجلبها القوافل من بلاد الصين والهند وتصعد بها الى بلاد الشام وبلاد العرب يوم كانت طرق التجارة تنفذ من هناك، وقد نزل الشيخ في مقهى الكفل او قهوة «الكفل» حسب لغة العراقيين الدارجة نزل في المكان الذي كان معروفا في العهد العربي ب «بئر ملاحة» ووجد ارائك مبثوثة يتشطرها علي باشا وجعفر بك وحسن افندي ومهدي جلبي فيستغرب من هذا النبز التركي الذي جاءنا من خاقانية فرغانة او خانية مراغة كما وشاهد سررا اخرى عليها السيد سالم والحاج كاظم والملا حاتم فقال هذا نبز عربي باسلوب عجمي وذاك نبز عجمي في بلاد عربية وليس في بلادنا شيء من هذا وذاك ولكنها رواسب من الفرس والترك .

خلص القوم نجيا وارفض الاجتماع من قهوة الكفل وكان حديث القوم كله سياسة وقد ضاق الشيخ الجديد ذرعا من ذلك الحديث الفارغ واراد النجاة من السياسة والسياسيين فمد بصره واذا بالناس نافرين بجفلة واستطلع الخبر فشاهد رجلا مهيبا قد ركز علما في وسط القرية وقد تهافت الحي عليه وهم يزجلون وركض وراء النافرين حتى لحق بهم ووقف بازاء شيخ اثقل الضعف خطاه وسأله عن جلية الامر فقال هذا علم الزائرين ومن عادتنا اذا قرب موسم الزيارة ان يتقدم احد الصالحين ويعقد لواءا ويمر ملوحا به على القرى والاحياء فيكون بمثابة اعلان لمن يريد الزيارة. فتساءل الشيخ ما هي الزيارة وما هو الموسم فقال له الزيارة لغة هي الحضور عند المزور ولكنها في عرف الشيعة هي الحضور في احد المشاهد المحترمة والطواف به وتكون في سائر الايام ولكن عندهم لها مواسم مخصوصة وهذه المخصوصة للنجف وكربلاءفقط فللمشهد العلوي ثلاث مواسم احدها يوم السابع والعشرين من شهر رجب ويسمونها زيارة «المبعث» اي اليوم الذي بعث به النبي محمد (ص) والموسم الثاني يوم السابع عشر من شهر ربيع الاول ويسمونها زيارة «المولد» وهو اليوم الذي ولد فيه المصطفى على رواية اخذ بها الشيعة والموسم الثالث اليوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة وهو اليوم المعروف بيوم الغدير «خم» ذلك اليوم التاريخي الذي نادى به النبي بأمرة علي على المسلمين .هذه المواسم تكون بمثابة حج للشيعة ينسلون اليها من كل حدب.
اما المواسم في كربلاءفهي يوم العاشر من شهر محرم والتاسع من شهر ذي الحجة والعشرين من شهر صفر والنصف من شعبان والاول والنصف من

شهر رجب. وزيارة المشاهد وان وجدت عند كثير من الطوائف ولكنها اصبحت من خصائص الشيعة وبها يخالفون الوهابية، وحلمت بسائل يستوضح عن زيارة المشاهد فيقال له بما يلي :

-١٥-

الزيارة عند الشيعة

ان الزيارة عند الشيعة حضور روحي وان الروحانية الكبرى للمزور ونفسيته الممتازة وصفاته القدسية تفيض على نفسية الزائر فتكتسب منها لتطمئن بعد اضطراب ولتسعد بعد شقاء وترجو بعد قنوط وتشرق بعد تجهم . وربما يحصل ذلك الانعاش الروحي بمجرد تصور نفسية المزور واستعراض صفاته الممتازة من طواف حول تلك الشخصية الروحية طوافا ذهنيا بدون خصوصية للمكان ولكن الشيعة لا يكتفون بذلك بل لا تعد الزيارة الروحية زيارة الا اذا كانت عند تربة المزور ويركزون عملهم هذا على ركيزتين احداهما قوله تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا ، فهم يعتقدون ان ارواح المؤمنين لها الحياة ولها الخلود لا تموت ولا تتلاشى ، وثانيهما ان بين الروح والجسد اتصالا وارتباطا فهما متصلان منفصلان وان للروح على تربة المدفون انعكاسا مثل الزجاجة والنور فروح ذلك العظيم متصلة بمشهده ومن يحظى بذلك المشهد يدركها ادراكا روحيا فيحضى ويتنور ببعض الاضواءويرجع الى اهله وفي نفسه قبس من النور المقدس . هذه هي الزيارة

وذلك هو الموسم. وسمعت هاتفا يقول النجف، الغري، المشهد. فتساءلت هل هي اسماء بقاع متجاورة او انها بقعة واحدة. ولبيان ذلك اقول ان النجف، لغة، هي الارض المرتفعة اطلقت على ذلك الظهر المسمى بخد العذرى وهو الموضع المعروف في ظهر الكوفة وانه كالمسناة يمنع السيل ان يعلو جبانة الكوفة «الثوية» . وحتى في عهدنا هذا يأتي السيل من البادية ولكنه لا يرقى النجف. وذلك الظهر كان يمتد من الحيرة الى بارق الواقعة في البادية بين النجف وكربلاء وكانوا يقولون نجف الكوفة ونجف الحيرة. وكانت في نجف الحيرة قبل الاسلام عمارات وقرى وديارات منها «الصنين» وهو بلد عامر يقال لصاحبه ملك الصنين وهو اليوم بجنب مدينة النجف وقريب منه الموضع المعروف «بالقائم» وهو بقايا دير كبير، وكان العراقيون الاولون يقيمون امام بعض المعابد بناية يسمونها «جقرتا» واخيرا سميت الملوية. وقد اندرس الدير وبقيت " أبدته" وسموها بالقائم وكذلك يطلق القائم على بقايا صومعة دير في اعالي الفرات.

اما الغري فهو المطلي بالغراء وقد اختص بهذا الاسم مكانان بقرب النجف فقد ذكر ان الغريين طربالان كالصومعتين بظهر الكوفة في موضع يكثر فيه الصيد وقد امر المنذر ابن امرؤ القيس احد ملوك الحيرة ان كل صيد يذبح هناك يطلى به ذانك الطربالان، وقد مر معن بن زائدة فرأى احدهما قد شعث وانهدم فانشأ:

لو كان شيء له الا يبيد على مر الزمان لما باد الغريان
ففرق الدهر والايام بينهما وكل الف الى بين وهجران

ومن هنا يظهر ان احد الغريين هدم وبقي الآخر ولذلك ورد في كثير من النصوص التاريخية اسم الغري بصيغة المفرد، ويظهر من سبر التاريخ ان كلا من الغريين كان في سفح جبل ولكن العمارة النجفية غطت على ذينك الجبلين فانطمسا. وفي محلة «العمارة» احدى محلات النجف نتوء ظاهر يسمى جبل «شرف شاه» وهذه المحلة كانت تسمى العلاء وفي محلة المشراق نتوء يسمى جبل «الديك» و «عرين الاسد» بين هذين الجبلين. وهذا يوضح قولهم ان قبر امير المؤمنين عليه السلام بين الغريين. وفي محلة البراق نتوء يسمى جبل النور وهو احد الذكوات البيض المذكورة هناك، وفيها يقول احد الشعراء:

عل الذكوات البيض من ايمن الحمى اراحوا بنعش زعزع الارض والسما

فالنجف هي الظهر من شرقي المدينة والشمال الشرقي، والغريان هما الجبلان الواقعان شمال وجنوب النجف، ويطلق على كل هذه مدينة النجف الاشرف. وليس في تاريخ نجف الكوفة عمارة قبل الاسلام ولكن ذكر وجود دير هناك ويقال ان اسمه طعيريزات وهو الاثر الموجود بجنب النجف وهو بقايا عمارة كانت هناك كما جاء ذلك في مجلة لغة العرب. وفي النجف حتى يومنا هذا عينان نضاحتان احداهما تسمى «النبعية» والأخرى تسمى «عين أم نخلة» . وابتدأت اهمية النجف عندما خط فيها المرقد الشريف عام ٤٠ للهجرة وقد كان ذكرا فقط لم تقم عليه امارة او عمارة بل سوي مع الارض وبقي سرا مكتوما اتقاء الخوارج وقد كان قاتله منهم وصونا له من تعرض بني امية، وقد كان بعض الصالحين يعرفون موقعه ويتكتمون في

زيارته ومنهم الأئمة من اولاده واحفاده. ويقال ان ظهوره الاول كان في عهد المنصور العباسي يوم كان في الهاشمية حيث يجيئ داود بن علي بن عبدالله بن العباس ويجعل على القبر الشريف صندوقا خشبيا، وفي عهد الرشيد انشىء رواق عقدت عليه قبة، وفي حدود سنة ٢٧٣ جاءمحمد ابن زيد بن محمد بن اسماعيل المعروف بالداعي الصغير ملك طبرستان فبنى على المشهد حائطا، وفي سنة ٣٣٨ هجرية بنى ابو علي عمر ابن يحى قبة بيضاء على المشهد العلوي . وتجمعت حول المشهد دويرات للهلّاك والمنقطعين من الشيعة. وفي اواخر القرن الرابع انبعثت الامارات الشيعية وتكاثرت العمارة حول المشهد ، وجاءت امارة آل بويه وعزم عضد الدولة البويهي على اقامة اعظم عمارة للنجف فبذل الاموال الطائلة وجلب البنائين ومواد البناء والصناع واهل الخبرة ونقل الاخشاب والصخور من اماكن عديدة وانشأ قريبا من المكان المعروف ببئر ملاحة مصاهر للطاباق والجص وكان ينقل ماءالشرب على ظهور الجمال ثم حفر قناة للماءتصعد من الفرات الى النجف وهي اليوم موجودة تعرف بقناة آل بويه وانهض رواقا عاليا عقد عليه قبة بيضاء وتحتها مصطبة عليها آثار قبور ثلاثة هي قبر آدم وقبر نوح وقبر امير المؤمنين (ع) ، وهذه القبور ذكرها ابن بطوطه وتدل عليها الزيارة المأثورة التي جاء فيها «السلام عليك وعلى ضجيعيك» آدم ونوح واقام عضد الدولة امام الرواق بهوا كان يجلس فيه متأدبا لقضاءالحوائج وفي هذا البهو وتحت الرواق عقدت حفلة للتدشين تلك الحفلة التاريخية التي حضرها الامراء والنقباء والعلماء وهناك القى الحسين ابن

الحجاج قصيدته المشهورة :

يا صاحب القبة البيضا على النجف من زار قبرك واستشفى لديك شفي

واقام حصارا فيه الغرف والايوانات وانشأ دارا للضيافة وبذل الطعام للزائرين ثلاثة ايام واجرى الجرايات وبث العطاء للذين ينوون الاقامة والمجاورة. وتمكنت عمارة عضد الدولة الى ما بعد القرن الثامن للهجرة وفي خلال هذا التاريخ جددت ورممت من قبل بعض النابهين. وفي اوائل القرن الحادي عشر اقيمت هذه العمارة الماثلة اليوم وهي العمارة الصفوية. وتمهيدا لذكرها نذكر طرفا من رواق عمران بن شاهين الخفاجي من اهالي «الجامدة» احدى قرى البطائح في كور واسط وقد كان اميرا للبطايح وخرج على السلطان فناجزه عضد الدولة واستولى على امارته ونجا عمران بنفسه وتشدد عضد الدولة في طلبه، ولما حضر عضد الدولة النجف لتدشين العمارة التي اقامها عزم عمران على الاستسلام في ذلك المشهد متوسلا بكرامة صاحبه للعفو ونذر اذا نال العفو ينشئ رواقا عظيما لذلك المشهد فيجيئ ويلقي بنفسه في احضان عضد الدولة ويرعى عضد الدولة حرمة ذلك المشهد فيعفو عنه، ويمضي عمران بالوفاء لنذره ويبني رواقا متصلا بالقبة المنيفة ولكن السلطان الصفوي هدم قسما من ذلك الرواق والحقه بالصحن حتى تتم دورة العمارة وتحسن هندستها. وقيل ان سبب الهدم هو انحراف الصحن الامر الذي اوجد تفاوتا بين قبلة الصحن وقبلة الروضة وبذلك الهدم والتغيير استقامت القبلتان. وكان الصحن ينتهي قريبا من الباب المعروف بباب الطوسي وما وراء ذلك كان رواق عمران فهدم السلطان قسما

منه واشترى ما حوله من دور وخطط واقام هذه العمارة الماثلة وكأني بعضد الدولة واولاده بهاء الدولة وشرف الدولة وسلطان الدولة المدفونين في زاوية الصحن القريبة من الموضع المعروف ب «التكية» المحل المشيد للدراويش الصوفية من الفرقة البكتاشية ينظرون مبتهجين لتلك العمارة وما تم لها ، كما ان عمران بن شاهين المدفون بجوار رواقه خارج الصحن الى الباب المعروف بباب الطوسي ينظر الى رواقه بانكسار واسف لما لحقه من الهدم الذي ابعد بينه وبين القبة المنيفة. وعند تبليط الصحن في عصرنا ظهرت بعض البيوت وبعض القبور القديمة منها بيت يقع في الجهة الشرقية للصحن وتحت التبليط القديم وقفت عليه وانا صبي فكان مبلطا بالقاشان الازرق ومؤزرة جدرانه بالقاشاني وفيه ثلاث دكاك رقش على احدها هذا قبر «أويس» ويظهر انه من اولاد هولاكو يقولون انه قتل ونقل ودفن في النجف وعلى القبر الثاني رقش اسم امرأة «رياندە» اما القبر الثالث فيظهر انه قبر طفل.

سبق وذكرنا قطع رواق عمران عن القبة وهو اليوم يعرف بمسجد عمران ويظهر ان باب مسجد عمران شرع اخيرا في دهليز باب الطوسي حيث توجد على ذاك الباب كتابة قديمة على حجارة مؤرخة ٧٧٠ هجرية وبما ان شروع هذا الباب متأخر عن هذا التاريخ بكثير فيلوح ان هذه الكتابة كانت فوق مقبرة بمكان هذا الباب. فقد روي وجود مقبرة هناك تحتوي على ثلاثة قبور احدها للامير نجيب الدين احمد والثاني قبر ابنه محمود المهابادي والى عهدنا يذكر محمود المهابادي هناك والثالث قبر زوجة محمود

«سعيدة». عائلة ملكية فارسية من ملوك الطوائف في عهد المغول عاصمتها «مها آباد» اي عمارة القمر.

روى المرحوم السيد جعفر السيد محمد الباقر من آل بحر العلوم البيت العلوي الرفيع انه يوجد تصوير نفيس بديع آية للروعة محفوظ في الروضة الحيدرية وهو من اغرب ما خطته يد الانسان افرغ في اطار من الخشب النفيس وفيه زجاجتان افرغ بينهما الزئبق بصورة بديعة. وتحت الاطار ثلاث ابيات من الشعر الفارسي بتوقيع محمود المهابادي.

-١٥-

تقدم ان العمارة في النجف تكاثرت بواسطة الامارات الشيعية في عهد المغول والتتار واليوم توجد عمارة في محلة المشراق قريبا من باب الصحن المسمى بباب الطوسي او قريبا من دار الطوسي التي تعرف اليوم بمسجد الطوسي وفيها قبره تقف عنده المارة وتقرأ الفاتحة. واتفق لي ان اكون في صحبة جماعة من انضاد البلد وقفوا بازاء الجدار العالي لمسجد الشيخ الطوسي في ليلة حالكة وكان قريبا منه ساباط مظلم واذا بمذعورة تستنجد فركضنا لنجدتها ولما تكالمنا تحت الساباط انهار الجدار ولولا الركضة لكنا تحت الانقاض. اما طلب النجدة فقد رأيناه تافها وكان صادرا من امرأة استطرقت الساباط وهي مستوحشة لظلمته وكان في الساباط متوسل يحتاج الى العون ولما خطفت المرأة وهي لا تعلم بوجوده اخذ باذيالها فارتعبت وصاحت.

وتوجد قريبا من ذلك الساباط اثار عمارة قديمة فيها نفق «سرداب» فيه ريازة وتخريم ومؤزر بالقاشاني يقال انه بقايا عمارة كانت ل « تيمور الكوداكاني» المشهور بتيمورلنك المغولي اي الاعرج. وفي محلة المشراق اثار قديمة لا زالت تكتشف.

ويصف ابن بطوطه عمارة النجف في عام ٧٢٦ للهجرة بانها احسن مدن

العراق عمارة واكثرها ناسا وينوه عن بسالة النجفيين ونخوتهم ويذكر عددا من اسواق النجف ويذكر القبر الشريف بازاء المدارس والزوايا. ويذكر الصحن باسم مدرسة عظيمة يسكنها الطلاب والصوفية ويذكر الباب الذي يدخل منه الى الروضة وعليه الحجاب والطواشية، ويذكر ان عتبة الباب والعضادتين من الفضة وان الروضة مفروشة بالبسط الحريرية وفيها قناديل من ذهب وفضة ويذكر ان في الوسط مصطبة مربعة مكسوة بالخشب وعليه صفائح من الذهب المسمور بمسامير فضية وقد غطت الخشب حتى لا يكاد يظهر وارتفاع المصطبة قرابة اربعة امتار وفوقها ثلاثة قبور بينها طسوت من الذهب والفضة فيها ماءالورد ومقادير من المسك وغيره من انواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك الطيب ويمر بها على وجهه. ويذكر بان للقبة بابا اخر وهو مثل الاول عتبته وعضادتاه وعليه ستور من الحرير الملون يفضي الى مسجد مفروش بالبسط الحريرية الحسان كما ان حيطانه وسقفه مستورة بالحرير وله اربع ابواب ، ويظهر ان هذا المسجد هو رواق عمران بن شاهين قبل ان يقتطع كما انه يذكر عن خزانة الروضة التي سوف اوافي القارئ بما هي عليها اليوم ويذكر انه كلما يرد الى الروضة من ذهب وفضة يضعه النقيب في الخزانة ويقال هي خزانة عظيمة فيها من الاموال ما لا يحصى .

ان العمارة التي ذكرها ابن بطوطة هي غير العمارة الماثلة لانه يصف ما كان في القرن الثامن للهجرة وعمارة اليوم خططت في اوائل القرن الحادي عشر في عهد الصفويين واولهم الشاه عباس الاول عندما زار العتبات فامر

بتجديد القبة العلوية ووسع الحرم وجلب المهندسين والفعلة ووجد حول النجف معدنا للصخر في غاية الصفاء فاقلتع منه ما يلزم لتلك العمارة ودام العمل ثلاثة سنين ويظهر ان المشهد عمر ورمم وجدد مرارا عديدة لم يتيسر لي ضبطها، ومن المجددين محمود واشرف الافغانيان والسلطان نادر والعثمانيون والقاجاريون كل هؤلاء خدموا النجف بالبذل والهدايا والنفائس والقناديل الذهبية والاحجار الكريمة والطنافس والسجاد والكتب الاثرية والقرائين الخطية وقد نشأ من ذلك وجود اربعة خزائن اهمها الخزانة التي كانت موضوعة في مكان تحت الارض في حجرة بجنب المأذنة المنارة الجنوبية وفي هذه الخزانة النفائس العظيمة واكثرها من هدايا نادر شاه منها خمسة قناديل مثبتة بفصوص ثمينة وسادس تلك القناديل معلق بسلسلة ذهبية فوق الضريح المقدس، وفي الخزانة مجمر من ذهب وضع فيه ستة احجار من الياقوت الاحمر تشع وتلتهب كانها الجمر، وفيها عقد كبير من الماس كتب عليه نادر وفيها فصوص واحجار ولآلي. وقد نقلت هذه النفائس من النجف الى الكاظمية في اوائل القرن الثالث عشر للهجرة خوفا عليها من الوهابيين الذين استفحل امرهم واستطار شرهم في جزيرة العرب وطفوف الجزيرة في العقد الثاني من القرن الثالث عشر وبقيت في الكاظمية اربع سنوات يقوم عليها الحرس وقد حملتها اربع طوابير من الجنود العثمانية ولعلهم اول جنود للعثمانيين دخلوا النجف، ثم اعيدت تلك الذخائر الى محلها ولم تفتح هذه الخزانة الا مرتين فقط الاولى عندما زار العتبات السلطان ناصر الدين القاجاري في اواخر القرن الثالث عشر للهجرة حيث صدرت

الارادة الملكية بان تفتح له تلك الخزانة وكانت لا تفتح الا بارادة ملكية، فجاء ناصر الدين ومعه خبير بالاحجار النفيسة والاثريات ومعه احد العلماءوهو السيد علي آل بحر العلوم ومعهم الخازن وبعد ان اطلع واعجب بما اطلع عليه امر بغلقها ، ومرة اخرى فتحت على يد متصرف كربلاء صالح جبر ومعه ممثل من العلماء وخبير والخازن وبعد الوقوف على ما فيها نقلت بكل تحفظ واحتياط الى داخل الروضة وشقت لها سارية من السواري واتي بصندوق حديدي كبير وبمقدار من القطن المعقم فلفت تلك النفائس ووضعت مرتبة في ذلك الصندوق بعد ان سجل ما فيه ووقع الحاضرون على ذلك السجل الذي اودع ذلك الصندوق الى جنب السجل الموقع من قبل ناصر الدين شاه ورفاقه وسد الصندوق وسدت السارية ، اما الخزانة الثانية ففي الضريح نفسه وفيها كثير من النفائس والاحجار وفي الروضة كثير من القناديل الذهبية المعلقة والخزانة الثالثة في الرواق مما يلي الرأس الشريف يكثر فيها السجاد والرابعة في بيت صغير من الصحن في الوجه القبلي كانت تكثر فيها الكتب من المخطوطات .

-١٦-

المكتبة العلوية

لقد مر عليك ان الجاليات والرواد الهابطين على المدرسة النجفية من بلاد ايران والهند واذربيجان وما وراء النهر والقوقاز وعاملة والخليج وبعض نواحي اليمن كانوا يفدون على النجف بثرواتهم المادية والادبية واهمها امهات الكتب المخطوطة من كتب الفلسفة والرياضيات والادب والفلك والتاريخ والمسالك والممالك وقد كان رواد العلم وطلابه يسكنون على الاغلب المدرسة العلوية الكبرى «الصحن» ومنهم المقيم في غيرها من المدارس والدور الخاصة وكان لهم نقيب ينظم شؤونهم. وكانت في المدرسة العلوية خزانة كتب نفيسة تجمعت مما يحمله المهاجرون وكانوا بعد ما يتزودون بزاد العلم ويعتزمون العودة الى اوطانهم يتركون ما حملوه من نفائس الكتب وما ألفوه من رسائل واطروحات في خزانة المدرسة العلوية محبسة على طلابها، واول من اسس المكتبة العلوية الصدر الكفي المعروف بالآوي الذي اوصى ابن اخيه بشراء الكتب وجعلها وقفا في طلاب النجف وسنحت له الفرصة بالاكثار في شراء الكتب .

ان بغدادا اصيبت بغلاء وقحط فباعت خزائن الكتب للغلة واكثر البيع كان على النجفيين . وقد ذكر الواعون من النجفيين انه كان على رفوف المكتبة العلوية عشرات الوف من الكتب بما فيها نسخ القرآن الاثرية وكتب الادعية

والاوراد، وقد فرقت يد الحدثان تلك النفائس ولم يبق اليوم الا ما يقارب الاربعمائة نسخة وقد وقفت بنفسي على كتاب في علم المنطق كان في بيت احد الفضلاء من النجفيين كتب على ظهره ما نصه

»هذا كتاب من كتب الخزانة العلوية«

ولما صارت النجف محطة علمية للعلماء انتشرت فيها المدارس والمكتبات ونشأت فيها بيوت كثيرة للكتب اولع بجمعها رجال عرفوا بذلك الشغف وبذلوا الجهد والمال عاكفين على الحصول عليها من مظانها فتيسر لهم من نفائسها ما كون الخزائن ، مثل مكتبة الشيخ علي وولده الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ومكتب الشيخ هادي آل كاشف الغطاء ومكتبة محمد الباقر التوستري ومكتبة المحدث النوري ومكتبة السيد محمد آل بحر العلوم ومكتبة السيد جعفر آل بحر العلوم ومكتبة السيد هاشم آل بحر العلوم ومكتبة الشيخ الخنساري ، ومكتبة السيد محمد اليزدي ومكتبة الشيخ محمد السماوي ومكتبة السيد رضا الحكيم ومكتبة السيد ابو الحسن الاصفهاني وكثير غيرها. ولعشاق الكتب نوادر كثيرة في وادي غرامهم هذا منها اني دخلت على احد هؤلاء الغلاة في هذا المذهب وهو الشيخ علي آل كاشف الغطاء في مكتبته الصغرى التي اقتصرت على ما ورقه بيده ونسخ بخطه فوجدته جالسا على الارض وامامه طاولة صغيرة عليها كتاب مفتوح ومحبرة وقد شد على عضده مساطر خفيفة من الخشب شدا محكما يمنع الرعشة التي في يده لانه شيخ وهنت قواه وقد شارف على التسعين من عمره وكان لابسا ثوبا سميكا خصص للكتابة تراه مخططا بالوان والوان من مسح القلم

ورذاذه وكان في يده قلم من الخيزران القوي وكان مشغولا بالنسخ فسألته عن عمر ذلك الثوب قال بان عمره يناهز السبعين عاما وهو عندي اطيب من الغلالة التي يصفها الشاعر بقوله :

كاذيال خود اقبلت في غلالة مصبغة والبعض اقصر من بعض

ومن نوادره انه كان يكتب تراجم العلماء والادباء في مجموعة اسماها طبقات الشيعة واتفق ان يخرج الى الجامع عند بزوغ الفجر ويصادف في طريقه احد الفضلاء يفاجئه بنبأ وفاة احد المشاهير من حملة العلم والادب وجعل يعزيه لانه من سراة قوم الشيخ وكان يعزه فما اجفل للنبأ ولا استرجع بل قاطع المخبر بقوله : لقد تزين كتاب الطبقات بخير ترجمة. وترك اتجاهه الى المسجد راجعا الى بيته والى مكتبته وكتب تاريخ الوفاة.

ومن نوادره ما حدث له في الاستانة مع جلواز من جلاوزة السلطان المرهوب عبدالحميد. لقد شغف الشيخ بجمع الكتب والتوفر على الاطلاع عليها واقتناء النفيس منها الامر الذي حمله على التطواف في البلاد الاسلامية فجاء الحجاز ومصر وسوريا وعاملة وبلاد فارس والهند والترك وتردد في الاستانة على بيوت الكتب وتزود منها واستفاد وكان ينسخ بقلمه ما يعجبه من المخطوطات فيرفعه الى رف مكتبته الكبرى ومن ذلك كتاب شرح ابي تمام على مهاجاة جرير والاخطل وقد كان بخط مغربي قديم ومعمى فعكف على تفهمه وتهجئته حتى اتقنها وبدأ ينسخه وعندما بلغ الصفحة الاخيرة واذا هو بجلواز السلطان يبلغه بكل عنف لزوم حضوره حالا في الباب العالي اي في بلاط السلطان وكان ذلك التبليغ رهيبا يشعر

بالخوف من المغبة لان الناس يعرفون ان مثل هذا ينبئ بان احد الجواسيس المبثوثين بكثرة قد وشى بذلك المجلوب وقد حان وقت الحساب .هلع كل من كان حول الشيخ وجفل من ذلك الطلب الا الشيخ الذي رفع رأسه باعتزاز قائلا للجلواز هيهات لا البي الطلب قبل ان اتم هذه الصفحة ولو قامت القيامة. وغضب الجلواز وثابر الشيخ على الاستنساخ وما كان من الحاضرين غير الاشفاق على الشيخ والتوسل الى الجلواز بالتمهل عليه حتى يتم كتابة الصفحة وهكذا يتم الشيخ ويتأبط النسخة كاملة ويقول للجلواز هيا. ولما شخص الى الباب العالي ابلغ بلزوم مغادرة الاستانة الى العراق .

ومن نوادر هؤلاء الصرعى في حب الكتب كان الشيخ الجليل النوري قد اعياه الطلب لكتاب وصدفة عثر عليه في السوق وقد عرضته امرأة للبيع وصادف فراغ كيسه من النقود فوقف وسط السوق بالقرب من تلك المرأة وأمسك بيده على الكتاب حرصا وصار لا يستطيع ان ينقل خطوة وخلع عباءة نفيسة كانت عليه ودفعها الى المنادي فباعها له بثمن بخس وسلم للمرأة ثمن الكتاب ومشى في السوق والطريق بدون عباءة وهي مشية لا تتناسب وامثاله من رجالات الفضيلة . ولكنه كان مزهوا بها لامتلاكه الكتاب. ومن النوادر ان شيخا من شيوخ الادب يظهر انه كان رقيق الدين عرض علي شراء كتب مخطوطة كان عليها شارة التحبيس فقلت له كيف تبيع الوقف المحبس فقال اني لا ارى الملكية في الكتاب لان المؤلف يريد بث المعرفة واشاعة افكاره وما ملكية الكتاب الا استيعابه قراءة فقط وعليه فالكتاب لا يملك ، اما الثمن المبذول فهو عوض عن قراءته فقط ولما كانت

القاعدة الفقهية لا وقف الا من ملك فمن الغلط ان يقال هذا الكتاب وقف. وقريب من هذا الرأي ما ذهب اليه جماعة من ذوي الفضل ايثارا وتسبيلا للمنفعة في كتبهم لكل من يريد الاستفادة بقرائتها قائلين ان غلة الكتاب قراءته وزكاة تلك الغلة اعارته. ويعاكس هذا الرأي من يوصد باب مكتبته في وجوه الطلاب شحة وظنة. وكثير اولئك الذين يقبضون على الكتب قبضة الشحيح . اتفق لي وانا صبي ان الح على ظنين بالكتب في مكتبته التي صفت فيها الكتب النفيسة وراء ابواب من الزجاج وكانت المكتبة مفروشة بالطنافس والسجاد الايراني الممتاز. فوجدت صاحب المكتبة جالسا على طراحة في زاوية تلك المكتبة وهو كفيف البصر والى جنبه قارىء يتلو عليه ما يريد تلاوته وبينما انا اطارحه الحديث رفعت يدي فاصطدمت بباب الخزانة وعندما سمع نقرها اضطرب انزعاجا واستفهم بارتباك ولم تهدأ روعته حتى عرف انها الصدفة ولم يحدث شيء. ويدور الزمن ويموت ذلك الجمّاعة ويريد وارثه حمل ما في المكتبة الى معرض الكتب للبيع فيستعين بي وبرفيق لي لنعرفه بالمهم من تلك النفائس وتثمينها وعند دخولي المكتبة تدهشني العضة حيث وجدتها شعثاء موحشة قد فارقت رونقها وكان التراب فراشها والغبرة تعلو خزاناتها ومد لنا حصير جلسنا فوقه وكان رفيقي لا يعلم بما يخالجني وبينما نحن منهمكون باستعراض بعض الكتب المبثوثة في تلك المزبلة لا المكتبة اذا برجة تهز الغرفة فحولت بصري ووجدت احد الورثة قد وضع سلما خشبيا وصعد عليه واضعا يده وراء النضدة من الكتب يدفعها لتطيح على الارض لانه تعب من تناولها كتابا كتابا فتذكرت ذلك الكفيف

وفزته من نقرة على الباب وكيف اربكته وقلت من لي به ليسمع ويشاهد ما فعله هذا العابث البطر؟

هذا طرف من البحث عن خزائن المشهد العلوي واليك بعض الظواهر الممتازة في ذلك المشهد .

لما زار نادر شاه مدينة النجف امر ان تكسى القبة الموقرة بالابريز وقد احصى احد الشعراء من الفرس طاباق القبة المطلي ب 7777 طاباقة وامر بان تكسى المأذنتان والايوان وان تطللى الكتابة الممنطقة للقبة من داخلها بالميناء والفسيفساء. وقد قام الزندية وهم عبدالكريم الزند واخوانه باعمال جليلة ، وجاء القاجاريون فكان من آثار عهدهم الصندوق الموضوع على القبر الشريف والشباك الفضي وتمريد الرواق الشرقي وهو اول رواق مرد وكان ببذل التاجر حمزة التبريزي في سنة 1284 للهجرة، ثم مردت الاروقة الثلاث ببذل المعمار باشى احد رجال الحاشية لناصر الدين شاه وكان تمريد الروضة عام 1192 للهجرة وضبطه بالحساب الأبجدي. هو صرح ممرد من قوارير والساعة المنصوبة على الباب الشرقي للصحن ارسلها امين الملك وذلك عام 1304 للهجرة وقد بلط الصحن في اول انشائه ثم جدد تبليطه مرارا وفي عام 1325 للهجرة شرعت الحكومة العثمانية بترميم وتجديد قاشاني الصحن. وتوجد في الصحن والقبة والاروقة والايوان الذهبي مجموعة من تواقيع الملوك والوزراء والعلماء والامراء منها المنقوش على الاثار والنفائس والتحف حتى اصبحت تلك التوقيعات من اهم اثار النجف التاريخية فلو اريد نزعها وجمعها لكونت كتابا نفيسا . ومنها المنقوش على

الحجارة ومنها المحيوك في البسط والسجاد ومنها المحفور على الفصوص والاحجار ومنها ما هو مذيل في اخريات الكتب والمصاحف . ولم يكن للصحن اولا اكثر من بابين باب الحضرة وهو الذي ذكره ابن بطوطه وباب الطوسي وهو الذي ينتهي الى دار الطوسي التي نوهنا عنها سابقا. وفي عام 1279 للهجرة فتح الباب المعروف بالباب السلطاني لانه فتح للسلطان ناصر الدين القاجاري عند زيارته للنجف، وقد كان بمكان هذا الباب بيت صغير حجرة وامامه ايوان ويعرف ايضا بباب الفرج، واما الباب القبلي الواقع في الجهة الجنوبية للصحن فقد فتح سنة 1291 للهجرة في عهد متصرف الحلة شبلي باشا يوم كانت النجف تابعة الى ادارة الحلة. وفي تاريخ هذا الباب يقول السيد ابراهيم الطباطبائي " اثر الشبل على باب الاسد " . وخامس الابواب الباب المعروف بباب القيصرية في الجهة الشرقية للصحن فتح في اواخر القرن الثالث عشر وقريبا منه فتح في العقد السابع من القرن الرابع عشر للهجرة الباب النافذ الى مسجد الخضرة الذي كان مصلى لجد الشرقي ولعم الشرقي الشيخ احمد وقد كانت في هذا البيت الصغير حجرة عرفت بحجرة بيت الشرقي لانها كانت قد اتخذت مقبرة خاصة لال الشرقي فيها دفن سراة هذا البيت . وقد كان في الصحن محلان للوضوء احدهما المسرجة وموقعها قبالة الايوان الذهبي رفعت في زمانا توسيعا للصحن، والاخرى بناية كبيرة تدور عليها الحنفيات وتشتمل على حوض كبير وبجنبه بئر يمتح منها الماء ويصب في ذلك الحوض وموقع تلك البناية قبالة ايوان ميزان الذهب وقد قلعت تلك البناية وسوي محلها.

-17-

المشهد الماثل وما فيه من احلام واطياف

بناية فخمة نفيسة تاريخية تسمى «صحنا» وهي عمارة ذات قاعة مربعة غير تامة التربيع وذات طابقين كلها مقطعة بايوانات وفي كل ايوان بيت صغير "حجرة" ، يفصل كل ايوان عن ايوان ساريتان كل واحدة بعرض متر او يزيد قليلا وارتفاعها عشرة امتار او ما يزيد قليلا ويعقد بين السارتين قوسان القوس الاول وفوقه عصابة من القاشاني البديع بعرض نصف متر لسقف الطابق الاول والقوس الثاني وفوقه عصابة من القاشاني لسقف الطابق الثاني وعصابة هذا القوس عليها كتابة بالقاشاني لبعض الايات القرآنية وقد كتبت بالقاشاني الابيض المرشوش بالقلم النسخي البديع كتابة نفيسة وتسمى هذه العصابة في الريازة النجفية «الكتيبة» . وهكذا تقوم عمارة الصحن ايوان على ايوان وبيت على بيت وسارية على سارية يمنطقها من الوسط نطاق من القاشاني بعرض نصف المتر وتعصبها من الاعلى كتيبة بعرض نصف المتر تقريبا الا قسما من الجهة الغربية يشكل طاقا يمتد من ظهر الحرم ومساندا له على امتداده وذلك الطاق لا يستوعب الجهة الغربية كلها بل يستوعب في الجنوب مسافة اربع ايوانات ومثلها في الشمال الغربي ويوجد للصحن اربع ايوانات ذات طابق واحد كبيرة وشاهقة ينعقد على كل واحد منها قوس من القاشاني مطوي بشكل اطار وبجنب ذلك الاطار اطاران

من القاشاني المكتوب بآي القرآن واحد منها يقع في الجهة الشمالية وهو مقتطع من رواق عمران بن شاهين وقد رمز عليه كتابة بالقاشاني بقوله عز من قائل " ومن يعمر مساجد الله " ويقابله الايوان الثاني وهو ايضا منقطع من رواق عمران ويسمى ايوان العلماء والثالث في الجهة الجنوبية وقد دفن فيه السيد محمد سعيد الحبوبي فاصبح معروفا باسمه ويقابل الرابع وهو في ظهر الحرم وفي اعلاه الميزاب الذهبي ويسمى ايوان مرزاب الذهب. ومما بسطنا تعرف ان الصحن حصار عال تحيط به الايوانات والحجر وقاعته المكشوفة مثلثة ويكمل دورته طاق معقود في الجهة الغربية . وارض الصحن مبلطة بالصخر الصافي وقد قطع قطعا هندسية وحيطانه مؤزرة الى ارتفاع مترين بذلك الصخر وما عدا ذلك الارتفاع قد كسي بالقاشاني الملون بالوان بديعة تمثل روضا انفا من رياض الفن قد ابدعت فيه ريشة المصور ومناقشه فكم خط ذلك المبدع ازهارا وتقاسيم وخطوطا وتخريما وريازة عليها جمال الصناعة وجلال العلم وهيبة الدين كل هذه قد اجتمعت وامتزجت فكونت مادة لذلك التصوير ورشاشا لذلك القلم واصباغا ودهانا لتلك الريشة . وفي ذلك الصحن قامت بجلال ووقار قبة ابريزية قد افرغت بابهى صورة معقودة على بناية مهمة بديعة الهيأة انيقة الوضع تسمى الحضرة وتسمى الروضة وحقا انها روضة صناعية او معجزة من معاجز الفن انها آبدة تاريخية خالدة في فن البناء والريازة والهندسة . بناية جليلة جميلة قامت بشكل ايوانات اربعة فارغة عقد على كل ايوان اطار وقوس وفوق تلك الاطارات والاقواس عقدت القبة المنيفة تاج الجزيرة الذهبي .

وفي وسط تلك الروضة دائر من المرمر الابيض بارتفاع شبرين تقريبا وهذا الدائر يحجل الشباك الفضي. ووراء هذا الشباك شباك آخر من الفولاذ يحيط بصندوق من الخشب النفيس المعروف «بالخاتم» وهذا الصندوق يشعر بالرمز المقدس لعرين الاسد امير المؤمنين عليه السلام ويسمى «الضريح». وبين الشباكين فاصلة بمقدار متر وهناك باب فضي لا يفتح الا بوجه كبير من الملوك والعلماء يدخل الى ذلك الممر الفاصل. وفي باطن القبة المنيفة نطاق من كتابة لآيات من القرآن كتبت بالميناء وما عدا هذه الكتابة فكل باطن القبة منقوش بالفسيفساء نقشا بديعا بلغ حد الاعجاز ولتلك الروضة اربعة ابواب من الفضة وباب من النحاس الاصفر والروضة والأروقة الأربعة ممردة وتوجد ستائر حريرية مقصبة تؤزر بها الروضة والأروقة والايوان أيام الاحتفالات وتوجد انواع الكسوة للصندوق والشباك المحيط به . وقد رأيت كسوة تاريخية للصندوق وهي ثوب من اللؤلؤ المنظوم باسلاك ذهبية وفضية يقال انه من عهد البويهيين. ومشاهدتي هذه كانت بمناسبة زيارة الشاه احمد القاجاري تلك الزيارة التي كانت في عهد الاحتلال حيث امر الحاكم الانكليزي جلوة الحرم العلوي بكل ما فيه من نفائس وقد رغب الخازن بتقديم هدية للشاه فكانت عباءة مقصبة من صنع النجفيين الذين اشتهروا بهذه الصناعة وطلب الي ذلك الخازن نظم بيت من الشعر ينسج بشرائط من الذهب كل شطر على جانب من تلك العباءة فاشترطت عليه ان اكون من الرهط الذي يدخل الحرم مع الشاه، بعد ان منع الناس كافة من الدخول فوافق الخازن ونظمت ..:

في يمن بردة أحمد باركتها ومعوذا بحديث اصحاب الكسا

وتوجد في الروضة قناديل من ذهب بعضها منبت. وفي الروضة كثير من الهدايا القديمة والحديثة من المحبسات والاوقاف ونفائس من الفصوص والسيوف المذهبة والساعات والاحجار والمسارج ونسخ القرآن المخطوطة بالخطوط الاثرية وقد رأيت من النفائس سجادا بديعا غاية في الابداع قد نسج من الابريسم ولباب الصوف يقيس في الطول اكثر من مترين تقريبا واكثر من المتر بقليل في العرض وقد وضع بشكل محراب للمصلى وله اطار مكتوب نسجا بآية الكرسي وبأحسن خط وفي اعلاه نسجت صورة اسد يرمز بها الى امير المؤمنين عليه السلام وعلى الجانبين نسجوا احدى عشرة صورة يرمزون بها الى الايمة من اولاده واحفاده ونسجوا على ذلك السجاد سورتي الحمد والتوحيد والتسبيحات التي ترد في الصلوات والتشهد والتسليم، ورأيت اربعة قطع من السجاد النفيس المنسوج من الابريسم وهي عمل بعض الاميرات الصفويات وقد نسجن تواقيعهن وتواريخ النسج، ورأيت نسخة للقرآن الكريم بخط البرنس اسماعيل الصفوي وبتاريخ 991 للهجرة وعليها غلاف افرغ من ماء الذهب المذاب وقد نبت بالاحجار ورأيت نسخة ثانية على كرسي من العاج المرصع بالحجر الثمين وقد لف بثوب من الاستبرق موشى باسلاك الذهب في مهارة خارقة وصناعة بارعة. وغلاف ملون بالفيسفساء والميناء وهو غاية في جودة الخط بالقلم النسخي وليس فيه مادة للتاريخ. ورأيت ثالثة على كرسي مبرقع وهي بتلك النفاسة التي نوهنا عنها وعلى هذه

النسخة تفسير بالفارسية وقد استخدم في كتابتها وتنقيحها كثير من الاصباغ ومحلول الذهب فكانت من ابدع الاثار الخطية، فانت ترى ان تلك الروضة روضة فنية. انها بيت اثار وخزانة تاريخ لو نسق ما فيها من تحف وصنفت لكانت من ابدع دور الاثار في الشرق انها جنة للذوق وفردوس للفن . تخرج من تلك الروضة الى اربعة اروقة تحيط بجوانبها وقد مردت جدران الاروقة وسقوفها وتأزرت بالصخر الفاخر ومنه تبلطت ارضها وفي الاروقة خمس ابواب منها الباب الواقع في جهة الجنوب يسمى باب المراد لانه فتح للسلطان مراد العثماني عند زيارته للنجف وفي وجه الحرم بهو يرتفع عن قاعة الصحن بمرقاتين ويسميه النجفيون «طامة» وفيه اربع بيوت صغيرة وايوان كسروي يسمى ايوان الذهب وفي وسط الايوان باب فضي يدخل منه الى الرواق وهو الباب الذي ذكره ابن بطوطه وما زال حتى اليوم عليه نص الزيارة التي ذكرتها تتلى من قبل الزائرين ولكن بدل الطواشية الذين ذكرهم تقوم السدنة وهذا الايوان والبهو هما اللذان انشأهما عضد الدولة البويهي او انهما بمكان ما انشأ وترى هذا الايوان مع وجه البهو مما يلي الحرم مؤزرا بالصخر الفاخر وقد كسي ما فوق ذلك الازار بالذهب وتمنطقه كتابة ذهبية كتب فيها آي القرآن وقطع من الشعر الفارسي وفي وسطه تتدلى سلسلة ذهبية والى جانب الايوان قامت ماذنتان مكسوتان بالذهب ناهضتان الى السماء عزة وافتخارا وبين المأذنتين جلست تلك القبة الابريزية المتوهجة كانها شعلة مقدسة على جبل من ذهب او نار الكليم تلوح في الوادي المقدس. قامت توقر النجف ووادیه شمس من ذهب يتكسر عليها نور

الشمس. فما الطف ذلك العالم المتكون من النور والذهب وما أبهى القبة المنورة والمأذنتان والايوان ووجه البهو اذا سالت عليها اشعة شمس الصباح متمرغة بتراب اعتاب تلك القبة المقدسة. واخيرا نور المشهد بمصابيح الكهرباء فامتد بين المأذنتين سمط منظوم من كواكب وجعلوا في اعلى القبة طوقا من المصابيح فكانت تلك القبة الشريفة كمصباح المصباح في زجاجة كانها كوكب دري نور على نور ما اروع المنظر وما اجله واجمله حتى كأن تلك الكومة من النور مشعل يشع في الفضاء. وبقاعة الصحن من الجهة الشرقية كانت مسرجة كللوها بالمصابيح على شكل مخروطي اذا اسرجت تريك عنقودا من نور قد هبطت به ملائكة الذوق من فردوس اللطف. وهذا الذهب الذي مر عليك ذكره كله من بذل نادر شاه في اوائل القرن الثالث عشر للهجرة وتلك السلسلة الذهبية المعلقة في وسط الايوان الذهبي هي السلسلة التي ربط بها نادر شاه عنقه وامر ان يسحب الى ذلك الحرم خاشعا ضارعا وابقى هذه السلسلة ذكرى لذلك الانقياد . وقبالة الايوان على الباب الشرقي نصبت ساعة كبيرة ذات صفحات اربع بيض معلمة بارقام سود وعليها برنس من الذهب واجراسها تدق في كل ربع ساعة ولها رنين في ذلك الطقس الديني يتموج مع اصوات المبتهلين ونبرات الداعين فكانه رنين ابتهال الزمان في ذلك المكان المقدس. ولتلك الساعة الفخمة المرتفعة الصلبة الاجراس رنين يطبق ارجاء النجف فهي ميقات النجف كله لا ميقات المشهد فقط. وليست هذه اول ساعة نصبت هناك فقبلها كانت ساعة ولكن فضلت هذه ورفعت تلك. وقد استرعى الاذهان موقع ذلك الباب الكبير القديم

فاقاموا عليه قوسا من القاشاني المطوي والمفتول طرائق طرائق بكل لطف وابداع يحيط به اطار قاشاني مكتوب بآي القرآن وبالقلم النسخي البديع وفي اعلى ذلك الايوان عصابة من القاشاني المكتوب وفي داخل الايوان اطار ذهبي ونطاق قد كتب بمحلول الذهب فما اجمل ذلك الوجه وما ابدع قسماته البهية وما اروع ذلك الحصار الذي يضيء حجاره ويضوع طينه. وفي الصحن اربع عمارات مستقلة ولكنها داخلة فيه اولا المدرسة المعروفة بمدرسة الصحن الواقعة في الجهة الشمالية وثانيا جامع كبير يسمى مسجد الخضرة شرقي الصحن ثم تقابل هذا المسجد عمارة ضخمة تسمى التكية وهي زاوية للغرباء من الصوفية خصوصا فرقة «البكتاشية» ولها جراية من غلة اقطاعية زراعية قريبة من الكوفة وعليها موكل بالصرف، ورابعا جامع في جهة التكية وهو بناء صفوي يسمى مسجد الجمعة. وبمناسبة ذكرى التكية للدراويش نذكر صفة تأوي اليها الدارويش كانت تسمى صفة الصفى تقع في رحبة مطلة على بحر النجف وفيها بيت عتيق عقدت عليه قبة يقال انه مقام الامام زين العابدين عليه السلام عندما زار جده وفي عهدنا كان بعض الوافدين يتساءلون عنها ويزورونها.

البسيطة

سبق وكانت في الكوفة وهي ام النجف الكناسة وقد كانت سوقا للتجارة البرية فهي محطة للقوافل ومناخة للحمولة وقريب منها سوق البراذين ومعرض لكل ما يحتاج اليه الركب وتجرى المساومة فيها على بيع الابل وبعد ان طويت

الكوفة وكناستها نشأت البسيطة وهي رحبة واسعة في ضاحية مدينة النجف ولا ادري أهي التي قصدها المتنبي بقوله :

بسيطة مهلا سقيت القطارا تركت عيون عبيدي حيارى

ذلك عند اوبته من مصر الى الكوفة او انه قصد بسيطة غيرها. وكانت بسيطة النجف هذه مناخة للقوافل وسوق بدوية مثلما هو في بلاد الضاحية كعين تمر (شفاثا) والسماوة والرحبة والخميسية وبليدة الزبير . وتزهو البسيطة عندما تتهيأ قافلة الحج التي تنسل اليها من كل حدب وصوب يوم كان الطريق البري للحجاج من النجف وحائل. لقد كان علم الحجاج وسرايته اولا من الكوفة ثم من البصرة ثم من واسط ثم عاد يتحرك من الكوفة ثم من الحلة ثم صار من النجف.ويذكر ان بعضا من امراء الحجاج لطريق النجف هو الشيخ عبد الواحد الكعبي المشهور عند النجفيين سابقا وله آثار عمارة ومسجد في النجف. واخيرا صار امراء الحجاج لهذا الطريق من آل رشيد زعماء شمر وامراء حائل وآخر أمير من قبلهم يسمى ابن سهبان. فما ابدع البسيطة يوم الاستعداد والتحضير لسفر الحجاج حينما تمرن الابل على شيل المحامل عليها او كما يقول النجفيون «الكجاوي» جمع كجاوه . فكان الرفقة للحجاج يخزمون الابل ويقودونها ويتصل بالخزام حبل تقاد فيه فتجري طيعة وتتراكض صبايا النجف لتدشين تلك المحامل الجديدة بالركوب عليها وتنشر الخلع الملونة على متون «العكاكيم» جمع عكام يقال عكم البعير اي شد عليه الحمل .والنجفيون يقولون اليوم لمن يشد الحمل عكام .وتلك الخلع المنشورة هي من معارف الحجاج وذويهم. وفي ذلك المخيم الواسع تضرب

المضارب الزاهية وترفع القباب العالية وتفرش بالسجاد النفيس وتطوف اباريق القهوة واقداح الشاي واطباق النقل والحلوى على الاحباب والاصحاب الذين يحضرون للوداع وتدوم اعراس البسيطة ثلاثة ايام وفي صبيحة اليوم الثالث يقرع طبل السفر «الدمام» ويرفرف فوقه علم أمير الحجاج وتمتد سطور الابل وهي تتهادى بين الزغاريد مزفوفة ومتجهة الى قرية الرحبة الواقعة في بادية النجف وعلى مرحلة منها. وكانت البسيطة قاعدة لسوق النجف البرية وترتبط بمدينة حائل الواقعة حول جبلي «اجا وسلمى» والنجفيون يسمونها الجبل وهي قاعدة امارة آل رشيد .وقد كانت القوافل تروح وتجيء بين المدينتين كما وان النجفيين كانوا يسيطرون على هذه الطريق من القديم وكانوا خباره كما نوه بذلك ابن بطوطه. وكانت للنجفيين بيوت تجارية في حارة من حائل تكونت منها محلة كبيرة وحيا معروفا مثل بيت شكر وبيت حبوبي ولفظة حبوبي البدوية جاءت لهذا البيت العلوي الجليل من حائل ومثل بيت مرزا البيت الاسدي ومثل بيت عجينة وبيت زيني وبيت الشاوي وهو غير بيت الشاوي البغدادي وبيت الصايغ وغيرها من البيوتات النجفية. ولم تنقطع صلة النجف التجارية مع البادية بعد ان ذهبت حائل واهميتها التجارية بذهاب امارة آل رشيد فانها اليوم تركزت في سوق عرعر وهي بليدة في الصاحة بين بادية النجف ونجد .

الاعياد في النجف

لم تكن للنجف سابقا اعياد قومية او وطنية ولا اعياد مناسبات واني اتذكر

ملحة لبعض المتندرين من النجفيين عندما جاء الى حلقة احد الاعلام وقد كنت فيها فتساءل قائلا ما لنا وما بال قادتنا كل يوم ينادي المنادون بمأتم لائمتنا وقيام مناحة، حتى ان ايام وفاة بعض الايمة كانت غير مضبوطة فكانت مآتمها متعددة حسب تعداد الروايات، برأيكم ايها القادة اما كان لسادتنا وابنائهم ايام اعراس نتخذها اعيادا وافراحا؟ اجل لم يكن في النجف الا عيد الفطر وعيد الاضحى وعيد النوروز وعيد الغدير اما اعياد الفطر والاضحى فدينية ترمز عن الفراغ من عبادتين مهمتين واما عيد الغدير فهو عيد زيارة وذكرى محببة اما الرابع فهو العيد الفارسي ويظهر انه قديم في العراق وقبل الاسلام ومما يدل على عدم معرفة العرب له روى من ان عليا امير المؤمنين عليه السلام يصادف وجوده في البصرة يوم النوروز فيقدمون له الحلوى ويسأل عن المناسبة فيقولون انه النوروز فقال نوروزنا في كل يوم يريد انتقاد الاختصاص في ذلك اليوم . والنوروز يخص الشمس التي كانت مقدسة عند الفرس وهو يوم انتقالها من برج مهم الى برج مهم، وكان للفرس في العراق عيدان: النوروز وترجمته اليوم الجديد لانه اول يوم لسنتهم التاريخية وهو عيد الارض وزهوها بالربيع الجديد انه بداية الاعتدال الربيعي. والثاني المهرجان عيد الخريف يريدون به يوما تحبه الروح لانه عيد الفضاء الصافي والنسيم العذب . وفي العهد العباسي كانت لهذين العيدين احتفالات ومجالس تبريك رسمية وشعبية، وفي دواوين شعراء تلك الحقبة قصائد للابتهاج وللغناء اما في عهدنا هذا فقد طوي ذكر المهرجان وبقي النوروز حيث يحتفل به لانه اول يوم للسنة القمرية وله ادعية خاصة

منها قولهم يا محول الحول والاحوال حول حالنا الى احسن حال وقد سمع بعض المتندرين يقول حول حالنا ويسكت .. فقيل له قل الى احسن حال فقال يكفيني مجرد التحويل. والعامة تسمي هذا اليوم يوم الدخول ويوم التحويل وذلك لتحول الشمس من برج ودخولها في برج. والساعة التي يذكرها التقويم الفارسي لذلك التحويل يكون لها عظيم الاهتمام تحتفل لها المشاهد واهل المشاهد في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء واكثر المدن والقصبات . واعظم اعياد النجف هو عيد الفطر حيث يكون يوم الزينة والافراح والمقاصف والولائم وميادين السباق والرهان على السباق. ومن بعده فالاهمية لعيد الاضحى وبما ان هذين العيدين يتوقفان على مشاهدة الهلال فاختلاف المطالع واختلاف قوة العيون كثيرا ما اوجب البلبلة حتى ان قصبة من قصبات العراق فطرت يوم الشك وعندما بلغهم ان كل العراق كان صائما ذلك اليوم ضاقوا ذرعا وابرقوا الى احد المراجع الدينية يطلبون حلا لمشكلتهم فابرق لهم من فطر كفر أي يعطي الكفارة ولكنهم قرأوها بدون تشديد فظنوا انهم كفروا . والذي يوجب الارتباك في هذا اليوم ان صومه واجب ان كان من رمضان وان افطاره واجب ان كان من شوال وتكون البلبلة في العيد من ذوي الحجة في الموقف ايضا اذا اختلفت الاقطار في الرؤيا فان كان الهلال مرئيا في الحجاز ووقف الحجاج ولكن ظهر انه غير مرئي في العراق لم يتم الحج للعراقيين وبقي الحجاج العراقيون ينتظرون العام المقبل . واخيرا ذهب الفقهاء ان امر الحج منوط بهلال الحجاز فانتهت المشكلة في الاضحى وبقيت مشكلة عيد الفطر وكثيرا ما تنغص

العراقيون بعيدهم هذا عندما يحصل الاختلاف بين الطائفتين الاسلاميتين بسبب اختلاف الموازين في الحكم بثبوت الهلال فيتشوه مظهر الامة التي يعيد بعضها ولا يعيد النصف الاخر. وقد حاول الملك فيصل الاول حل هذه العقدة فجمع رجال العلم من هؤلاء وهؤلاء وقال الا مخرج يخلصنا من هذه البلبلة وقد كنت بين الحاضرين ممثلا لمجلس التمييز فقلت يا سيدي الحل عندً المرصد لان المراد هو ثبوت الرؤية للشهر والرصد لا يكذب فعلينا بعد ايجاد المرصد ان نأتي بعدلين من كل طائفة واذا شاهدوا الهلال في الرصد حضروا عند الحاكم فيحكم على شهادتهم . وسرعان ما يرد علي البعض بان الحكم يجب ان يكون مستندا الى الرؤية المجردة لا بواسطة فقلت ان لفظة الرؤية مطروحة الى فهم اهل العرف وليست هي اصطلاحية، الا ترون الان ان على عيني نظارة وان رؤيتي لكم رؤية بلا شك وما الرصد الا نظارة كبيرة فالمشاهدة فيه رؤية بلا شك ولكنهم اصروا على رأيهم وبقيت العقدة بلا حل . وختاما للبحث عن النجف اثبت ادناه قصيدتي في وادي النجف :

اللطف غبش سفحة الوادي المنور بالشقائق
والرمل مواج السبائك بالشذى الفواح عابق
والدار عالية البنا قوراء كاملة المرافق
وضح الطريق لها وزالت عن شرائعها المزالق
فيها مفاتيح لابواب الرجا وبها مغالق
ولها مجاز ينتهي بالسالكين الى حقائق

حصن الخورنق فرخها ام العذيب واخت بارق

***

وطني المفدى أي سر في ثراك الطهرعالق
أمن الثرى هذي الدمى ومن الورى هذي الغرانق
ومن التراب وما التراب خلقت اوراد الحدائق
لله فيك عناية جعلتك مخلوقا وخالق
مرت بصخرتك القرون سريعة مر الدقائق
ملأى بكل طريفة من كل معجزة وخارق
زاهي الحدود منيعة ببني المدارس والخنادق
ساع لرفعة شعبه بلد المنابر والمشانق
ولواؤه القومي فوق شعاره الوطني خافق
العز وضاء المنارة ساطع والعزم صادق

***

تاج الجزيرة قبة سطعت على خير المفارق
الحق تحت رواقها والنبل ممدود السرادق
اين اللواحق يا غري فأنت أنت أبو السوابق
يا لمعة النجف المعلى لا تجهمك الطوارق

***

-18-

حلم الرفاق

رجعت بي الاحلام الى صاحب العلم المنشور الذي رحل وتبعه زوار الحي وانا على اثرهم فوجدت الادباء وقد تفياءوا ظلال الصحن وانتشروا حلقا حلقا واكثرهم يعتم بالعمة البيضاء كأنهم طيور الجنة يتلاقطون حبوب الادب والعلم والفضيلة ولهم مثل هذه الحلقات في الجامع المعروف بالمسجد الهندي وهو الجامع الكبير الواقع في سوق باب القبلة. ووجدت في زاوية من الصحن حلقة من الشباب قد انقبضت منكمشة ويظهر عليهم انهم ممتحنون بحالة نفسية ثقيلة وقد نهضوا خارجين والناس يزلقونهم بابصارهم وهم ينظرون الى الناس بازورار. سلمت على من حولي منهم وسألت فقال لي هذه طائفة من المتجددين الذين تمردوا على التقاليد وتعاطوا كما يقولون وجوه الاصلاح فقلت هؤلاء هم الرفاق. وتأثرت خطاهم حتى انتهوا من الشوارع الملتوية الى دويرة منعزلة سألت عنها فقيل انهم يسمونها «الندوة»، وحالا عقدوا ناديا لا يشبه المألوف من الاندية التي تعقد في ذلك البلد للمناسبات وللاعراس والمآتم تلك المآتم التي يسمون خطبائها "روزه خون " كلمة فارسية اي قارئ الروضة. والروضة اصطلاح عند الادباء المتأخرين من ابناء القرن العاشر للهجرة وهي مجموعة قصائد على عدد الحروف الهجائية وكل بيت من ابيات تلك القصيدة المكونة من ثمان وعشرين بيتا

يكون الحرف الاول مثل الاخير وهو حرف القافية ولا تكون روضة الا اذا تجمعت من ثمانية وعشرين قصيدة وكل قصيدة من ثمانية وعشرين بيتا، وعندما اراد الصفويون الدعاوة لدولتهم الشيعية كلفوا ادبائهم بنظم روضات لمدح الايمة الاثني عشر ووجهوا الدراويش للممالك الاسلامية يرتلون ويقرأون على الناس الروضة وكثيرا ما تكون مشتملة على ذكر الامام الحسين عليه السلام وفاجعته فكان ذلك الدرويش يسمى روزه خون والفرس ينطقون بالضاء زاء. وقد افصح خطيب ذلك النادي قائلا ان هذا البلد الاجرد واقع في مكان خلوي لا ماء فيه ولا زرع ولم يكن محطة تجارية او محلة صناعية فهو عائش على اعصاب اهله بصبر وجلد وبما ان له الاهمية التاريخية والدينية والعلمية فلا بد من الاهتمام بايجاد مرفق اقتصادي يحقق له العيشة الكريمة. لقد كان اول ما كان يعتمد على البلاد الزراعية القريبة منه مثل الرماحية وبلاد العيون وسائر مدن فرات الكوفة والحلة مثل مزارع نهر التاجي ونهر طهماسب ونهر الشاه والسلهو فكان الكثير من المنتسبين مثلا الى الرماحية تلك المدينة الفراتية الواقعة بين السماوة والنجف والتي كانت زاهية ايام مشيخة خزاعة المشيخة التي نوه المجد عن الكثير من بقاعها مثل الحسكة والرميثة والديوانية والشامية والملوم والشافية والسماوة . والمنتسبون الى غير الرماحية من تلك المدن يظهرون في الموسم الزراعي فيزرعون ، وعندما يستوي الزرع يحصدون ويجمعون الحصيلة ويعودون الى النجف . هكذا كان عملهم في بلاد العيون مثل الرحبة والرهيمة والحياضية وكانت في النجف بيوت علمية وبيوت زعامة

تنتسب الى هذه الانحاء مثل آل الطريحي وآل الرماحي وآل المشهدي وآل الرحباوي وآل الحطاب. ثم تطور ذلك العمل فأصبح اهل تلك القرى والنواحي يزرعون ويقدمون الحصيلة للقاطنين في النجف من معارفهم ومن عشيرتهم. ولم ينحصر الامر بالمزارعين المذكورين بل توسع في طول الفرات الاوسط وعرضه وفي قسم من دجلة والغراف وشط العرب وكارون ولكن الان وقد ارتفعت اسباب المعيشة وهانت هذه الطريقة من الكسب فلا يمكن ان يحقق مرفقا اقتصاديا للنجف الا التصنيع ، وقلت لبعض الرفاق وماذا نتعاطى نحن وقد شب عمر عن الطوق فقال :

توجد في النجف كثير من الاثار الادبية الممتازة لو تعاطينا طبعها ونشرها لصادفت رواجا وعادت بارباح . وقد وجدت الفكرة صائبة ولكن لا بد من الاجتهاد في ايجاد المال لذلك العمل فعقدنا شركة عنوانها «شركة مقاومة الفقر» واحضرنا عدة دواوين وكتب قيمة ووزعنا العمل للقيام بما نرى طبعه نافعا فكان علي ورفيق لي القيام بطبع ديوان الطباطبائي احد شعراء النجف فاشتريناه من اهله ورتبناه وبعد تشذيبه عرضناه على صاحب مطبعة كان من معارفنا فقدر الكلفة بسبعين ليرة ذهبية وتعهد هو بتصريف ما قيمته عشرون ليرة ذهبية وطلب منا تقديم خمسين ليرة فقط ولكن انى للمفاليس ذلك المبلغ. وبعد تقليب وجوه الرأي اهتدينا الى رفيق لنا يملك دويرة لسكناه وفاوضناه على رهن دوريته عند بعض النفعيين بخمسين ليرة لمدة سنة وخلال هذه المدة يتم الطبع ويعرض الديوان بالسوق فيدر بالخير العميم ونفك الرهن وخصصنا لذلك الرفيق حصة من الربح وكان الرفيق غاية في

الاعسار فاغراه الحلم الذهبي وهش له ولكنه تردد خوفا على ان يفشل الحلم ويغلق الرهن على دويرته وبالغنا في اقناعه فقال اني اذهب لاستخير.

والخيرة نوع من الدعاء والرجاء الى الله ان يرشد الحائر عندما لم يجد من يستشيره والا فالاستشارة قبلها وهي قديمة الاستعمال كما وانها انواع عديدة والمقصود بها زحزحة المرء عن حيرته ولكن بعض الناس اخرجها عن موضعها وكان في مثل الوسواس لا يتحرك الا بخيرة ويعتقد ان للخيرة سرا من الاسرار ومن هؤلاء جار لنا كان من عادته ان يسمر خارج بيته كل ليلة وفي ليلة من ليالي الصيف القائض يعود من سهرته ويجد الاهل قد اخذوا مضاجعهم فارهين فوق سطح دارهم يستنشقون النسيم العذي ويناجون دراري السماء اللامعة ولما كان جارنا من اولئك الذين يتعاطون في الخيرة لكل شيء رجع الى مسبحته يستشيرها اينام على السطح فلا توافق اينام في السرداب فلا توافق ، وهو يزداد اعتقادا ان للخيرة سرا ولم يبق في البيت الا مرفق المطبخ وقد وافقت السبحة عليه فينام فيه وهناك نفق يخزن فيه الحطب وبينما هو يغط في نومه اذ تلسعه عقرب في قدمه ومن شدة جزعه يرفس باب النفق فيقع ساقطا فيه ويصيبه عود من الحطب فيقلع احدى عينيه ويعج بالصراخ فينتبه الاهل مذعورين ويفتشون عليه ولا يجدونه وعلى هدى صوته يقفون عليه ويملكهم العجب كيف جاء كيف اتفق له هذا فيخرج وهو يعالج و لكنه أعور. وصادف ان يصحب قافلة يتعرض لها الذعار من البدو فيسلبونها والبدو يتشأمون من الاعور فيتركون صاحبنا ولا يتقدمون الى سلبه. وسرعان ما يأتي اهله فرحا قائلا سبحان الله هذا هو سر الخيرة

التي اوجبت اعواري . ولما ذهب صاحبنا الآخر الى الخيرة قلت لرفيقي اخشى ان يكون يومنا مثل يوم جارنا في الامس وحينئذ يذهب سر الخيرة بعملنا كله ولكن سرعان ما كذب ظني وجاء الرجل مبشرا بموافقة الخيرة وبكل سرعة وضعنا الدار رهنا او بعناها بيع الوفاء لمدة سنة واحدة واذا لم نسدد البدل تصبح ملكا للمرتهن ودفعنا الدراهم الى صاحب المطبعة وكان محله في لبنان وبعد مرور شهرين أنجز طبع الديوان واستلمنا منه 200 نسخة وكان المطبوع 1500 نسخة وبينما نحن مغمورين بالامال واذا بالدنيا تخور وتمور بالنبأ المزعج وهو اغتيال الارشيدوق ولي عهد النمسا وعلى الاثر اعلنت الحرب العامة الاولى واعلن العثمانيون النفير العام فارتج العراق وارتبكت اسواقه وتقطعت سبله واذا الديوان لا يساوي نقيرا ومرت أهلة السنة سراعا والامور تزداد سوءا وفي ذات يوم كان صاحب الدار الى جنبي وهو بحالة كاسفة اذ لم يبق من اجل الرهن الا شهر واحد نظرت اليه فامتلأت ضيما ولم اتمالك دون ان افر الى بيتي زاهقا ولم استطع النوم تلك الليلة وبقيت اتململ على حسك المضجع واهلي يعرفون ما بي فيشفقون علي ويصادف ان يكون وباء الجدري يومذاك منتشرا في النجف ولاخي طفل اصيب به وفي منتصف الليل تستيقظ امه وتريد اشعال السراج لتفقد حالة ابنها وتمد يدها الى الرف لاخذ علبة الثقاب ولكنها تضع يدها على عقرب هناك فتلسع كفها وتنشج وتولول من الالم ولكن بتكتم حتى لا تزعجني واحس بان شيئا قد حدث ولما استطلعت الخبر ايقظت طفلة لها وقلت اذهبي الى جارتنا لجلب ثقابة فذهبت الطفلة وكان للجارة ابن مجدور ايضا

وقد ثقل مرضه ولما حسست الطفلة امه استيقظت مرعوبة وتعهدت طفلها واذا به قد مات فعجت صائحة نائحة وخافت الطفلة فرجعت الى بيتها راكضة في حلك الليل وكان في طريقها دهليز لدارنا لم تحسب المذعورة حسابه فعثرت وسقطت مكبوبة على وجهها وهي في رعب شديد واذا انا بين ملسوعة ومذعورة ونائحة . وفي الصباح دخل علي الدار احد اقاربي قائلا ان السيد رضا الحكيم وهو من فقراء سدنة المشهد العلوي يطلب حضورك في داره لتقف على كومة اوراق قديمة هي بقية تركة علمية وأدبية لاهله الاولين عسى ان تستخرج منها كتابا فيستفيد هو بثمنه وتستفيد انت بالاطلاع عليه. فقلت اذهب للتسلية ووجدت السيد رضا في خربة يسميها دارا وفي الحال وضع بين يدي اكواما من الاوراق وكراديس من الكتب المفسخة وعليها من الاوساخ اشياء واشياء. فحصتها ساعات عديدة فاخرجت منها ثمانية كتب نفيسة جدا وقلت له هذا ما يمكنني ان استخرجه من هذه الاكوام فشكرني وعرض علي شراءها وسألت عن الثمن فقال كل كتاب بليرة ذهبية وكان لا يعرف شيئا عن نفاسة موضوعاتها ولا عن قيمتها العلمية والاثرية. فقلت واين يوجد هذا الثمن الباهظ وقد حلقت بالنقد عنقا مغرب انا ادفع عن كل كتاب «مجيدي» فامتنع علي متظاهرا ولكني تظاهرت ايضا بترك الكتب ونفضت يدي وخرجت فتبعني ابنه مخبرا بموافقة ابيه على الثمن فرجعت وحملت وولده الكتب قائلا سيعود ابنك بالثمن وجئت البيت وانا حائر بالثمن لجأت الى امي قائلا اني عثرت على كنز مفتاحه ثمانية مجيديات دبريها يا أم فاستبشرت وذهبت الى جاراتها ودبرت المبلغ

من هذه ومن تلك فدفعته الى الولد وجئت رفيقي قائلا ومبشرا انا خرجنا من المأزق والحمد لله ، وحدثته عن اللقطة وهي كتاب «البيزرة» في علم جوارح الطيور وطبها مثل البيطرة التي هي في علم جوارح الحيوانات وطبها وهو مخطوط نادر مترجم من اليونانية للخليفة المأمون العباسي وكتاب «السكردان» لابن سكره وجزءان من تذكرة ابن حمدون وكتاب الصحاح للجوهري وعليه ايجازه بخط الجوهري وغير ذلك من الاثار فاستبشر الرفيق وكان كله شوق للوقوف على الغنيمة فاتينا الدار وبعد ان تصفح الكتب اصر ان يصحب كتاب البيزرة ليطلع عليه .

وفي اليوم الثاني فكرنا في البيع ولكن المشتري في بغداد وفي بغداد فقط يبذل بازاء هذه النفائس ومن المشكوك الحصول عليه حتى في بغداد لشدة الضائقة الاقتصادية وقلة النقد. وبعد التفكير تذكرنا وجود قنصل لدولة اجنبية في كربلاء وهو من صرعى الكتب القديمة وكان له سكرتير يقال له المنشي كان في النجف فطلبنا اليه تعريف صاحبه عما عندنا واذا له رغبة حملنا اليه الكتب ويعرف صاحبه فكان الجواب الترحيب وعزمنا على الشخوص ولكن كيف التدبير لنفقات السفر ونحن لا نملك شروى نقير فقلت لصاحبي هذه نوبتك جرب نصيبك وكان اشد مني املاقا وبعد حيص وبيص دبر مجيديا واحدا والمجيدي مسكوك فضي ينقص قليلا عن خمس الليرة الذهبية العثمانية. اعطينا من فرط المجيدي ما يقارب الدرهمين لمن كان في دار الرفيق لان اهل الدار كانوا في بغداد، واكترينا ثلاثة من الحمير تألفت منها القافلة التجارية المهمة وبقي عندنا درهمان فركبنا حمارين وحمل الثالث

الكتب وكان الطريق يقطع في ثلاثة ايام وليلتين الاولى في المصلى وهو منزل الى النجف اقرب والليلة الثانية في النخيلة وهو منزل الى كربلاء اقرب وفي صحوة اليوم الثالث يكون الوصول الى كربلاء. اما متاعنا على الطريق فكان الخبز والملح وقليل من مسحوق الليمون المجفف المسمى «نومي بصره» وكلفة كل وجبة لا تتجاوز الاربعة فلوس ، جئنا كربلاء واستقبلنا صاحب نزل نعرفه ويعرفنا فنزلنا عنده، ولم يبق معنا شيء من النقد قلنا لصاحب النزل اصنع لنا طعام العشاء وسوف نسدد عليك الحساب وخرجنا نفتش عن محل القنصل فوجدناه وحملنا له البضاعة ورحب بنا وبذل في الثمن 70 ليرة ذهبية فلم نوافق وقلنا نذهب الى بغداد ولا شك اننا نجد اكثر من هذا البذل وخرجنا بدون كسب وبقينا ذلك اليوم على الطوى وفي المساء عدنا الى المنزل فوجدنا العشاء مهيئا فاكلنا بنهمة وشهية ونحن لا نعلم من اين يكون التسديد وبكرنا في الصباح قبل ان يطالبنا صاحب المحل بالتسديد وبقينا بدون فطور. وفي الضحى التقينا برفيق لنا يسكن كربلاء فعاتبنا على تخطي داره واعتذرنا لكنه اصر على تناول وجبة طعام عنده والخيار لنا ان تكون غداء او عشاء تهامست مع رفيقي ان تكون غداء ولكنه اصر ان تكون عشاء اما في النهار فيغذينا الامل بخلاف ما اذا جعلناها غداء لا يبقى لنا أمل من بعده . وحالا اجبناه على وجبة العشاء وافترقنا ولكنا بقينا حائرين ودوين العصر نقنقت ضفادع بطوننا فقلنا نطوف البساتين عسى ان نحصل على «حق المارة» ولو من ورق الشجر فاستضافنا ورق النارنج الزاهي وورق البرتقال وقلت لصاحبي ان فيه لمرارة

قال نعم انه نافع للمعدة قلت له هل صيرك الجوع طبيبا. وهكذا بقينا نطوف البساتين الى الغروب فذهبنا الى مضيفنا ولا تسل كيف جئنا وتناولنا الطعام وعدنا الى النزل فبتنا ليلتنا وقبل ان ينتبه صاحب النزل خرجنا الى الجامع صباحا وفي الطريق قلت لصاحبي وكيف الحل فلم يحر جوابا فقلت الحل عندي اني ذاهب الى القنصل لاقول ولله انا جئنا على حساب البيع فلم نصحب دراهم وان البيع لم يحصل هنا اقرضنا ليرة واحدة نصل بها الى بغداد وعند العودة نسددها على مثل هذا . ذهبت وتركت الرفيق المذهول. وفي طريقي اصادف السكرتير وقصصت عليه الحديث فرحب بي واخرج من محفظته صفا من الليرات قائلا خذ ما تشاء فاخذت واحدة وشكرته ورجعت الى رفيقي فرحا وعلى الفور سددنا حساب صاحب المنزل واشترينا ما يكفينا من الطعام . ويرغب صاحبي بالبقاء في كربلاء لان اهله في بغداد ولا يملك تكاليف عودتهم فانقدته بعض الدراهم وقلت له سوف اعود بسرعة وذهبت الى بغداد وفيها بعت الكتب على الصيدلي داود فتو وعند الرجوع الى النجف دفعنا بدل الرهن وعادت الدار الى صاحبها وبعد ذلك حدثت حوادث وحفلت شؤون وتغيرت احوال افترقنا لها تارة والتقينا اخرى وها نحن اليوم :

كلانا غني عن اخيه حياته ونحن اذا متنا أشد تغنيا

-19-

الاحلام المنغصة

كانت دراسة الشيخ الجديد منغصة بانواع المنغصات وكان يتحملها بصبر. وكانت امه تحرص على ان يتعهد نشأة ابنها العزيز غير امرأة ارملة بل تريده ان ينشأ بين الرجال. وادرك ابوها ذلك فتحسس بحنو ويعتزم على تعهد سبطه فيحوله الى بيته ولكن بيت الجد كان مزدحما بالذرية فهذا الوسط لا يفسح لذلك الناشئ ان يلتهم العلم كما كان يريد لانه كان يرى نفسه منقطعا وفي العلم سلواه ويحس بانه ضعيف وفي الادب قوته وتصح عزيمة الناشئ على الانزواء بخلوة في مدرسة صغيرة تقع في محلة العمارة ويفر اليها كلاجئ فتنحل عقدة المكان ولكن بقيت عقد كثيرة اهمها الكتب لان الشيخ الجديد لم يجد في بيت ابيه ولا ورقة واحدة كانما هو بيت حداد او بيت وقاد ليس فيه غير منفاخ وهو فم تلك الام الرؤوم التي تريد ان تصهر ولدها بكل حرارة فهي تنفخ وتقول كان ابوك ويقول لها سامحك الله ايتها الحنون هبي ان علم الاب كان لدينا فلا يحتاج الى كتب ولكن على اي شيء كان يحضر محاضراته العلمية وقطعه الادبية، هل كان قمر الدنيا يكتب على ورق قمر الدين فاكله الذين يأكلون اموال اليتامى . وكانت الام تسمع تلك الشكوى المؤدبة بألم ممض وتوجع فتنفر الى بيوت اعمامها واخوالها وقد

كانت معمة مخولة وطلبت لولدها من المحبسات والموقفات ما ينفعه من الكتب فيقال لها ان الكتب الموقوفة تصلح لطلاب هم اعلى مستوى من ولدك انها موسوعات وامهات الكتب وان ابنك في حاجة الى كتب المقدمات. ويترفق بها احد اخوالها ويذهب الى حانوت وراق فيشتري اسمالا من الكتب المستعملة مثل شرح الفية ابن مالك ومغني ابن هشام وديوان الحاجري وديوان المتنبي وتجيء البارة الى ولدها مسرورة تحمل له كنوز العمل والادب ويفرح الولد في هديتها وكان شغفه بالديوانين عظيما حتى انه استظهرهما وكان يراهن على تلاوتهما عكسا وطردا، وبقي يتتلمذ على مجالس الادباء واندیتهم ويطالع في افواه العلماء والفضلاء يلتقط منها الملح والنوادر عاملا بالقول المأثور «خذ العلم من افواه الرجال». وكانوا كثيرا ما يسمون ويذكرون اسماء الكتب فيظن انهم يسمون النجوم او فصوص الجواهر. ولم تكن الحياة في المدرسة التي لجأ اليها بالسائغة لانها كانت تشتمل على خليط متنافر من الاغراب باللغة والعادات والاذواق هذا من البحرين وذاك من تبريز وآخر من جبل عامل وهكذا دواليك فهم جيران لا يتزاورون وأهل بيت لا يتفاهمون تلوح على الكثير منهم غبرة الفقر وانكماشة المستوحش وجهد الصابر ، الاوساخ في هذا المناخ كثيرة، ولخبث الرائحة انواع وانواع، وخامة وزنخ ويفاجئك من الاطراف قتار الشواء مصحوبا بزنخة القلي بالدهن العتيق. وفي المدرسة حوض ماء للنظافة ولكنه للوسخ اقرب وكثيرا ما نتن ماؤه، وفراش المدرسة حصير او بساط والنوم على طراحة «دوشك» مستطيل محشو بنفايات الصوف وعقدة «نثر» وعليه وسادة صلبة

قد رصت بالصوف المعقد رصا فهي للتبليط او لاساس السواري اصلح من كونها وسادة لرأس او متكأ لظهر . وفي الصيف القائض ينامون للقيلولة تحت الارض في نفق تسميه الريازة الفارسية «سرداب» والحقيقة انه قبر واسع وهناك ما يزهق من انحباس وضيق وما يقزز من تبخرات اولئك الاموات الاحياء. وبينما انا متضايق من هذه المدرسة يشيد العلامة الخراساني مدرسة فارهة ذات رونق واحتشام تحلها طبقة راقية من الناس فاسارع بالرجاء واحصل على حجرة تشطرتها انا ورفيق لي .

-20-

لقد كان الخراساني آية عصره وكان من الافذاذ وهو حجة في الفلسفة النظرية وعلم الاصول وكان يحاضر في مسجد الهندي الذي اسلفنا ذكره وكان يحف بمنبره ثلاثة الاف طالب فيهم المجتهد او المرشح للاجتهاد وكانت له الروعة والهيبة اذا استوى فوق منبره فما ارهب زجرته التي يزجر بها من كان في اقصى المسجد اذا سمع كلمة اثناء القائه، انه يقرع ذلك الحشد المهيب بقولته «نفس» يريد اسكات ذلك المتنفس واذا انتهت محاضراته وانتشرت تلامذته تقف حركة المرور فلا ترى غير تموج العمائم البيض والسود. والعلامة الخراساني هو أبو الاحرار الايرانيين وأبو الدستور الايراني .

وكانت الحياة في هذه المدرسة طيبة لم ينغصها الا جار لنا من اهل بروجرد «الشيخ حسين» وكان فيلسوفا مختصا بتدريس الفلسفة النظرية وهو من اسرة ايرانية ثرية ولكنه غاية في الشح والامساك وكان قذرا كل اطرافه وسخ، ورداؤه مرقع كريش الهدهد وكان يدخن النارجيلة التي لا يجدد ماءها حتى ينتن ويزعج الطلاب فنشكوها الى خادم المدرسة ليقوم بتجديد مائها اما ذلك الفيلسوف فلا يأبه ، وكانت جرايته من أهله ثلاثين ليرة ذهبية شهريا. انه لمبلغ كبير في ذلك العهد وعندما يحضر احد مواطنيه للزيارة يحمل له

هدية نقدية كل ذلك وهو يلبس الخشن ويأكل الجشب يشح ويقتر حتى انه يطبخ القليل من اللحم مع الحمص فيجعل مائه لوجبة والحمص لوجبة واللحم لوجبة وكان يذهب الى حانوت الخباز ليلا فيشتري حثالة الدكان وكنا متضايقين منه كثيرا ويكتب الله لنا الخلاص فيمرض وهو جيفة ويموت وهو جيفة، وآخر ابتلائي به ان يأمر صاحب المدرسة الزعيم الخراساني ولده ويأمرني بجرد تركته وتصنيفها ، فادخل وابن الزعيم تلك «الحجرة» القذرة ونجد كنزا من الذهب والفضة فالليرات الذهبية طيات طيات بين اوراق الكتب او صفوف على الرفوف وفي مخزن الفحم خليط من المسكوكات وكانت له طراحة مفروشة على نضائد من النقود فكان للخلاص منه فرحة وفرحة ثانية هذه اللقى. وقام المجتهد بتوزيعها على كافة الطلاب والمحاويج في النجف . ويكون هذا التقسيم كما يسمونه في العام مرة او مرتين. وفي النجف توزيعة اخرى لكل ثلاثة اشهر تسمى تقسيم فلوس الهند او خيرية اوده وكانت حصتي منها نصف مجيدي شهريا وفلوس الهند هذه تحبيسة من احد راجات الهند ، راجة اوده، وسببها ان الانكليز كانوا في ضائقة مالية فعقدوا قرضا بفائض نسبي واشترى راجه اوده قسما من الاستدانة وبعد ان تحسن الوضع المالي عند الانكليز ارادوا اطفاء ذلك القرض ويقول الراجه لمستشاره المالي انه لا يريد ان يقبض المبلغ بل يتركه منحة حتى لا يتوهموا انه في حاجة اليه . وكان المستشار مؤتمنا فيحول فكرة ذلك السخيف الى فكرة أفيد واعود قائلا له :

يمكنك ان تشعرهم بعدم حاجتك وفي نفس الوقت تقوم بمبرة كبيرة، ان فائدة

القرض الرسمي تبلغ خمسة عشر الف روبية شهريا فاجعلها اثلاثا محبسة .. ثلث للصرف على مقبرة للعائلة ومن يلوذ بها وثلث على مجتهدي كربلاء وثلث على مجتهدي النجف يصرف شهريا باطلاع الحكومة الانكليزية بصفتها حكومة الهند. فيوافق الراجه وتحرر وثيقة بذلك واول عام وصلت فيه هذه المبرة الى النجف هو عام 1280 هجري وقد لعب الانكليز ادوارا للدعاوة والتدخل في كربلاء والنجف بواسطة هذه المبرة الجارية. انها حتى اليوم توزع ولكن بواسطة الحكومة الهندية لا الانكليزية. وكان في المدرسة طالب حبيب للنفوس ممتاز في السلوك دخل علي طالبا مني حلا لمشكلته وهي انه لا يستطيع النطق بالشين فهو ينطقها سينا فيقول في الاذان اسهد ان لا اله الا الله بدلا ان يقول أشهد فقلت له لا بأس عليك هكذا كان بلال وقد شكاه بعض الاصحاب الى النبي منكرين عليه هذا التحريف فرد عليهم النبي بقوله ان سين بلال شين عند الله .

وبينما الشيخ جذلان بمدرسته الجديدة اذ يروعه حادث قلب منهاج حياته وقطعه عن دراسته ومدرسته مؤقتا. اما تلك المفاجئة فهي موت اخيه الاكبر الذي كان عمود البيت والقوام عليه وكان في البيت أخ ثان متوسط في العمر بين الاخوين ولكنه ضعيف لا يقوم الاود على الرغم من انه كان وذراريه ثقل البيت. فيترك الشيخ المدرسة منتقلا الى ذلك البيت المحتاج الى انواع المؤونة وما يعمل هذا المعيل الجديد وهو حديث عهد بهذه التكاليف وكانت قد تجمعت لديه كتب نفيسة باعها مرغما بعشرين ليرة ذهبية وهو مبلغ يكفي لتموين بيت نجفي متوسط طيلة عام وكانت داره الموروثة

من أبيه خاوية وفي ليلة ذات اندية والشيخ يغط في نومه في الطابق الاعلى، اذ توقظه رجة حدثت في البيت وانتبه فرأى شطرا من داره قد انهدم واذا بالشيخ معلق وأهله يخافون عليه من سقوط الغرفة التي تحتويه ويوعز لهم ان ينضدوا ما عندهم من طراحات حتى يقفز على النضيد واصبح وهو حائر بهذا الصرف الجديد وطلب الى احد الفعلة من جيرانه ان يرتق الفتق بسرعة واقتصاد. ويغلق العامل باب الدار ويشتغل والشيخ يحثه على ان يصب العمل صبا واذا بالباب يقرع بعنف ولا يشكون انه مأمور القسم البلدي قد احس بكتمان العمل بدون اجازة وهي مخالفة قانونية فيخاف العامل ويختفي في زاوية قائلا للشيخ اعتذر اليه بعد ان تنقده درهمين. وكانت مصيبة الشيخ بالدرهمين اعظم من المصيبة بالمسؤولية ولكنه تحامل وفتح الباب ويفاجئه رجل من انضاد البلد واشرافها انه خازن المشهد العلوي وبعد تبادل التحية يدفع له برقية من متصرف لواء كربلاء تكلف الخازن ان يقصد الشيخ ويخبره ان زعيما من المنتفك وحاشيته ماية فارس يرغب ان يحل ضيفا عليه غدا برغم محاولة الحكومة القيام بضيافته ولكن الزعيم اصر على رأيه ، فالحكومة ترغب في اكرامه ويعرض الخازن على الشيخ استعداده للمعونة بالمال او بالرجال فيشكره الشيخ ولم يطلب الا رباطا للخيل لانه ليس لديه رباط فرس واحد فكيف بالماية ويرحب الخازن بالطلب ويقوم الشيخ بما يلزم من الاعداد . يعود الشيخ الى العامل وفي يده دراهم الرشوة الموهومة ويركس في التفكير ما هذه الصدف التي تنتقل به من مشكلة الليل الى مشكلة النهار وعلى كل لا بد من الاعداد والتهيؤ، وما غابت شمس

ذلك اليوم الا وقد هيأت داران وثالثة للطبخ. وكان الاقارب والجيران جمعية تعاونية متطوعة بانفسهم وبما يملكون من اثاث ورياش. وبقي ان يخرج الشيخ لاستقبال ضيفه وكانت بين النجف وكربلاء واسطة مريحة «عربة» ولكن الشيخ لم يجد فيها مكانا شاغرا برغم المبالغة في الاجرة وقدموا له جوادا الا انه لم يكن يحسن ركوب الخيل واستأجر حمارا مجللا بحشية ويركب الطريق في الغبش وبعد ان يقطع اكثر من نصف الطريق يسقط الحمار مائتا لا حراك فيه فيقف الشيخ في ذلك الدو حائرا يمد بصره ويمد عسى ان يلوح له شبح او شبه شبح وبينما هو كذلك اذ يطالعه حاطب يسوق حمارين يحملان الحطب فيلوح له ويقبل الحاطب فيسأله اين تريد ويجيبه النجف واني من سكنة المنزل الذي تقصده انت «خان النصف» فيقول الشيخ اني اشتري الحطب وهو لك هذه قيمة حمل واحد ولو كانت معي قيمة الحملين لدفعتها انزل حملا واعطني حامله وعند الوصول اتركه ليعرف اهله ويذهب، وغدا انت تعود على الحطب ويوافق الحاطب وتوجهت على بركة الله وعونه الى الوجه الذي اقصده، ولم اقطع شوطا الا وطلعت علي الخيل واسمع احدهم يقول من هذا المعمم في هذا الدو اهو طائر ابيض فيجيبه بعضهم كانه فلان وقد كان يعرفني وحالا يأمر عقيد الخيل بالاسراع الي ويقفون علي متعجبين ماذا جاء بك ومن اين أتيت بقيد الاوابد هيكل هذا فرويت اليهم ما حدث ويردفني احدهم وتوجهنا الى النجف التي ودعت الادارة النظامية آنذاك وعادت الى الادارة القبلية. على ان النجف لم تكن عريقة بالادارة النظامية وكل عهدها بها كان في اواسط القرن الثالث

عشر للهجرة او في اواخر عهد الانتقال من الوضع القبلي في العراق الى الوضع النظامي. لقد كان الوازع اولا زعيم القبيلة ثم صار الوازع الباشا والبيك والافندي ثم عاد الزعيم هو الوازع .

من القديم والنجف تدير نفسها بنفسها وذلك بواسطة زعيم يظهر فيها وربما لوح ابن بطوطه لذلك حيث يذكر النقيب وادارته ولم يذكر حكومة للنجف ولا محل حكومة وقبل بلوغه النجف ذكر صحبته للنجفيين ما بين حائل والنجف وذكر انهم اهل منعة وبسالة وفيهم الاستعداد لتأمين الطريق ولهم الخبرة بمسالك ذلك الطريق.

وفي القرن الحادي عشر للهجرة ظهرت بعض الزعامات في النجف فكانت زعامة آل الحداد وقد ذكرت الكتب اسم حسين وعباس من هذا البيت ثم زعامة آل الملا يوسف ثم زعامة آل السيد سلمان وهم بقية آل الحطاب من اشهر بويتات النجف منذ القرن الثاني عشر للهجرة .

وفي اثناءاقامة اولئك الضيوف ظهرت في النجف آثار مرض الهيضة وللنجفيين عادة انهم اذا فوجئوا بوافدة الهيضة او الطاعون يعقدون مجلسا للذكر والتعوذ على رؤوس الشوارع ليلا كانهم يريدون تعويذة شوارعهم الا يمر بها ذلك الوافد ومن عاداتهم انهم يقدمون في هذه المجالس قهوة خاصة وهي شراب (الدارصين) المسحوق زعما منهم انه المشروب النافع صحيا.

في تلك الظروف الطارئة وكم كنت حريصا على سلامة الضيوف ولكن ليس في النجف طب وقائي وكل ما هناك شبه طب علاجي والمتعاطون به يسمى احدهم الحكيم والملا والحلاق والفوال. فالملا يعالج بالحروز وأي

القرآن. واتفق اني حممت بالملاريا وانا صبي وكل علاجي كان قطعة من الخبز كتب عليها الملا بعض الذكر وامرني ان اكلها قبل كل طعام وشراب. والحلاق يداوي بالموسى والشراط والمبضع والكلابتين فهو يفصد ويحجم ويشرط ويقلع الاسنان ويضمد بالمرهم والمروخ والبلسم. اما الفوال فهو يداوي بالكشف عن الجن وطرد الشياطين ويأخذ الفال بحساب الجفر والرمل كما يسمونه وقد يداوي بقصبة مرضوضة يكتب عليها (الطلسم) بارقام وحروف مقطعة غير مفهومة وفي وسطها رقعة مكتوبة بالقلم العريض (يا شمعلوني اخرج اخرج) وتسمر هذه القصبة على جدار الغرفة التي فيها الشاكي وهذا العلاج يكون للصداع المزمن .

اما الحكيم فهو من درس صدرا من الطب اليوناني، وكم رأيت الحكيم النجفي جالسا في عيادته والمرضى من حوله اكداس ومنهم من يفترش التراب في الشارع اما من ثقل مرضه فيكون على حمار منتظرا موته او نوبته للكشف. وربما ترى الحكيم راكبا اتانه يطوف على بيوت المرضى، وبديع منظر جلوس الحكيم في عيادته انه يجلس على حشية صغيرة وامامه نضدات من قصاصات الورق ويراع ومحبرة وبيده مسبحة سوداء اما فحصه السريري فهو جس النبض والنظر الى اللسان ليعرف هل عليه غشاء من طبقة بيضاء يسميها (خلطا) وبعد ذلك يمسك على قبضة من خرز مسبحته فاذا كانت شفعا كان ما يريد وصفه غير صالح وان كانت وترا كان صالحا ويسمي هذه القبضة استخارة. وهذا الحكيم ليس له اختصاص بطب دون طب انه لجميع الامراض الداخلية وللحميات والاعصاب والجلد والقلب

والاعضاء التناسلية والصدر والعين والاذن والحنجرة والجراحات والكسور وسائر العمليات الجراحية وباختصار انه يميت ويعمي ويشوه. اما مدية ذلك الجراح فلسانه والمخدر والبسملة، وعلاجه الحشائش والنباتات والازهار اليابسة والزيوت المستخرجة من الخروع والخرد واللوز والبنفسج وحب القرع. ويداوي بالبذور مثل بذر الخيار والحشائش والبقلة الحمراء وقشور الصفصاف ويكتب وصفته على وريقة يتوجها بكلمة هو الشافي، ولهؤلاء الاطباء اغلاط فظيعة «غلط الطبيب اصابة الاقدار».

اتفق لي وانا خارج من سور النجف الى الوادي ان اشاهد رجلا غريبا يبسط ذراعيه لحمل جثة طفل مكفن وهو يذرف دموعا وخلفه امرأة تولول وتلطم وجهها سألت عنها فقيل لي انها امه والرجل ابوه وهما غريبان فبسطت ذراعي متناولا جثة الطفل وهي عادة نجفية يراد بها التأسي والمشاركة وبينما انا سائر تجاه المقبرة لاهدي لها هذا الميت الجديد شاهدت على غشاوة الطفل قليلا من البلل مما يلي الفم وشاهدت المنديل يتموج على الشفتين فقلت انها دلالة على التنفس وسألت ابويه من قال لكما ان الطفل مائت قالا الحكيم فقلت لعن الله هذا الحكيم وحكمته، وكان في النجف دكتور للطب لي به صلة فتحولت بالطفل من الذهاب الى المقبرة الى عيادة الدكتور وبعد فحص الجثة قال انه حي وذر في انفه نشوقا فتململ وعطس وطار ابواه فرحا وذهبا بطفليهما الى المهد لا الى اللحد .

وعندما جدد تبليط الصحن في النجف كشفت صخرة عن مائت وهو بهيئة الجالس القرفصاء ومشقوق الكفن وحواليه خدوش على جدران اللحد دلالة

على انه دفن وهو حي ولم يستطع الخلاص. ويوجد تفسير للقرآن المجيد يسمى «مجمع البيان» للشيخ ابي علي الطبرسي وهو من العلماء دفن على اثر سكتة قلبية وزعم طبيبه انه مات فيقبر ويتفق ان ينبش احد النابشين ذلك المحل حالا واذا بالمدفون حي ولما خرج وتماثل عمل شكرا لله تفسيرا للقرآن سماه مجمع البيان وقديما قيل ان غلط الاطباء يدفن في الارض وغلط القضاة يرفع الى السماء.

اما الصيدلي فهو صاحب حانوت قذر فيه صفائح التنك الصدي مملوئة بالحشائش وقشرة الصفصاف وورقه وجذوره وبعض النباتات مثل الكزبرة والخوبة وهي حبيبة حمراء دقيقة مثل البزرنجوش والاستاقدوس وكل هذه الاسماء اعجمية ودائما يكتب على الوصفة بلفظ فارسي "تخم كدو" اي حب القرع ومثل" كل سرخ" اي الورد الاحمر. وفي الحانوت قوارير لدهن الخروع ودهن اللوز ولعصير الليمون ومقطر الصفصاف ومقطر لسان الثور وماء القداح وماء الورد. اما ادوات ذلك الصيدلي فطاسة وكأس من التنك ومكيال للسوائل وترى المرضى اكواما على حانوته وهو يغرف لهذا دهن الخروع ولذلك مقطر الصفصاف بنفس الطاسة ويعطي لبعضهم كومة من النباتات والبذور والجذور ويذهب ذلك المسكين الى الموقد والمرجل ليغلي تلك الكومة ويصفيها بقطعة من الاسمال ويشرب ذلك المغلي والمصفى. ودواء المريض نوعان ليوم ويوم فمنضج في يوم ومسهل في يوم وقد يكون الدواء نقيعا وهو شيء من العناب والزبيب فينقع في المساء ويشرب في الصباح .

-21-

لقد دب الوعي وتطور الى نشاط هز المجتمع العراقي وتفتحت نوافذ للعيون. فنافذة من الجاليات التي كانت تنشر أنباء المتحفزين من ابنائها في اوطانها، ونافذة من الضباط والاداريين الاتراك واكثرهم من الاحرار الناقمين على الوضع وقد ابعدتهم السلطة الى العراق وغير العراق من الاقطار النائية فكان هؤلاء بمثابة دعاوة للافكار التحررية، ونافذة من العراقيين تلامذة اندية فروق ومدارسها وكان تنقلهم بالوظائف والمهام الرسمية في انحاء المملكة قد اكسبهم خبرة واطلاعا وكانت لهم صلة بالصحافة التركية والاوربية والمصرية والسورية تمدهم بالتصور والتطور .

لقد كانت هذه الانهار تصب في بحر النجف الناشف من الماء والمتدفق بالافكار على ان الحركة الفكرية عريقة في ذلك الوادي فكانت الاحرار تستقبل البضاعة وتنشرها .

وأول من اتذكر من النافخين ناجي السويدي الذي كان قائمقاما في النجف عام 1908 فقد كان في نهاره موظفا عثمانيا وفي ليله مؤلباً على العثمانيين. وكان يملي على من يعتمد عليه الاحتجاجات الشديدة ليوقعها مشاهير النجف ويقدمونها اليه ليرفعها بدوره الى المراجع وكثيرا ما كان يلقن الافكار المثيرة . ومن النافخين الاولين المبشرين من الاتحاديين مثل ثريا وحمدي وعزيز وبهيج وحمزه بك وجمال باشا لقد كانوا يصعدون المنابر

ويخطبون الجماهير بعثا وايقاضا يوزعون الحماس وينشرون التجدد ويستنبطون النبع وكم تعرفت على امثالهم بعضا معرفة رأي وبعضا معرفة صحبة.

واخيرا كان من النافخين ياسين الهاشمي لقد كان يؤلب على الوضع وهو متصرف لواء المنتفك . ولما كثر تألبيه حاول الانكليز اغتياله على يد بعض عملائهم هناك ولكنه انسل الى بغداد كما انهم سبق والقوا القبض عليه في سوريا الامر الذي احدث ضجة في تلك الانحاء انتهت باطلاق سراحه، ولما رجع الى العراق ثابر على الاثارة. ومنهم محمد رستم حيدر الوزير الخطير والدماغ المفكر وسلفه المرحوم فهمي المدرس. وكان مركز رستم في بلاط فيصل يعينه ويمكنه على البعث وتوجيه الشعب وقد كان اكثر حزما من سلفه وان اشتركا في الهدف وكان كثير التكتم وشديد التمسك بمبدئه وكان يستغل الفرص للتوجيه والتعبية ولكن بحذر وحيطة وكثيرا ما شعر الانكليز بذلك وحاولوا التطويح به وتحول دون ذلك ثقة فيصل برستم. وبعد موت فيصل زعزعوا مركز رستم واطاحوا به حتى اغتيل .

واول ما فتح الاكمام هو الانقلاب الدستوري في فروق وفي طهران. والنجف بمركزها الديني مدينة عالمية ترتبط بهاتين العاصمتين كل الارتباط فكانت تساهم الاحرار في اهدافهم وتكونت فيها كتل وزعماء كتل.

ففي العقد الاول من القرن العشرين شبت في ايران ثورة سياسية حصل فيها انقسام رهيب جر الى ويلات وكروب فكل صقع من ايران فيه معسكران «الشعب» «والحكومة». وكان الاحرار يقودون حزب الشعب ويسمى حزب

المشروطة لانه يريد الحكم مشروطا ومقيدا بدستور ومجلس شورى. ويقود حزب الدهماء رجال الحكومة والمتنفذون الذين يريدون ان يكون الحكم سلطة مطلقة ويسمى حزبهم حزب الاستبداد .

وبما ان قادة الرأي العام الايراني هم علماء النجف زحفت الحركة الى النجف وتسعرت مشبوبة بين المتنورين واكثرهم من المعممين الدارسين الذين يؤلفون حزب المشروطة وكانت زعامتهم معقودة للعلامة الملا كاظم الخراساني واخوانه العلامة الخليلي والشيخ عبدالله وبقية الاعلام. اما حزب الاستبداد ، فيتكون من الدهماء وزعامتهم معقودة للسيد كاظم الطباطبائي. وكان الثقل في هذا الحزب الذي يريد ابقاء القديم على قدمه لان السلطة عند هؤلاء مقدسة والسلطان ظل الله على الارض. وكان حزب المشروطة قلة لان النابهين قلائل. وكان العقال وهو يمثل الجمهرة يستريب من العمامة وهي تمثل الاقلية وكم من موقف احتك فيه هؤلاء بهؤلاء.

ففي امسية كنت جالسا في ناحية من المشهد المكتظ بالزوار والوفود المتزاحمين بالمناكب واذا بهاتف يهتف ان المشروطة قتلت السيد الزعيم فمالت العامة على الخاصة وزحف العقال على العمامة وما كان مني ومن رفيق لي الا الاختفاء حتى هدأت الثائرة برجوع الهاتف ينادي ان السيد لم يقتل وانه متجه الى مصلاه فتنفسنا الصعداء وخرجنا من المشهد انسلالا ولم تكن هذه الهزة الاخيرة بل اعقبتها هزات وهزات .

وكانت حكومة الاتحاديين تساند حزب المشروطة وكم هددت حزب الاستبداد وتمنت لو انها نالت سيدهم ولكنه كان متحصنا بالاكثرية المرهوبة ، فلم

تصله يد وكان التهديد ينوش اطرافه وحاشيته على ان حزب المشروطة ما هان ولا ضعف امام تلك الكثرة الكاثرة . فكان يعقد الاجتماعات ويطير البرقيات للبعث والانتفاضة تارة وللاحتجاجات اخرى وكانوا اذا بلغتهم الانباء السارة يعقدون انديتهم وتعلو منابرهم الخطباء والشعراء واذا ساءت الاخبار يقومون بالمظاهرات الصامتة واعظمها تعطيل حلقات الدرس والكف عن الصلاة جماعة وكانت لهم مجلتان فارسيتان وهي درة النجف وحبل المتين تنشر ارائهم وتدون خطبهم ومراسلاتهم وكلها باللغة الفارسية لا يستفيد منها هذا السجل وكانت لهم مطبعة تسمى مطبعة حبل المتين وكان للاتحاديين اندية تسمى «كلوب» كانت تبث وتنث بالفكرة وتشيع الروح روح الوثبة. ومما شجع على التجدد في النجف فتح المدرسة العلوية والمدرسة الرضوية واخيرا مدرسة الغري وقد كان لهذه المدارس اندية ادبية وسياسية ولبعضها مكتبة عامة ودار مطالعة وكان لهذا التأسيس اثره المشجع لنشر الاسلوب الجديد من الثقافة .

لقد كانت الزعزعة في طهران اكثر منها في الاستانة لان القوة والنظام مكنا الحكومة العثمانية من السيطرة فكانت الحركة محصورة في صفوف الجيش فقط وللجيش نظامه وتقاليده خلافا للوضع في ايران حيث النظام مشلول وكما كانت هناك زعامات قبلية وعبادة اشخاص متنفذين، كتل تعارض كتلا في اوساط لم يتمكن منها الوعي . وكانت انباء الاضطرابات التي تبلغنا عن ايران اهول وافجع حتى ان الاشعار الاول الذي وصل النجف عن الانقلاب في الاستانة لم يصدق مبدئيا لانا كنا نتوقعه لطهران ولما فزعنا الى شركة

الانباء «اجنص» وجدناها تفصح عن ثورة في الجيش العثماني. وكان العرش القاجاري لم يزل قائما غير انه لم يطل العهد حتى لحق باخيه .

أما الشعب والامانة تقتضيني ان لا افرط في النقل لاني اتحدث عمن درج واذكر من فرط، فقد كان في شبه غيبوبة ممتحنا بالامية ليس في مجموعه الا النزر اليسير من الرؤوس النيرة المنكمشة في بعض الزوايا وكان البصيص من نورها مكفوفا وراء جدارين جهل العامة وسيطرة الخاصة. المتحسس يجد نفسه في ردغة لا يأمن الزلق في اوحالها وكان ذلك الشف الرقيق من التستر لا يستطيع ان يخفي تلك الربوات الناشزة وتلك النتؤات في تلك الاوساط انها ستستر شيئا وتظهر اشياء والجمهور تتجاذبه خيوط دقيقة من الرجاء يمدها المخلصون وحبال غليظة من الضلال تلعب عليها الابالسة فهو مجذوب الى هؤلاء وهؤلاء، تنقصه القيادة الموجهة. لعمري لقد ذهبت تلك التضحية التي بذلها الشعب بسخاء.

وفي هذه الغمرة غرر بالشيخ خاله الطموح غرر به في احلام ذهبية مطوحا به الى كرمانشاه وكيلا عن الزعيم الخراساني على جمع غلال الاوقاف العامة هناك. والزعيم الخراساني آنذاك الآمر الناهي في ايران. لقد طوح به من دون تمهيد. حيث انتزعه في شبه ساعة من مدرسته وبلده في ظهيرة من ايام الصيف القائظ قائلا انك المظفر انك المعود على النجاحات وقد انتدبتك لغنيمة دسمة وكنز مهم خذ هذه ورقة ركوب العجلة التي ستقطع فيها اول مرحلة للطريق الذي يقطع في اربعة عشر يوما وهذه دراهم الرحلة اما الزاد فدجاجة مشوية ورغيفان .ولم يشعر الشيخ الا وهو مسحوب تجره العجلة

وبلغ كرمانشاه مقذوفا اليها قذفا وقد اكل الرحل الخشن لحم ساقيه ويبس ظهره من الاستواء على ذلك الرحل ونزل على إمام الجمعة وهو من انضاد البلد وامامها واهم اعماله ادارة الاوقاف العامة وهذا الامام يعيش ببذخ واسراف وهو اقطاعي بتمام معنى الاقطاع الجائر انه يمتلك الارض واهل الارض وما على الارض من منقول وغير منقول وله مجلس قضاء شهدت فيه اغرب حادث، امرأة يتنازع زواجها رجلان وعند استماع الافادات يأتي مباشر المحكمة ويقول للامام كانا اثنين وصاروا الان ثلاثة فقد رأيت في تلك الغرفة احد كتاب المحكمة يواقع هذه المرأة وما كان من الامام غير ان يبتسم .

ودعى هذا الامام ضيفه الشيخ الى منزله الريفي في قرية «المنظرية» قصر فخم به قصور متداخلة في دنيا خضراء زاهية بالزرع والورد والشجر المثمر المغدق قد ابدعت فيه البستنة أغرب ابداع فانت ترى انواع شجر الفاكهة الدانية القطوف قد صففت شوارع مستطيلة لكل نوع شارع تحنو الاغصان من جانبيه فتكون رواقا اخضرا زاهيا وهناك سوح كبيرة تزهو بانواع الورد المفوف الملون وأغرب ما شاهدت في تلك السوح الزاهية أتانا للامام ترعى الورد. وعند بهو القصر في تلك الجنة تشاهد بحيرة بلطت ووشحت بالمرمر الأزرق تسبح فيها الزوارق الصغيرة والسمك الملون ويعلو تلك البحيرة تاج من لؤلؤ تصعده الفوارات من حبات الماء الصافي ويغشى ذلك التاج غمام خفيف من رذاذ الماء المتصاعد. وبين البهو والبحيرة دكاك مستطيلة من المرمر الابيض عليها اصص الرياحين. وفي وهدة من الليل وانا بين اليقظة

والنوم على اريكة في وسط تلك الجنة اسمع من داخل القصر انين الناي ونغمات فتاة تهز القلوب هزا فبت ليلتي مرتاحا ومعذبا. ويرغب الامام بعد العودة من تلك النزهة ان نزور الحاكم العام وهو في ذلك العهد «نظام السلطنة» فزرناه ووجدناه محاطا بتماثيل وهياكل من الجلاوزة في اكبر مظاهر العنجهية والجبروت، انهم عبيد وسادة في وقت واحد جامدون متحركون وكأنهم خلقوا للقسوة وجمدوا على القسر يمشون ويقفون مشية ووقفة عسكرية بصفين مستطيلين قد علقوا سيوفهم في اوساطهم ورفعوا طراطيرهم المستطيلة على رؤوسهم ويعتمدون على عصى غليظة مقبقبة بالفضة والذهب واذا ساروا يتقدمهم جلواز يصيح بالناس انفروا ابتعدوا، حتى يخلو الطريق لذلك العبد المعبود الذي يملأ سرج جواد قيد الاوابد هيكل يعلك اللجام ويضرب الارض بحوافره. زار الشيخ ذلك الحاكم المحكوم بتقاليد الاكاسرة الاقدمين زاره في مقره الرسمي واذا به يخالسه النظر ويكاد لا يستقر شخص الشيخ في عيني الحاكم الذي كان يزلقه ببصره، ولما خرج الشيخ استبقى الحاكم الامام عنده ليقول له ان ضيفك «عربي» لا يلتزم باداب المقابلة فلم ينحن للتحية وقد رأيت أحد أزرار غلالته مفتوحا.

وبينما كان الشيخ منهمكا في جباية غلة الاوقاف وتحويلها بدرا بدرا الى النجف ، انتشر وباء الهيضة من كرمانشاه الى العراق فأسرع الشيخ بالعودة وكان في كل منزل يجتازه حجر صحي يمر عليه بالرشوة. ودنى الركب من مدينة قصر شيرين الواقعة على الحدود فلم يرغب الشيخ في دخول المدينة الموبوءة واقبل على طنب ممدود لحي كبير في ضاحية البلد، وسرعان ما

استقبلته فتاة رشيقة قد عطرت ولونت وبيدها مزهر وهي تتكلف أغنية عربية فملكتني الدهشة ولدى الاستيضاح اذا انا في حي من «الغجر» وانفر حالا الى المدينة ومنها الى «خانقين» ، وعلى ابواب خانقين يتشدد الموظفون خصوصا على غير العرب فيقف الشيخ اثناء الطريق ويتزيا بكوفية وعقال ويدلس على الطبيب الفاحص بمظهر كأنه مظهر «مكاري» في يده عصا وفي الاخرى حفنة «قسب» يلهمها فيعرض عنه الفاحص، وكان في الركب شيخ معمم ومعه زوجه وولداه احتج على الشيخ لطرحه العمامة المحترمة، ويرد عليه الشيخ البس لكل حالة لبوسها. وأدخل ذلك العجوز المعمم المصح ومعه زوجه وقد اجتمعت به في مدينة الكاظمية فكان كاسفاً مغتماً ولدى السؤال عن حاله يقول انه في شر حال لقد دخل المصح كما يطيب لهم ان يسموه وما هو الا بؤرة للوباء اختطفت فيه المنية زوجه وولديه فكان ينشج وينشد :

ها من أحس بطفلي اللذين هما كالدرتين تشظى عنهما الصدف

ها من أحس بطفي اللذين هما قلبي وروحي فقلبي اليوم مقتطف

وعند وصول الشيخ الى النجف لم تبق الرشوات من دراهمه غير ثلاثين ليرة ذهبية خبأها في هميان شده على بطنه خوفا من تفتيش الخال ،ولكن الخال عثر على الهميان فنكثه وابتز ما فيه وذهب بالذهب. الا أنه طبخ للشيخ جبة من الوبر «برد» فتبختر بها الشيخ مترنما بالبيت المعروف :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لي جبة وقميصا

إلا أن الخال لم يطبخ للشيخ قميصا بل جبة فقط .

استقبال الانكليز ووداعهم

لقد استقبلنا الانكليز بالرصاص وودعناهم بالرصاص وكان الوداع أحر من الاستقبال. أجل لقد كثر اللغط بتلك الحركة الدستورية التي زعزعت عرش آل عثمان وآل قاجار والتي قامت لها النجف وقعدت ثم تتابعت حوادث جسام مثل زحف الروس على بعض حدود ايران ومثل حرب طرابلس الغرب وحرب البلقان ومكدونيا وكانت حصيلة تلك الهزاهز والمزعجات اعلان الحرب العامة الاولى وعلى اثرها أعلن العثمانيون النفير العام تمهيدا للاشتراك في تلك الحرب الضروس . ويهتز العراق بالحادث الرهيب ويتشدد الاتحاديون بمضايقة العراقيين في شؤون التجنيد العام والتكاليف الحربية ، اما انا فحاولت التخلص من تلك المضايقة وكانت الشطرة حينذاك متمردة وشاغرة وهي مدينة معارفي وأهلي الاقربين ولكن طيلة حياتي كما كان ابي من قبلي لم نصل الشطرة بل كنا حلس النجف الا انني كنت مرتبطا بها اشد الارتباط فهي الوطن الاول وبلاد الاهل والعشيرة ، واتكاء على هذه الرابطة حررت الى نابه من ابنائها وهو صديقي المرحوم أبو علي كاظم شرحت له ان أنور باشا يريد ان يقدمني عربون صداقة للالمان وانا لا اوافق، ارسلوا لي خريتا قد خبر الجزيرة ومسالكها. و»الجزيرة» في عرف العراقيين الارض الخراب مما بين النهرين وتعمدت اختيار هذا المسلك لانه

اقصر وفيه التخلص من المرور بالقصبات التي تتعرض فيها الشرطة للمارة واخشى ان يمسكوني لاني من «البلط» وعلى الفور حضر الادلاء فتسللت من النجف عن ذلك الطريق.

وكانت حركتنا سرى اتقاء حرارة الشمس، ولما اردنا أن نجتاز ما بين قرية أم شواريف، والرميثة، قال لي الرفاق ان هذه المرحلة يكثر فهيا الذعار فخير لنا ان نقطعها نهارا والعين ترى العين ولو ان الشمس تلوح وجوهنا فوافقتهم . وبينما نحن نقطع ذلك القفر اذ تلوح لنا مزرعة حول قبة معقودة على قبر تحترمه المارة فقلت لصاحبي اطلب لنا من تلك الخضرة شيئا عسانا نطفئ به الاوار من قثاء او رقي فيرد علي انه يخشى ان يكون تحت القبة بعض الذعار الذين حاولنا التخلص منهم .انهم يكتنون في الظهيرة ويظهرون في ظلمة الليل، ان هذه القباب مكمن للخفافيش من الطيور ومن البشر، فقلت له ان هذه القباب يكون تحتها الصالحون فقال نعم وقد يكثر فيها الطالحون والدنيا خداع .

ولما دنونا من القبة هبت في وجوهنا جماعة مسلحة يريدون ان يسلبونا ويفر أحد أصحابي وهو مدجج بالسلاح أما الآخر فضربوه بآلة جارحة اسقطته الى الارض وتقدم احدهم ليسلبني فقلت على رسلك اني اقدم لك كل ما معي، وتقع عيناه على قرص من طين جاف كان بهيئة المسكوك فيقول اخرج هذا المسكوك اخرج هذا المجيدي قبل كل شيء . قلت انها تربة اصلي عليها انها قطعة من ارض كربلاء وتربة كربلاء افضل من كل تربة. واخرجتها فلما شاهدها خشع وتعوذ وتلوذ، فاردت ان استغل ذلك الشعور

البسيط فتناولت حجرا قال وماذا تريد بالحجر قلت اريد ان احطم هذه التربة التي لم تخلصني حرمتها منك فقبلها بحرارة وقال أنت وأصحابك في حل وعافية احتراما لهذه التربة وعاد صاحبي الذي فر فقلت له أرأيت سلاحي وهو من تراب كان أقوى من سلاحك وهو من حديد.

وفي اوائل تشرين الثاني عام 1914 نزل الانكليز الفاو ونشروا مع علم الاحتلال بيانا يبدي اسفهم على الاضطرار لاعلانهم الحرب على الحكومة العثمانية، يريدون بذلك الا يهلع الناس والتدليس على العامة والحقيقة ان نزولهم ما كان الا اهتبالا لفرصة الحرب العامة التي مكنتهم من نقل بغيتهم وامانيهم من دفاتر تجارهم وسجلات روادهم وأوراق دبلوماسييهم وقناصلهم الى حقائب العسكريين حتى يحققوا الرغبات. وجاء دور اعلان الجهاد على اولئك المتعدين فكثر الضجيج في النجف وتبادل الزعماء الرأي الا السيد الحبوبي الذي كان في صمت وتفكير، لقد تعددت الخطط والحبوبي في عزلته حتى اذا هدد الخليج الرافدين وقد صرخت قائلا :

ما بـال دجلة. والفرات ركدن في دنيا تـموج

هل تدري انهار العراق ببعض ما فعل الخليج

حقا لقد ذهل الناس وروعهم الحادث وعلتهم الخشعة لا لخور ولا لوجل ولكن حيرة وترددا، واذا بالحبوبي يكسر الصمت زائرا في الاجمة منتفضا من العرين، لقد طرح القلم وتناول السيف تاركا حلقة الدرس وندوة الادب متقدما صفوف المحاربين طافحا في الرعيل الاول، فكان العلم الاول للنجف ومن بعده تكاثرت الاعلام النجفية التي نشرت للدفاع عن العراق بميدانين احدهما

على حدود الاهوار والاخر وهو المهم ميدان الحبوبي على ابواب البصرة من جهة البادية تحت اثلات البرجسية حيث كانت مضارب ابن غزوان وحيث هبطت بنو شيبان. نزل الحبوبي مهابط السلف وهو عزم وتصميم بمبدأ صلب ونفس قوية. لقد ركب الفرات واذا بالعراق تهزه النخوة باموا ج ودفع .ونفرت النجف فنفر الفرات الذي انحدر فيه علم السيد حتى بلغ ناصرية المنتفك، وقد كنت كما اسفلت في الشطرة الثائرة وكانت فكرتي والعاملين من الرفاق الذين ذهبوا الى ربهم محمودي النقيبة فكرة وطنية وقضيتنا قضية عربية، لا نحمد للعثمانيين عهدا وكنا نعتقد ان ايامهم ولت وانهم اضاعونا اولا واخيرا فلا بد لنا من العمل بدقة وحذر حتى لا نكون قد تخلصنا من الافاعي ونمنا فوق العقارب اي لا نكون تخلصنا من الاتراك وتورطنا مع الانكليز فانا لا نريد هؤلاء ولا اولئك بل ننشد الحق السليب ونحاول بكل ما اوتينا ان نستفيد من الظروف فنتقدم بالقضية العربية الى الامام ولو بذراع واحد .

وبما اني كنت شغوفا بالسيد الحبوبي الذي كان من لداة والدي ومن صفه وصنفه كما تدل عليه كثير من الاثار الادبية التي كانا يشتركان فيها ومعهما العلامة المرحوم الشيخ محمد حسن آل كبة. توجهت الى الناصرية استقداءا بذلك العلم المرفوع .ولما مثلت بين يديه وجدته بعيدا عن السياسة ومحاولاتها. انه رجل دين ومروؤة لا يهتم الا بمقابلة الانكليز قبل كل شيء وبعد ذلك تنظر الامة في مستقبل امرها، وقد مضى رحمه الله على هذه العقيدة الصلبة حتى ساور الحرب، اما انا فلم ارد ازعاج ذلك الحبيب

المخلص لمبدئه فاستأذنته للعودة ولكنه رغب الى ان استنفر له مشايخ الغراف فاجبت رغبته وأحب ان يحرر معي كلمة بلاغ وحث فقلت انا كتابك الناطق فقال بلى ولكني اريد ان اساهم وبينما كان يملي واذا بدموعه الغالية تلمع دررها على كريمته كلما لفظ كلمة النخوة، فاكبرت المنظر الرهيب وخشعت نفسي واقسمت عليه ان يكفكف والا فاني انسحب من التطوع لاني لا استطيع ان ارى دمعة السيد فقال لك ما تريد وأنشد :

ملكت دموع العين ثم رددتها الى ناظري فالعين في القلب تدمع

وقمت بما ندبني اليه، وفي الطريق عرجت ومن معي على هراء «منثر» يقع على نهر الغراف الذي كان طاغيا وبتنا في ارض نز وطوف يهتز وحولنا حفر نتنة مملوءة بالماء الاخضر الفاسد وكانت السماء غائمة والليل من ليالي كانون والمطر ينهمر بغزارة ، فالتجأنا الى غرفة من طين خزنوا فيها صفائح الدهن الحيواني وصفوها لنا شبه أسرة وجللوها بفراش قذر وكانت زنخة الدهن تملأ المناخر، وصدفة ينطفئ السراج فتجول الجرذان التي حشرها المطر الى تلك الطينية كما حشرنا وأخذت تتقافز على اكتافنا فاهاجني الوضع وما فيه وحررت عنه الى السيد مداعبا :

لا ناي في ندوتي ولكن جميع جلاسها طبول

فكم ثقيل شكواي منه في الطول ميل في العرض ميل

جلله شحمه فقالوا اتاكم شيخا الجليل

قلنا وقد مط مشفريه اهكذا تنطق الطلول

دمدم محبنطئا ولكن باللغو لا تجمع الفلول

دحـروجـة مـا لـها قـياس قدضاع عرض لها وطول
في حجرة مثل جحر ضب غول الـليتالي بـها تــغـول
الفار تحت الشيوخ يخري والسقـف مـن فوقـهم يـبول
ذويت من فرط ما شجاني كـوردة نــاشــهــا الـذبـــول
انـتثرت سبحـتي شـتـاتـا وضـاع يـا سـيـدي الرعـيل
وكل مـا حـف بـي قبيح هـل فـي زوايــاكـم جـمـيل
اقـول آه وكــم حــديـث يـقـلـع صـدري ولا اقـــول

الى آخر هذه الدعابة وطويت الرسالة في ظرف كتبت عليه مثولا لدى سيدي السعيد وابردت الرسالة الى الناصرية فتوافي السيد وهو في مجلسه العام وكان الى جنبه معمم وبعد الاطلاع عليه يظهر الانبساط على السيد ويرغب ذلك المعمم ان يعرف النبأ فيقول له السيد اني ادفع اليك الظرف فاذا قرأته بصحة اطلعك على الكتاب، فيتناول الظرف ويحدق فاحصا ويستعين بعويناته ولكنه لم يتخلص من الحيرة فيقول السيد ان صاحب هذه الرسالة «اثول» ويضحك السيد قائلا له أنت الاثول انه مثول ولا مثول ولم يفهم المعمم فيشرح السيد له لغوية الكلمة .

-22-

سبق وذكرت ان العراقيين استقبلوا الانكليز بالرصاص وودعوهم بالرصاص وكان الوداع أحر من ذلك الاستقبال الفاتر الذي يشبه المظاهرة وحتى هذه المظاهرة الباهتة كان يصدها بغض العثمانيين في العراق ذلك البغض الذي كان منتشرا في المدن والقرى والدعاوة الانكليزية كانت تسجر نار هذه الكراهية وتنفخ في جمرها ، والوضعة في العراق مبعثرة فلا منهاج ولا هدف، وكان الواعون يرون من العبث هذا الرصاص وانه ملهاة يلهو بها الاتحاديون لاشغال مقدار من قوة عدوهم، فلم تدم تلك المظاهرة واحتل الانكليز العراق، وبعد ان فرغ العراقيون من الاتحاديين ذاقوا الانكليز فلم يستسيغوا طعمهم المر، وبدأ التحضير لرصاص الوداع، ثلاث سنين عجاف من عام 1917 حتى عام 1920 كانت مريرة ثقيلة وقد تعددت اسباب ذلك الثقل وتلك المرارة، واهمها ان العراقيين الذين كانوا يحلمون بالتخلص من سلطة اجنبية عتيقة بالية انتبهوا واذا هم ممتحنون بسلطة أجنبية جديدة أدهى وأمر من سابقتها، سلطة متغطرسة طموع . وربما كانت بين الاولى والعراقيين بعض الوشائج من صلة شرقية او رابطة دينية او علاقة جوار ولكن السلطة الجديدة لا يجذب العراقيين لها اي جاذب كل الخيوط مقطعة، على ان العثمانيين وخاصة في العراق كانوا ضعفاء لا هيبة لهم فلم يشعر العراقيون بسلطتهم، اما الانكليز الفاتحون فقد كان ظلهم ثقيلا لا يحتمل وقد

حشروا في الادارة العراقية الضباط الذين مارسوا الحرب التي عودتهم على الشراسة والقسوة وبمثل هذا المزاج جاءوا الى الادارة وشتان ما بين الموقفين واليك صورة من غطرسة الانكليز.

لقد كنا في اجتماع يضم علية من العراقيين للمفاوضة في اطلاق بعض المساجين السياسيين ، وخرجت اتجول في حديقة البيت الذي اجتمعنا فيه فجاء ضابط انكليزي قائلا انظر ذلك القسم الجميل من الورد قلت نعم ويوجد مثله في حدائق بعض الاشراف عندنا، وسرعان ما صدمني ذلك المتغطرس بقوله وهل يوجد عندكم اشراف، فاجبته مغضبا لا يعرف الفضل الا ذووه، الشريف يعرف ان في العراق اشراف يا هذا علام هذه الشتيمة . فسكت ولم يحر جوابا. ومن الوان تلك الغطرسة ما اتفق لي وانا في منزل من بيوت الكاظمية التي مررت بها في عهد الاحتلال وبينما انا اسمر مع بعض النزلاء هناك ولم أكن اعرفهم وقد كان حوار القوم الشتيمة المقذعة للحكومة العثمانية لانها جندت اولادهم واستباحت اموالهم تكاليف حربية فقلت لهم ما هكذا يكون التقريع فكل حكومة تدخل الحرب تستعين بشعبها في اموالهم ورجالهم ولكن الانتقاد انهم تركوا ثغورنا جلحاء، واكبر دليل على ذلك ان القائد العثماني في البصرة لم يكن له علم في زحف الجنرال الانكليزي «دلامين» على الفاو واحتلاله لنصف شط العرب حول عبادان وكل علم ذلك القائد العثماني كان من مرور الموظفين الفارين . كما انهم لم يعملوا على ثقافتنا وتدريبنا وكم طلبنا منهم ان يتركوا لنا الحكم الداخلي ويخففوا من مركزيتهم لان أهل مكة أدرى بشعابها ، وعسى ان يظهر فينا المدرب

للمهمات فابوا علينا ذلك احتكارا للسلطة . بهذا ومثله سمرت مع القوم ويتفق وجود جاسوس أمي بين القوم لا يفهم اهداف الكلام فينث بالخبر الى مركز الاستخبارات والمباحث وما اشعر الا والطلب علي في أماكن عديدة حتى وقف علي بعض الشرطة فاذهب معه الى انكليزي فظ شرس يسألني عن عملي ومن اين اتيت واين كنت البارحة .

وهنا احسست بما عنده ...

وبعد الاجابة قال لي انتم تقولون «كلم الناس على قدر عقولهم» وهؤلاء حمير فكيف تكلمهم بمثل هذا، قلت انهم بشر ولم اكلمهم بالغامض فقال وهل في العراق بشر ، قلت ليس للبشر علامة يفقدونها انهم مثلكم فلم هذا الشطط في القول . ويستمر بدمدمته قائلا اصبروا علينا سوف نعطيكم الاستقلال وناتيكم بملك من ابناء السلطان عبد الحميد فقلت ما فرحنا بابليس فكيف نفرح باولاده وان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى . وانصرفت عنه. هذه هي الغطرسة التي اضاعت على الانكليز الطاسة في العراق، لقد كرهم رجال الدين لانهم مغتصبون يحتلون بلادا اسلامية وهم لا يتصلون بالاسلام في سبب واغضبوا المدنيين لانهم وجدوا أمية الريف اقرب الى اهدافهم وحرموا على المثقفين حرية الاجتماعات وحرية ابداء الرأي وحرية الصحافة وازعجوا طبقة النبلاء بتقديم الطبقة غير النبيلة لانها تقوم لهم بما لا يقوم النبيل .

كل هذه الاسباب جعلت العراقيين يتنادون هات الحطب وهات الشيح وانفخى وانفخي يا ريح ، ولكن الثورة لم تكن ناضجة في كافة انحاء العراق انها كانت فائرة في ناحية وفاترة في اخرى وطابعها في المدن غير طابعها في

الريف وكانت عراقية بحتة في الداخل والخارج ففي الخارج عمل لها الضباط العراقيون الذين كانوا في الجيش العربي الزاحف على دمشق وقد تنوع عملهم فكان عسكريا وكان سياسيا .

وفي الداخل ساهمت المدن بغداد النجف كربلاء الموصل عقرا وساهمت عشائر الفرات الاعلى والاوسط والاسفل وشب اوارها في الرميثة والسماوة والرارنجية والوند وحول الناصرية وفي ديالى والكوفة. لقد عرفت ان بعض اسباب الثورة ثقل الانكليز على العراقيين ورغبة البعض منهم في تهنيد العراق او القسم الجنوبي منه وكان من الاسباب نزوع العراقيين الى الاستقلال والمطالبة الملحة به خصوصا بعد ان نشر الحلفاء ما يحفز من العهود والمواعيد المعسولة ، وما اوحت به ثورة الحجاز وثورة مصطفى باشا واستقلال سوريا ومبادئ الرئيس ولسن .

ومن اهم الاسباب المباشرة هي تلك التي اوجدها اولئك الاغراب عن الطبع العراقي وعدم تفهمهم له خصوصا بعد ان سافر «كوكس» ورفاقه الذين هم اكثر مرونة واستبدلوا بالمعاندين المعارضين لانشاء كيان عربي عراقي، فكان ان تشددوا في الحيف والجور الامر الذي انكره المرنون حتى من الانكليز انفسهم.

وكانت للثورة التي تمخض بها حزيران سنة 1920 اسباب عديدة بعضها عتيد وبعضها جديد ، فهي من الوجهة التاريخية عميقة الجذور تتصل بالارض وانواع التصرف بالارض فكم جر ذلك الى هزات وانتفاضات على الحكم وتتصل بالشؤون الاجتماعية من ميول و نزعات واتجاهات واستقرار

وعدم استقرار كما وتتصل بما تعاور على العراق من ادارات اجنبية واعراف وتقاليد لمشيخات قبلية وعقايد دينية هذي وغيرها تجمعت فكونت للعراقي خصوصيات لم تكن لغيره فهو ثائر راكد حذر فائر وغافل فاتر. أما ما جد من الاسباب في عهد الاحتلال وقد ذكرنا بعضها بالضغط السياسي والاضطراب الاقتصادي والصيحة الدينية وغير ذلك من ماجريات الحرب العامة الاولى وما كان في اثنائها من تحفيز بالبيانات والتصريحات من قريب وبعيد . هذه هي مواد الوقود للثورة المشبوبة سواء كانت عسكرية او سياسية او ادبية .

واليك بعض ما قامت به النجف تمهيدا للاشعال والتوريث :

اولا: انتفاضة الحاج نجم والبهاليل من شباب النجف .

ثانيا: السفارة بين النجف الاشرف ومكة المكرمة .

ثالثا: العمل على جلب الزعيم الكبير من سامراء.

رابعا: المؤتمر العام الذي عقد في النجف ليلة السابع والعشرين من رجب .

خامسا: المؤتمر الذي عقد في مركز الحاكم السياسي «نوربري» في النجف.

سادسا : مؤتمر نوربري الثاني .

سابعا: مؤتمر نوربري الثالث في الكوفة .

ثامنا: نهضة الشباب النجفي وصدى مظاهراته في العراق ذلك الشباب الواعي الذي واكب الثورة فكان وراء القادة في توقيع وتوزيع الرسائل واصدار البيانات وتحبير المذكرات ووضع الخطط فكان اكبر عون واقوى عضد. ان تلك الطبقة المتشربة بروح الثورة والانتفاض على الاحتلال قامت بانواع

الاعمال وفي مقدمتها اصدار الصحف المعبرة عن الاهداف والرغائب كما ستعرف ذلك في مواقعه من هذا الكتاب.

وكانت باكورة الأعمال ان تتحول المقاومة العلنية من بواسل النجفيين الى السرية فتشكلت جمعية من المغاوير اولئك البهاليل الذين عظم عليهم وطأ اقدام الانكليز تربة العراق فقرروا ان يفاجئوا المحتلين بضربة نجفية حتى تستغل قدسيته لاثارة العراقيين . وفي صبيحة يوم 19 آذار سنة 1918 تسللت جماعة منهم غير هيابة ولا وجلة تسللت الى مركز الحكومة في النجف المحروس بالهيبة والجند فاطلقت النار على الحاكم السياسي البريطاني «مارشال» الذي حسب انه في منعة فقتلوه واثنين آخرين، وكان بظهر الكوفة معسكر للانكليز فيخف القائد وكوكبة من جنوده وبعد التوافر على الحادث واسبابه تكشف للانكليز الواقع فاعلنوا الحصار على النجف وكانت مدته اثنين واربعين يوما حلؤنا عن الماء والزاد والنجف بلد صحراوي خلوي محروم من الماء.

لقد روعتنا هزاهز آذار ولم تغثنا امطاره فقد حبست السماء غيثها كأنها اعلنت الحصار علينا ايضا فكانت المحنة بالماء عظيمة وعظيمة جدا وكان النجفيون عندما تغشاهم غمامة ولو صغيرة نصبوا الحبائل والشراك لصيد حتى القطرة الواحدة، اما شباك ذلك الصيد فهي كل اواني البيت ولو كانت ملعقة صغيرة ولم يبق في البيت مكان مكشوف الا ووضعوا فيه انية . ترى تلك الاواني المبسوطة وكأنها أكف الابتهال للاستسقاء وبعد انقشاع الغمامة تراهم للمبالغة في الحرص على القطرة يعصرون الاواني عصرا فقد تكون

الحصيلة رشفة وقد تكون جرعة والماء بلية النجف من القديم واليك بعض التشبثات لسقي النجف قديما وحديثا.

كانت النجف والبحر من طرف والبر من طرف تتشبث للحصول على الماء السائغ للشرب فقد تجره من نهر الحيرة المسمى «بالكافر» وقد تشرب من نهر تفرع من الفرات جاء ذكره شعرا في معجم البلدان لياقوت وسماه الشاعر بالنهر »المليح» . وربما شربت من عين كانت حولها ولا ادري هل هي المسماة النبعية في عهدنا هذا او هي عين أم نخلة، ومن جراء ارتفاع النجف عن سطح الفرات شقت قنوات عديدة لسقي النجف منها قناة آل بويه وقد شق تاج الدولة في العهد الجلائري نهرا الى الكوفة ولم يستطع ايصاله الى النجف وجاء الجويني وشق نهرا وهذان النهران كانا يصلان الى النجف بواسطة قناة ثم جاء الشاه طهماسب وشق النهر المعروف «بالطهمازية» ثم جاء الشاه عباس وشق نهرا سمي بنهر الشاه وكان يوصل الماء بواسطة قناة ثم شق الشاه صفي نهرا اوصله الى موضع الخورنق وشرع له بركة واسعة نصبت عليها الدواليب لترفع الماء الى سواقي تجري الى النجف .

ثم جاء النواب الهندي فشق نهرا لسقي كربلاء والنجف ولكن ذلك النهر استوسع فحول مجرى الفرات العمود عن الحلة، وبرغم ذلك لم يرق النجف العالي وجرى من هناك بواسطة قناة كراها الشيخ محمد الحسين وسميت «كري الشيخ» وبعد ذلك كراها السيد أسد الله ومن بعده كراها التاجر الايراني المعروف «بالكروري» وفي العهد العثماني شق السلطان عبدالحميد اولا بواسطة عامله عبدالغني نهرا سمي ب «بدعة عبدالغني» وثانيا بواسطة

عامله حسن افندي وسمي هذا النهر الثاني ب «الحميدية» وفي عهد الحكم الوطني جاء فيصل الاول يريد مد النهر المعروف ب «جدول بني حسن» الى النجف ولكن اخترمه الاجل، وشق الامير غازي نهرا سمي ب «جدول غازي» ولما اخترعت آلة الضخ ورفع الماء حاول الخازن السيد جواد ايجاد مصنع مائي يجري من الكوفة الى النجف بواسطة انابيب ضخمة ، وقد احضرت تلك الانابيب ولكن بطل العمل باندلاع الحرب العامة الاولى وموت المؤسس السيد جواد.

ثم جاء الثري الايراني المعروف «معين التجار» فقام بالعمل ولكنه جاء ضعيف الجري غير كامل الاهبة . وفي وزارة نوري السعيد الاخيرة يقوم بزيارة النجف ويطلب شربة ماء فيؤتى له بقارورة فيها طين سائل ويقال له هذا ماء شرب النجف. وعند عودته الى بغداد عمل على ايجاد مصنع ماء كبير مصفاة كبيرة وقد كنت عضوا في تلك الوزارة ولي شرف المشاركة في الحث على سقي النجف. ويدخل علي في دائرتي وزير الداخلية ويقدم لي قارورة بيضاء قائلا هذه هدية لك من رئيس الوزراء. وقد حسبتها لشدة لمعة بياضها فارغة واذا بها مملوءة بالماء القراح المصفى وقال لي الوزير هذا هو ماء النجف لا ذلك الطين السائل الذي قدموه لرئيس الوزراء . ومن ذلك اليوم تشرب النجف الماء العذب النقي .

وقديما كان في كل بيت نجفي بئر مطوية يتفاوت عمقها بين الخمسين والسبعين ذراعا يمتح منها الماء غير السائغ للشرب.

لقد كابد الناس من الحصار الذي ضربه الانكليز ما كابدوا وتجلت القساوة

في عدة مواقف منها ان قائد الكوفة لما وقف على الدم الانكليزي المسفوح قال ان كل قطرة من هذا الدم الغالي تساوي اربعماية نجفي ومنها جواب القائد العام على برقية علماء النجف حينما ابرقوا قائلين ان النجف زاوية دينية لا ميدان حرب. اجابهم ان التصميم لهو تصميم بريطانيا وان قصاص البلدة لم يبتدئ بعد .ومنها انهم لم يرفعوا الحصار حتى ثأروا بالمشانق ونسف البيوت والمنافي وثقيل الغرامات .

اجل لقد تململ العراق فكانت احزاب وكانت اجتماعات تتبادل البث والتدبير. وبدأ المفكرون بتنظيم العمل وصبغوا السياسة بصبغة الدين لان العراق آنذاك يتأثر بالرابطة الدينية اكثر من اي رابطة ورأوا ان رجال الدين قد تمكنت منهم الحركة الفكرية والسياسية وعرفوا ما يقتضيهم من العمل، فقد مر عليك ان الانقلابات السياسية وشؤون الجهاد جعلت الزعماء الدينيين يمارسون الكثير من هذه الامور، وقد كان المرشح للزعامة آنذاك هو الشيخ محمد تقي الذي كان منكمشا في سامراء ، فعمل المشتغلون بالسياسة على الاتيان به الى كربلاء بلاد التضحية والجهاد والمطاف العراقي ومركز التجمعات في كثير من المناسبات .

ولما تم لهم ذلك تهافت الساعون الى كربلاء ينسلون من سائر الانحاء العراقية وقرروا تأسيس جمعية سياسية دينية يرأسها ذلك الزعيم وتنتشر فروعها في العراق وانصرف الجميع الى العمل مقررين ان يجتمع زعماء الريف وهم اهل السلاح وعليهم المعول في الملمات للحضور في النجف يوم السابع والعشرين من رجب وهو موسم ديني معروف تحج له الشيعة من

سائر الاطراف فالاجتماع فيه لا يثير ريبة الحكام من الانكليز.
قمنا بالدعوة وكانت حصتي الغراف وما حول الغراف وتوافد المدعوون من كل حدب وصوب ويتحسس الانكليز خصوصا الحاكم في النجف فيوعز الى حكام الاطراف ان يبرقوا الى رجال مناطقهم بالعودة حالا ونرد على هذا الكيد بان عرفنا الاصحاب ان يقولوا ان الموسم الديني لا تساعد تقاليدنا على تركه وسوف ينتهي الليلة وغدا نعود .
وفي تلك الليلة ينعقد الاجتماع ويتكلم المتكلمون باسطين اراءهم وكان التصميم على الوقوف في وجه الانكليز بان يحرجوهم ليخرجوهم، ولكن اختلف في الاسلوب، فرأي بغداد والموصل وتكريت القيام بالمظاهرات والاحتجاجات والاتصال بالعاملين في سوريا والحجاز، ورأي النجفيين وأهل كربلاء العصيان المدني لان الزعيم لا يوافق على العصيان المسلح في الوقت الحاضر ، ورأي الفراتيين الثورة المسلحة واشمام الانكليز رائحة البارود العراقي لان الانكليز لا يحسبون حسابا لغير السلاح كما ولا تحل مثل هذه العقد الا بالتضحية ، ورأي المنتفك والغراف بين بين انهم يريدون الاناة حتى تتم الضعضعة ويكمل الاستعداد لها فتفجر الثورة الحمراء، قائلين انا لا نحمد المغبة في اشهار السلاح حالا وبدون تمهيد، فان الدماء لما تجف بعد من تجربتنا بالامس. لقد وقفنا في وجه الانكليز الذين حاولوا الوصول الى اخوانهم المحاصرين في الكوت ومنعناهم وامتدت المقاومة الى اسوار الناصرية وقدمنا ما قدمنا من غالي التضحيات بجلد وصبر وذلك في موقعة «البطنجة» وفي موقعة باهيرة وموقعة تل الملح حتى استيلاء

الانكليز على بغداد ونحن ثابتون ولما تم الاستيلاء لعبت الشياطين لضرب الاخ بأخيه والعشيرة بعضها ببعض وتفاديا لذلك انكمش الرؤساء منا الى الارض الخراب «الجزيرة» ومن هناك اخذنا ندبر الامر ونقوم بالواجب والعودة الى مراكزنا وقدمنا الغرامات وقدم الشيخ خيون مثلا مائتي بندقية صالحة وعشرة الاف روبية ، فعندنا موقد الثورة من قبل ومن بعد اننا لم نحن ولم نجزع وما زال ذلك السلاح بايدينا اتركونا ندبر ونمهد.

وعلى ذكر موقعة البطنجة وهي مزرعة من مزارع آل أزريق أرغب أن اطرف القارئ بملحة، كانت عشيرة آل ازريق أي بني الأزرق في طليعة الواقفين في وجه الانكليز الزاحفين من الناصرية، وكان الشيخ رويضي بن بشارة من ابطال تلك العشيرة وكان لا يؤمن بوجود الطائرات ، وفي فجر يوم من ايام الحروب ورويضي نائم على سطح قلعته يهجم الانكليز وفي مقدمتهم طائرة تدوي في السماء فتثور حماسة رويضي ويرفع رأسه الى رب السماء وينفجر قائلا انت مستلق على عرشك في السموات وتريد من ابن بشارة ان يدافع عن سمائك وارضك. لا، انت تكفيني من حولك في السماء وانا اكفيك من حولي في الارض.

وبعد الاستماع الى كافة الاراء تتم الموافقة بالاجماع على القيام مبدئيا بما يشبه العصيان المدني وتنفيذا لذلك قرروا :

1. تأسيس جمعية باسم الجامعة الاسلامية مركزها كربلاء ولها فروع في كل العراق ويرأسها الزعيم محمد تقي .
2. توزيع منشور بتوقيع الزعيم يأمر بالوحدة وجمع الشمل والتساند في كل

المهام .

3. جعل يوم الجمعة يوم الشعب تعطل فيه المكاسب ويذرون البيع وتنتشر المنابر في السوح العامة وتتبارى الخطباء بما يستلزم الاثارة والتحضير .

وسرعان ما ابردت كتب الزعيم الى الاطراف لتنفيذ تلك المقررات ويجتمع فرع المتنفك في مدينة الشطرة ويرشح للرياسة الشيخ خيون العبيد استغلالا لمكانته التي لا يملكها احد من الحاضرين خصوصا وان المستقبل ينذر بالشرر ولا يعلم ماذا تتمخض به الحوادث .

بدأ العمل فكان يوم الجمعة يوما فائرا يعج بالمظاهرات والخطب والقصائد المثيرة ويتخوف الانكليز من المغبة وعندها لبسوا جلد النمر متشبثين بالقسوة والصلف وبلغت الصرامة الانكليزية المبلغ المزهق واندفع «انورولسن» الحاكم المدني العام واوجد نظاما ماليا رافقه الكثير من التعسف والعنف وراح رجال الحكومة يستخفون بزعماء العشائر ويغلظون لهم بالكلام .

-23-

وفي اثناء هذه الموجة العارمة يفاجئنا النبأ المزعج بان الانكليز قبضوا على ابن الزعيم الكبير وابعدوه عن العراق وصدرت الاوامر من المركز بالقيام بالمظاهرات السلمية لان الزعيم لا يوافق على اراقة الدماء في سبيل ولده ويتقدم كل بلد بالاحتجاج .

اما الشطرة فقد قامت بدعوة كافة زعماء العشائر وينعقد اجتماع مسلح في مسجد الجمعة وقد فاض الى خارج المسجد وهاجت الجماهير وتقدم زعماؤهم رافعين الاحتجاجات الشديدة لكن الانكليز استمروا بتوقيف وابعاد العاملين ، وحاولوا القبض على زعيم عشيرة الظوالم في الرميثة الشيخ شعلان ولكن افراد قبيلته هجموا على محل الحكومة بالرصاص وخلصوا زعيمهم ، فكانت رصاصات الرميثة انذارا بالثورة الحمراء التي لم يكن التمهيد لها كاملا . فكيف عملنا ونحن في غزية. لقد كانت المحنة في هذه المفاجأة اكبر محنة لان الامر في المنتفك غير محكم الحلقات فالزرد منتثر في وسط فائر بالحزازات وقد مزقته الحوادث. ان التدبير هنا صعب وصعب يحتاج الى زمن ولكن لا بد من المغامرة فالرفاق في الفرات يريدون حتى المستحيل لانهم ابتلوا بمالا طاقة لهم على بلائه، وجئت لزعيم الشطرة قائلا هذا يوم له ما بعده فلا بد من ان تسير انت ورفاقك مع القافلة بل لا بد وان

تتقدمها ليكون صوتك جرس القافلة. ان مصيرنا قمنا او قعدنا مرتبط بمصير اخواننا فلننشرها راية حمراء ولتكن النتيجة اما الى جنة اما الى نار، فقال نعم ولكن جاء أمرهم قبل ان نحزم امورنا، فقلت انك الان تجاه الواقع سواء كنت ملموما او مبعثرا استعجل قبل ان يضيق الحبل فيصعب بعد ذلك ارخاؤه، وكان التباطوء وعدم الاندفاع حالا سبب ما سبق ذكره من اراء زعماء المنتفك في المؤتمر الذي عقد في النجف قبل اندلاع الثورة من عدم الاستفادة بتوريث الثورة في المنتفك دون تمهيد واعداد ، وعلى كل فقد تحرك الدم ونبض العرق وتوفق العاملون لاخراج الحاكمين السياسيين من قصبتي قلعة سكر ومن الشطرة.

وبدأت الجموع تتدفق للحرب وامتدت مضارب المجاهدين ناشرة جناحا على مدينة الناصرية التي كانت آخر مقام للانكليز في بلاد المنتفك. وتحركت العشائر نافرة للكفاح ولكن الثورة في الفرات اخذت بالفتور والتقلص الا في الرميثة وبارك الله في الرميثة فما اشد مراسها وما امكثها على الحرب. لقد كانت تفعل وغيرها يقول . وقبل ان انهي هذا الحديث ارغب ان اطرف القارئ بما اتفق لنا في تلك الظروف، لقد كان بيننا وبين النجف واسطة ارتباط في ناصرية المنتفك وفي ذات يوم ارسلنا بريدنا مع رسول اعور فذهب وسلم البريد الى تلك الواسطة ولكن الاستخبارات الانكليزية علمت ان رسولا للثوار اعور دخل الناصرية فيغلق الانكليز ابواب سور الناصرية ويقبضون على كل اعور في المدينة وبعد تفتيشهم للعور لم يعثروا على شيء فاطلقوا من كان من أهل البلد واحتجزوا الغرباء.

وكان الانكليز آنذاك يتسخرون المساجين والمحتجزين للاعمال الترابية حول الجسر الجديد الذي عقدوه على نهر الناصرية وكان رسولنا مع المسخرين وفي غفلة الحارس يفر ولم يرجعه تعقيب الحارس باطلاق الرصاص ويجري صاحبنا في اتجاه قرية الخضر ، وبينما هو في طريقه واذا بطائرة تخطف وهي واطئة وشاهدها بعض العابرين فيطلقون عليها الرصاص ويسقطونها ويخرج منها ضابطان ويطلق اولئك العابرون النار عليهما فيقتلان ويجيء القاتلون ويسلبون القتيلين ويذهبون ادراجهم .

أما رفيقنا الاعور فيرغب بالوقوف على الطائرة ويجيء فيجد كيسا من جلد شد الى جانب الطائرة ويشق الكيس فيجد سبيكة صلبة ثقيلة وفوقها نضدات من الورق النقدي الهندي يظهر ان القتيلين كانا يريدان رميها على المحاصرين في السماوة ليكون صرفه عونا لهم،ويأخذ صاحبنا الغنيمة الباردة رزقا غير محتسب كما كان سجنه غير محتسب ولعل الصدف عملت لهذه النتيجة، وتعلن انباء رويتر ان طائرة متجهة الى المحاصرين في المعسكر بالسماوة في العراق اسقطت قريبا من أور وقتل القائد العسكري الذي كان فيها وبعد امد اصادف ذلك الرسول وقد تغيرت به الحال وآثار العافية تلمع على قسمات وجهه .

ومن ملح الصدف التي شاهدتها في تلك الظروف ان الحاكم الانكليزي الأول الذي هبط الى الشطرة في عهد الاحتلال كان يفتش عن دار كبيرة تسع لادارته ولاقامته فوجدها ولكن مهجورة . ولما سأل عن السبب قيل له انها مشؤومة تسكنها الشياطين فقال اني سوف اركز فيها العلم البريطاني

وهو يطرد الشياطين. فنزلها وركز العلم البريطاني ولكنه ما عتم ان افاق ذلك المتغطرس وصحي من سكرته ليجد احلامه تتلاشى والخطر يتهدده فيعتزم الفرار للنجاة واذا بذلك العلم الذي تطرد هيبته الشياطين مطرود من تلك الدار مزقا مزقا . وبعد ان ولى الحاكم بدأ الزحف واذا بالشطرة تموج بالسلاح وتفد عليها كتل العشائر تتخافق اعلامها ويتصاعد زجلها وفي هذه الململمة يكثر الموتورون ولا قوة ضابطة في البلد غير المجاملات فللحيطة قررنا ان يكون مقر الزعماءفي معزل عن المجرى العام . وتوجهنا في كوكبة من الخيل الى احدى مزارع الشطرة . وكنت على فرس جموح لا يكفكف بلجام وكنت ماسكا على الرسن وانا لا احسن الفروسية والخيل عارفة من فوق اظهرها، الامر الذي اقتضى ان ابتعد عن الرحل لان الفرس عندما تكون في مجموعة من الخيل يأخذها الزهو فلا تتزن مشيتها وهمزت الفرس فعدت وأثناء العدو تدخل في منخرها ذبابة فتنكث برأسها تخلصا من الذبابة فينقطع الرسن وتجن الفرس مندفعة بقوة فهي تمس الارض مسا باطراف الحوافر، وتنحرف في جريها عن الجادة الى حفر واكر وسواقي وانهار وفي هذا الحال تحلق فوق رؤوسنا طائرة معادية وتمطرنا برشاشاتها فتزداد الفرس جنة وأحدب على سرجها ماسكا بمعارفها وقد ذهبت ثيابي مع الريح اوزاعا ومزقت بعضها الحوافر، واقبلت المجنونة على نهر عريض فتجمعت لتقفزه وتجمعت انا لالقي بنفسي في النهر واذا بالخيل تتجمع علي لتنقذني من النهر وعندما وصلنا الى المحل الذي قصدناه جددت ثيابي. وفي الليل والخيل مربوطة باطناب البيوت والرفاق نيام وكل الى جنبه بندقيته

ويحضرون لي سريرا وعليه «كلة» اتقاء من البق وبعد اغفائة او تهويمة انتبهت على عالم مدهش وغاية في الفزع انتبهت والرصاص يتخطفني وانتبه النائمون وأخذوا يرمون رصاصهم ولا يعرفون من يرمون وقد جفلت الخيل وقطعت رباطها جائلة في الحي المرعوب وسائر الحيوانات تتثاغى والنساء تزغرد وتولول وللرجال هدير وزئير ،على مثل هذا انتبهت فوجدت نفسي الهدف الوحيد لان الرفاق لاصقون بالارض وانا معلق والكلة تدل علي الرماة وفورا القيت بنفسي على الارض وقلت أما أن أصاب بهذه الحركة أو أسلم، وبعد قليل يتراجع المهاجمون ويمر علي ذلك اليوم ليله ونهاره وانا انتقل من مزعج الى مزعج والحوادث تترادف علي وتتوافد .

-24-

احلام الريف

ان روحي تهزها الاريحيات اذا قيل ذاك كوخ وريف
ذكريات مرت لتلك المسيات وطيف حول الفرات يطوف

وقبل ان انتقل بالقارئ من ريف المنتفق الى النجف أولا والى الحجاز ثانيا اريد ان امتعه ببعض مزايا الريف الذي قضيت شطرا من حياتي بين ربوعه.

كان اتصالي بالريفيين اوائل الحرب العامة الاولى 1914 وبقيت اتردد عليهم كل عام مدة شهرين تقريبا وختم ذلك الاتصال بانتهاء الثورة العراقية عام 1920 وقد تعرفت على طيبات للريف الحبيب ارغب في تسجيلها حرصا عليها من الضياع خصوصا بعد ان اصبح الوضع في العراق غير الوضع .

اتراني بين القرى والضواحي طفت ظهرا وفي يدي مصباحي
ان تفتش عن ارتياح بلاد فتفقد شؤونها في الضواحي
واذا ارتاحت البلاد تبدت في قراها علائم الارتياح
ارهقت شدة المظالم جيلي اتراه جيلا من الاشباح
ما لهذا الفلاح في الارض روح أهو من معشر بلا ارواح
هو في جنة ينال عذابا وهو تحت الاشجار اجرد ضاح

وقرى النمل لهف نفسي أثرى مـن قـراه الا مـن الاتـراح
ان رغـت حـول بـيـته بـقرات جـاوبـتـهـا كـبـاشـه بـنطـاح
خص من نهره ومن شاطئيه بوبيل المرعى وبالضحضاح

***

رب قـصر من فـوق دجلـة كـالطـاووس لـلزهـو نـاشـر بـجنـاح
اتـراه مـدتـه دجـلـــة انـفـا حين فـاحت روائـح القـداح
نصبوه كمنبر من ورود والمراقي من سوسن واقاح
لو كشفنا اطباقه عن اساس لـوجـدنـاه مـنـجـل الـفـلاح

الريفيون يحسنون استقبال الوافد ويبالغون في احتشامه، فهم لا يشربون القهوة قبل الضيف ولا يمدون ايديهم الى الطعام قبل ان يمد يده وان كانت عندهم قهوة جاهزة واقبل ضيف محترم جددوها ولا يقدمون الجاهزة ، وان كان الطعام مصنوعا لضيف سابق صنعوا جديدا للمقبل ولا يطعمونه من الموجود، ولا بد من نحر شاة لضيافة المحتشم واذا تعددوا تعددت، واذا حضر ضيف بعد الظهر بقليل فلا يحييوه بتحية المساء كما هي العادة بل بتحية الصباح مخافة ان يشعر بفوات وجبة الغداء، وكثيرا ما تأخروا عن تناول الطعام في وقته حتى يلحق المتأخر من الضيوف، ولا يجلس أهل البيت ولا اهل الحي مع الضيف على المائدة الا الماثل منهم ويكون هذا لتقديم اطايب المائدة للضيف كما وانه يغذيه بلطيف الحديث، ولا يقدمون الطعام البارد مما فات وقت على صنعه، ويأنفون من تقديم البيض لانه طعام الضيوف من اليهود حيث يمتنعون عن أكل ما ذبحه المسلم.

واذا كان في المأكول انتقاء كحبات الرطب او العنب فلا يأكل الصغير مع الكبير مخافة ان يزاحمه على الحب الجيد، ولا بد وان يقوم المضيف المحترم بفرز طعام لطابخ القهوة ، والطعام الذي يخرج من البيت لا يعود اليه بل يدعى له اهل الحي حتى صغارهم .

ويبالغ الريفيون ببذل الطعام في المآتم حتى ان الاواني تضيق من احتوائه فيصبونه على الحصر ويضعون فوق الرز تلالا من اللحم.

والغريب عن الحي اذا تناول من طعامهم او شرابهم تكون له حقوق الاحترام والحماية ما دام في منطقة نفوذهم فاذا حصل عليه تجاوز طالبوا بحقوقه كما لو كان أحدهم. وتشيع في الريف السراية وهي ان يصحب احدهم من يخاف عليه من اجتياز الطريق وتكون تلك الصحبة حماية له في مسلكه ويعبر عن هذه الحماية بادق تعبير والطفه فهم يسمونها «الوجه» يريدون بذلك ان هذا المجتاز يحمل ماء وجوهنا وكرامتها .

أم ناصر

ومن أروع ما شاهدت من صور حقوق «الوجه» عند الريفيين حادثة «وجه ام ناصر». ففي عام 1915 والعراق فائر بالفوضى كنت منحدرا من السماوة الى المنتفك ولما بلغت منازل «عبس» وجدت القوم محتربين وعلى جانبي النهر جموع في حالة حرب، والرصاص يعبر من هنا وهناك فالسلامة للمجتاز غير مضمونة ، وحالا ملنا الى الجانب الايسر ونزلنا في

حي هناك وربطنا الزورق ولكني لم اجد في الحي رجلا قط لان الرجال نفروا للحرب وتوسمت البيوت فعرفت بيت النابه في ذلك الحي «ربعة» دخلتها فكانت فارغة وسمعت ولولة ونشيجا فهممت بالخروج ، واذا بصبي في سن العاشرة يلحق بي قائلا ليس لك ان تترك المحل بدون ان تأكل أو تشرب فشكرته واعتذرت ولكن جاءت عجوز فشددت علي النكير ولم أحر جوابا الا الامتثال بالعودة الى الربعة .

وسرعان ما حمل الصبي على رأسه طبقا للترويقة وهو يعتذر قائلا «هذه حاضرة العرب» والعجوز تجري وراء الصبي وتفديه، فقلت بارك الله فيكم لست في حاجة الى الطعام انا بحاجة الى من يجتاز بي هذا النهر المشبوب بالرصاص فقالت العجوز تناول شيئا وبعد ذلك يجتاز بك الطريق وتنحدر بسلامة فتناولت شيئا واذا بابريق القهوة بيد الصبي المرتعشة لانها لا تقوى على حمل ذلك الابريق والعجوز تدعو له قائلة :

بارك الله بك يا خليفة الماضين. وتناولت القهوة وعندما قالت العجوز تفضل اذا شئت حتى نوصلك بسلامة فقلت ومن يصحبني فانتحبت وقالت لا عليك ، وجريت معها ومع الصبي الى الزورق ولوحت العجوز بطرف عباءتها صائحة يا معشر عبس انا أم ناصر وهذا ولده نريد ان نجتاز بضيف ناصر الطريق فالوجه الوجه يا عبس عطلوا سلاحكم قليلا أريد ذلك من العدو والصديق.

فلم ينته الصوت حتى علت في الجو سحابة من كآبة موشحة باقواس ملونة من النخوة ومن الشمم ونكسوا السلاح الى الارض بخشوع وسكت ازيز

الرصاص وعلت الاصوات تفضلي تفضلي ومع بعض الاصوات نشيج وبكاء، فركبنا الزورق وانحدر بنا وانا مصقوع مما أرى واسمع. وبانكسار سألت العجوز عن جلية الامر فقالت ان ناصر ولدها الوحيد وهو فتى الحي قد قتل البارحة وهذه الحرب المشبوبة بين الواترين والموتورين وجئت أنت بيت ناصر فكان حقا علينا ان نحفظ ناصرا في حقوق بيته، وها انا وولده نوصلك بالسلامة كرامة لوجه ناصر وقد تركت مأتم المناحة لاقوم بالواجب.. فاكبرت تلك الشيم وخشعت لتلك التقاليد ولما اجتاز الزورق مواقع الخطر اوقفته وقدمت فروض الشكر وقبلت وجه الصبي ودعوت له بالمستقبل الحسن والحياة الكريمة.

ويتجلى التعاون في الريف باجلى مظاهره في اقامة المآتم، فالحي كله يشترك رجالا ونساء اما الجيران والمعارف فيقومون لاهل الفقيد بانواع المعونات. وفي العرس يجمعون المهر اذا اقتضى الامر ويقدمون الهدايا ، وفي الكوارث يشترك الجميع في الديات والغرامات يجمعونها بنظام خاص، وفي الغرق والحريق يقيمون الاود ويعوضون الخسارة فيقدمون العينيات والنقود والمواشي، وفي الحرث يقومون بالعون في البذار والحصاد ان احتاج الى ذلك وتكثر المظاهرات بالسلاح في الريف للعرس ولتشييع الجنازة ولاستقبال القادم وللعيد .

وان الفروسية شائعة في الريف ويكثرون من رباط الخيل ويختارون الاصيل النجيب ويحترمون الفارس اذا اقبل على المضيف فلا بد وان يستقبله أحد الافراد ويقبض على عنان الفرس حتى ينزل من سرج جواده ويتولى

المستقبل ربط الفرس . كما ويعلفونها ويسقونها كضيف محترم . وعندما يريد الفارس المبارحة يقبض أحد الافراد على الركاب حتى يستوي الفارس على السرج . ومن آداب الفارس المبادرة بالتحية . ولهم في الاعياد مواسم عامرة للسباق ويحرصون على ضبط انساب الخيل ومن اهتمامهم لهذه الجهة الحادث المعروف او الحديث المنقول «حديث الرزني» وهو ان بدويا كان يتعاطى جلب الخيل والجياد من جزيرة العرب وبيعها في ريف المنتفك واتفق له ان باع فرسا على زعيم من زعماء خفاجة ، ولما سئل المشتري عن نسب فرسه الجديدة قال ان الرزني يقول انها كروش. وتبلغ الرزني مقالة الخفاجي وقد كان في حي من احياء شمر والوقت صيف قائض لا يساعد على السفر من جزيرة العرب الى العراق ولكن الرزني لا يصبر على الادعاء المنسوب اليه الذي يعتبره ماسا بنسب الخيل فيتجه الى العراق.

ويقبل على خفاجه ولما سئل عما حمله على تجشم السفر في هذا الوقت اجاب وهو محنق «حملني زعم فلان ولم تحملني ناقتي. يا خفاجه لم اجيء الا لرد الزعم، ان فلانا يدعي باني قلت له ان الفرس من سلسلة «كروش» لا لا لم أقل ذلك قط وانما قلت ان أبناء شمر غزوا حيا من احياء عنزة وتبادل فارسان الطعن وضرب السيف فخر احدهما صريعا وقال لقاتله لقد ظفرت بفرسي وهي كروش. هذا ما قلت "..

ثم نهض الرزني وهو مغضب راجعا من حيث أتى.

والريفيون يفشون التحية ولها عندهم اداب فالراكب يسلم على الراجل والعابر يسلم على الجالس والفئة القليلة تسلم على الكثيرة والصغير يسلم على الكبير

ويكفي عندهم ان يوجه التحية واحد من الجماعة كما يكفي في جوابها. وقد يضع البادي بالتحية او المجيب لها يده على صدره مبالغة في الاحترام ويقل في الريف تقبيل اليد عند التحية وقد يقبلون الكم من ملابس الرجل العظيم و يقبلون رأس المرأة المحترمة وهو مغطى ويعتبرون ذلك تحية .وقد يتبادلون التحية بالمصافحة والعناق والقبل وتحايا النساء بعضهن بعضا بالقبلات . وللريفين تحايا من نوع الدعاء في الصباح والمساء وهم يشمتون العاطس . والريفيون يهتمون للحرب ولوازم الحرب ولهم فيها اداب خاصة ، ولا يوجد فرد منهم غير مسلح ومن لم يستطع شراء السلاح يقوم الزعيم بتسليحه، والبلاغ الحربي عندهم نشر علم القبيلة على بيت الزعيم وهو بيت العشيرة كلها وعندما يشاهدون ذلك المنشور ينفرون الى بيت الزعيم خفاف وثقالا مدججين بالسلاح مرتلين اهازيج الحرب منتظرين ساعة الصفر. ولكل عشيرة نعار خاص يهتز لسماعه كل افرادهم ويسمون النعار «نخوة» . ومن عاداتهم الحربية نصب بيت او بيوت للحرب يسمونها «كناغات» تكون محلا للاجتماع الحربي واليها ينقلون الجرحى والقتلى . ومن ادابهم الحربية انهم اذا اتفق وجود احد افراد القبيلتين المتحاربتين عند الطرف الاخر فلا يمسونه بسوء، واذا طلب ايصاله الى قومه اوصلوه بسلام واحترام حتى اذا وصل قومه انقلب محاربا . ومن ادابهم الحربية تسليم الجرحى ولو لم تضع الحرب اوزارها ، ومن ادابهم المتاركة ويسمونها عطوة حتى يتمكنوا من نقل المصابين كما انهم يقبلون المفاوضة اثناء الحرب، واعظم مظاهر الريفيين الصبر والجلد وضبط الاعصاب فكثيرا ما ترى

المغيظ المحنق يجالس غريمه بكل برود ويتبادل معه النكات ولو كان قاتل اخيه وهو يريد ان يقتله ولكنهما يتنادمان والغيظ المكتوم يحز في العروق ، ولا يمكنك ابدا ان تقرأ على وجه الريفي الماكر شيئا مما ينوي. وقد سمعت قصصا غريبا عن ضبط الاعصاب والجلد عندهم، يقال ان حربا ضروسا وقعت بين آل سعدون وخزاعة انتصرت فيها خزاعة ويقتل زعيم آل سعدون الشيخ ثامر وللنكاية تقسو خزاعة وتضع رأس ثامر على خوان الرز كما يضعون رأس الشاه، ويقدمون ذلك الخوان الى ولده الاسير الشيخ حمود فيتقدم ويتناول الطعام من تحت رأس ابيه ممزوجا بالدم بكل هدوء ورباطة جأش الامر الذي ادهش خزاعة وجعلهم يخافون مغبة امر هذا المتجلد ولولا حقوق للاسير لقتلوه حتى يسلموا من شره المقبل.

وتشيع في الاحياءالريفية المساواة فلا طبقية في تلك الاحياء ، فرد كفء للاخر ويساويه، حتى الزعيم لا يكون اسمى من غيره وان كان ذا مال او جاه، وكل فرد له مثل الذي عليه وهو والزعيم سواءبسواءفيما يدفع من الدية وما يقبض، اما المنزلة النسبية فواحدة، وكل فرد مسؤول عن اي اعتداء يقع من اي فرد من افراد العشيرة ، فالعشيرة وحدة لا تتجزأ كما انها بكافة افرادها تتمتع بكافة الحقوق ولا تفاضل بين الافراد .

هذا هو شأنها بالنسبة لافرادها اما بالنسبة لغيرها من العشائر فالامتيازات بينهم معنوية والتفاضل بالانساب والاحساب، انهم يقولون فلان «ابن حموله» و «ابن اجاويد» كما انهم يقولون لذي الاعمال الطيبة "خيّر" ، ولا اعتبار عندهم للمادة والماديات انما يتسامون بالطيبات ولو كان اهلها فقراء،

وينظرون الى الغني بعين خوصاءويكادون يزلقونه بابصارهم، واظهر ما في الريف «النخوة» تراهم ينفرون لمجرد سماع زغردة او هتاف هاتف بدون سؤال عن الحادث وسببه .

وبالنخوة يعين بعضهم البعض ويدافعون عنه ولو جر الى التضحية وكثيرا ما ساوروا الحرب وتحملوا الغرامات والديات لمجرد النخوة .

في ليلة من ليالي الشتاء القارص، والغراف طاغ وقد سدت افواه الانهار الآخذة منه خوفا من الغرق، ويضغط الطاغي على نهر مسدود فيتداعى السد ويندفع الماء على المزرعة واذا بهاتف يهتف بالنخوة فنفر الحي باسره الرجال ينزلون الى النهر ويصطفون باجسادهم العارية بحيث يلتف عضد بعضد ويشد زند زندا وتتلاصق المناكب بالمناكب فكانوا جدارا بشريا كوّن سدا من لحم وعصب، والنساء يهدمن الخصاص والاكواخ ويركضن بالانقاض وحزمات من القصب المسفوف وغير المسفوف وباقات من الشوك وباخشاب السقوف ويلقينه في النهر مع الردم والهدم من التراب والحجارة فيدفعه الجاري الى ذلك الجدار البشري ويتراكم صاعدا الى صدور الرجال ويترسخ سدا منيعا في وجه الطاغي ، وبعد ذلك يخرجون من الماء وقد امنوا الغائلة . ان المرؤات متوافرة في الريف، ولكل قبيلة ريفية حق السراية فهي تحمي كل مستطرق يريد الحماية لنفسه ولماله تحميه في مناطقها ومناطق حلفائها. كما انها تحمي اللاجئ وتكرمه وتحافظ عليه وترد عنه العادية ويسمونه «قصير» وتحتمل الاوزار الثقيلة بسبب ذلك اللاجئ.

نزل لاجئ على زعيم آل ظفير في بادية العراق فاكرم وفادته وفي ذات يوم

يصبح اللاجئ راحلا بدون وداع فعجب الزعيم واهتم لهذه المفاجأة ، ويقول لقومه من يقص لنا اثر الضيف ويتقصى لنا اخباره فيذهبون ويقتصون اثاره، ويجيء احدهم بكور غزل كبير قائلا لم اجد غير هذا الكور ، ولما فحصوه وجدوه مطويا على رأس بنت اللاجئ فيحار الزعيم، ولكن يهمس في اذنه احد الجالسين قائلا ان لاحد ابناء الزعيم علاقة غرامية مع هذه البنت، وينهض الزعيم الى بيته الخاص داعيا اولاده واخوانه ويجرد سيفه ويعرضه على عكان بطنه ويقول هيا تخيروا بين حياتي وحياة صبيح وهو ابنه المتهم فاما ان تقطعوا رأسه أو ان اغمد السيف في بطني اسرعوا فان الامر جد وما اتم خطابه حتى طاح رأس الولد العزيز ، فاخذ الزعيم الكور ونزعه من رأس الفتاة ولفه على رأس الفتى وقال اسرعوا بايصاله الى الرجل وقولوا له لعلك نسيت هذا الكور ، ثم قام الزعيم بدفن ولده ، ولما لحقوا باللاجئ عرفوه بالامر ودفعوا له الكور فعاد معتذرا وشاكرا وجددوا اكرامه وبالغوا.

وفي كل قبيلة منزل لضيافة يسمونه «المضيف» وهو بيت كبير من قصب او من شعر او لبن او طاباق يكون محلا للضيافة او «ربعة» وهي بيت اصغر من المضيف .

عرشوها على الخمائل باهت كوة القصر زاهيات الرباع
ناوحتها الرياح وانعطف النهر عليها وابهجتها المراعي
نشر البدر فوقها شبك النور فلاحت كقبة من شعاع
شامخات القصور فاتك منها عينة اللطف حشمة في الطباع

والمضيف يكون محل الزعيم العام والربعة محل النابه من العشيرة ، وتطور

المضيف فاصبح المركز المهم له ادابه وحقوقه واحترامه بل وقداسته ، فهو الندوة للاجتماع المهم وهو المؤتمر للشؤون الحربية والاقتصادية وهو المحكمة للقضاءالعشائري . وان النظام القضائي في الريف او كما نسميه قانون العشائر قديم وقديم جدا يتكون من مجموعة اعراف وتقاليد يسمونها سواني مفردها سانية اي قاعدة يرجع اليها . والسانية لغة هي الساقية ويسمون الحكم الحاسم مخلص بفتح الميم واللازم أي أنه أنهى الأمر وخلصه .

وقاضي الريف لا يرجع الى كتاب مدون بل سند حكمه ما تجمع لديه من وقائع وتجارب، ولا يستند الى قوة او حكومة تحتم نفاذ حكمه بل كل قوة حكمه منتزعة من الاحترام والغضب الاجماعي على من لم ينفذه.

ويكاد الريف العراقي ان يكون حكومة في حكومة له قوانيه ونظامه التقليدي. والريفي اكثر وطنية دائما يعمل على الاكتفاء الذاتي وانه ليس بعالة على الاستيراد الاجنبي الا في القليل من الضروريات .

واكثر قبائل الريف العراقي عربية تحافظ على نبزها مثل خفاجة وزبيد وربيعة وغيرهم وبعضها يعرف باسماء اباء اشتهروا اخيرا في المواقف فصاروا عنوانا جديدا للعشيرة .

وتوجد في الريف قلة ليسوا بعرب مثل المعدان جمع معد تصغيره معيدي ومنه المثل السائر «تسمع بالمعيدي خير من ان تراه» وقيل ان هذا المثل ضربه النعمان بن المنذر في رجل معيدي شجاع كان يغير على اموال النعمان فاحب النعمان ان يراه تقديرا لبطولته فاستقدمه ببذل وأمان ولما رآه

استزراه فقال تسمع بالمعيدي خير من ان تراه .

والريفيون يعتقدون ان المعدان ليسوا بعرب ولذلك لا يحترمونهم، ويعتقدون انهم من ارساس كانت موجودة في العراق قبل الفتح كالنبط مثلا . والمعدان يختصون بتربية الجاموس ويسكنون الاهوار وهم يستعملون لفظ الجاموس بالمفرد ويجمعونه على لفظ «داب» وقد ذكر البلاذري في فترح البلدان ان الجاموس عرف بالعراق في العهد الاموي وفي ولاية الحجاج وذلك حينما اقتحم محمد بن القاسم بلاد الهند والسند، فجلب الحجاج قوما من هناك ومعهم جواميسهم واسكنهم البطيحة. ولعل كثيرا من المعدان هم بقية اولئك الذين جلبهم الحجاج .

ويقال في سبب جلبهم ان الناس في البطائح شكوا الى الحجاج عبث السباع وكثرتها في الاجمات، وبلغه ان في الهند حيوانا يصارع السباع يسمى الجاموس فكتب الى محمد ابن القاسم ان يرسل اليه بجملة من ذلك الحيوان الرهيب .

بكر الموكب للريف وسرنا في الركاب
ورعاة الحي في الوادي تـغـنـي بـربـــاب
والقباب البيض قد حفت بها خضر الروابي
وفم الوادي يمج الشمس ســـــالـت بلـعاب
وطيور الروض غنت بـتـرانـيم عـذاب
وزهى الزرع فـغطـى زهوه كل الهضاب
فاصطبحنا واغتبقنا بـغـنـاء وشـــراب

والقناني تـفتدينا بـرؤوس ورقـــاب
يا نـقـاطـا فـرقـت بين شراب وسراب
كم سؤال ظل في نـفـسـي مـن دون جـواب
ليس هذا الدرب دربي ولا ذا الباب بابي
قل لاشباح تراقصن بدنيا من ضباب
علمينا كيف عمران يرجى من خراب

والرجل الريفي رقيق الدين فهو يستبيح كثيرا من المحرمات ويتسامح في بعض الواجبات . والنساء في الريف اكثر نشاطا من نساء المدينة وهن اكثر احتراما للزوج واقل كلفة عليه، وهن بعيدات عن البطر والدلال. انهن ربات بيوت بكل معنى الكلمة، والسفور شايع بينهن ولهن لباقة ولياقة وترى الواحدة منهن سيدة وجارية في بيتها، يتعهدن البيت والزوج والطفل من دون اتكال على الغير وهن اكثر خضوعا من الحضريات ولكن بدون حطة، ويجاملن الى اقصى حدود المجاملة ولكن بادب واحتشام ، ويتبادلن الحوار برقة ووقار وهن اكثر بشاشة ولا يستسلمن للضحك انما هي ابتسامة وديعة.

وفي ليلة من ليالي الريف الصيفية نظرت وانا على سطح دويرة الى نار تشب من اقصى الريف الى اقصاه واستطلعت الخبر ، فقيل لي توجد في العراق وافدة وباء وان الاحياء الريفية اذا احست بوباء توقد النار امام بيوتها وعندما تشاهد الاحياء الاخرى تشب النار هي بدورها حتى يشب الريف كله.

وقد ذكرني هذا الاعلان بتلك العادة العسكرية القديمة، لقد كان المعسكر

الذي في الحدود يجعل بينه وبين المقر العام روابي متقاربة فاذا داهمهم العدو وارادوا المدد والنجدة اوقدوا النار على الرابية القريبة وهكذا تفعل الروابي الاخرى حتى يتصل الاعلان من الروابي الى المقر العام .

واليوم توجد بين واسط والاهوار رواب يسمونها «المداخن» ويظهر انها كانت لهذا الغرض يوم كان المعسكر العربي في الاهواز والمقر العام في واسط .

-25-

معاكسة الايام للاحلام

وبعد ان خنقت الثورة رجعت من الريف وقبلت يد الوالدة التي روعتها الحوادث ورغبت ان اعوضها عن ذلك الاذى فقالت العوض في زواجك فقلت لها الوضع غير مريح وان الانكليز لا يتركونا بعد ان خنقت الثورة، وعسى ان يكون للعاملين بعض الامل في الحجاز وقد عزمت على اللحاق بالرفاق فهل اكون بخدمتك الى مكة المكرمة وسوف نمكث في الحجاز حتى الموسم فيطول طوافك في الحرمين، وبعد الاستقرار نبت في امر الزواج. ولكن الام الحنون أبت ان تتراجع عن بغيتها برغم رغبتها في ان تصبح الحاجة ، فالحت علي ان انجز لها فرحة العمر وطلبت مني ان احقق لها أغلى الامال التي كانت تغازلها من اليوم الاول الذي استهل فيه الوليد وبشرتها القوابل قائلات لها «يوم عرسه» . وبهذه الاغنية كانت تناغيه في مهده وتزغرد لهذا الحلم كلما تخطى عاما من عمره السعيد وازداد شمعة حساب ميلاده الذي كانت تعده شمعة شمعة، تلك الشموع التي كانت تسرح مبهمات الامال وتنور طرق الرغبات، ولم تزل الحنون حالمة، ها قد احتفل بشبابه المبارك ها قد أصبح ربا للبيت ها قد أمرعت شجرته زاهية قطوفها ها قد مشت العروس تتهادى الى عشها الذهبي، وبينما هذه الوالدة البارة تصوغ

سلسلة هذه الاحلام قلادة لجيد المستقبل وتشد باقات الورد لذلك الحفل المبارك البهيج وتناجي ربها في المحراب متوسلة اليه ان يقرب ذلك اليوم فتطرق اذنيها دقات تلك الساعة .

اجل بينما هي زاهية وناشرة جناحي السرور، تروعها الطوارئ وتعصر قلبها الخشية على عزيزها الذي توسط المعمعة واندفع الى الصيال والنضال بعدا بعدا. ان الام الولهى التي اصبحت تتسقط اخباره، فهي تارة تقنط وتارة ترجو ينعشها الامل ويذويها النبأ المزعج، اجل بينما هي في المعصرة تحبس انفاسها وتعد دقات قلبها المضطرب ، واذا بالحبيب طالع عليها وقد نفض غبار المعركة وردته الايام الى أمه ومناها بما يملأ قلبها مسرة، وما تلك المسرة غير موافقته على بغيتها العظمى التي يتردد نشيدها دائما: عرسك ايها الغالي قبل كل شيء، على رغم ما كان فيه من صدوف وفتور لانه كان عازفا عن الاقتران متهيبا مما يجره ويعقب. وكفى بما تعانيه هذه الام الرؤوم كفى عضة واعتبارا انها في سبيل ولدها ومن اجله تتحول دائما من المقلاة الى النار، فلا بد لا بد من النزول على رغبتها . ان قلبها الجريح لا يداويه الا هذا البلسم وذلك الكبت لا يقابل الا بهذه الافراح . ما اجمل الابتسامة المملوءة بالرفق والاحترام للسيدة الوالدة حين طفحت شفتا ولدها بكلمة الموافقة وتفتحت كما يتفتح البرعم عن الوردة، ولا تسل عن تلك الام البارة كيف صارت وكيف طارت عندما دغدغت اذنيها الكلمة السارة، فجرت بسرعة الي الحبايب اللاتي هرعن معها يفتشن عن سراج البيت الجديد ووردة الحديقة وأم الحفيد. وبعد ان وجدت ذلك الملاك وتقابل الأهلان وتبادلت

الزغاريد وانحنت القدود على القدود واطبقت الشفاه على الشفاه وانطبعت القبلات، وتراقصت بيوت الحارة وفرح الجار ولمعت الافراح اطراف ذلك البيت الذي تجدد رونقا ودهانا وقد سطع وضاء حتى الحجارة، وطيور الجنة تتخاطف فيه من بهو الى قاعة ومن شرفة الى غرفة، المشية رقص والنبرة ترنيم والعش الذهبي يضوع طيبا، ما اجمل تلك الهالة وما الطف تلك الاطياف في ذلك الجو المنعش . وبينما انا حالم واذا بي احس بجفلة أدهشت الجميع، فعم الفتور وانكسر الفرح وفاض الشراب على التراب، وانسدل ستار من الخيبة عاقدا اطارا اسودا على ذلك الزهو، وشاعت وشوشة في الزوايا، وعندما فتشت عن الطارق برعشة ووجل افاجأ بالخبر الاسود الذي فزعت فيه بامالي الى الكذب. لقد كسفت الشمس وفتك القدر القاسي وفوجئت العروس بسكتة قلبية فماتت. لا لا أني احسبها نامت وما ماتت. لقد خلق الله مفاتيح عصبية عديدة ومفاتيح قريحتي ان تطرقني مثل تلك القارعة وتعصر قلبي فينبع ويفيض وهكذا صبت علي قصيدة شمعة العرس صبا :

شمعة العرس ما اجدت التأاسي انت مشبوبة ويطفأ عرسي
أنت مثلي مشعولة القلب لكن من سناك المشؤوم ظلمة نفسي
يا راعى الله للزفاف شموعا يتهافتن بين نعش ورمس
عاكست حظها الليالي فذابت خجلا ترسل الدموع بهمس
هكذا ذاب باحتراق فؤادي هكذا سورة الدموع برأسي
جلوة ام مناحة لنجوم يتهافتن بين سعد ونحس

كان حدسي تذكو الاماني شموعا والليالي خيبن ظني وحدس
الرجا كان شمعة وتلاشى وانطفاء صدم الرجاء بيأس

***

اجفلت دهشة المصاب الغواني فتطالعن من ستور الدمقس
تتبارى بخشعة وانصداع تطأ الارض بارتباك وهجس
كنجوم تكدرت فتهاوت من سماء الى حضيرة قدس
فوجئت بالبكاء ومذ جمد الدمع تباكين باحورار ولعس
ابدلوها عن المنصة نعشا هو عقبي لكل عرش وكرسي
وترى نعشها كباقة ورد تتعاطى الاكف فيه بخلس
رقدت رقدة النديم بجنب الكأس في ساعة ارتياح وانس
وبحضن الربيع اغضت فماتت ميتة الورد في ذبول ويبس
رفرفت حولها البلابل خرسا وبكاها نزع الحلي بجرس
اسفا يخرج الربيع الرياحين من الترب وهي في الترب تمسي
وكثير في ذا التراب رياحينٌ تعطلن عن نبات وغرس
حزن واد وارى شبابك ان لا ينبت الورد فيه من كل جنس

وبعد الجفلة تدورك الامر وتم زواج آخر ولكنه كان عرسا حزينا وما تمر ايام كثيرة الا واتوجه الى الحجاز، وكم كنت مرتاحا للتخلص من موجعات العراق. ويعرقل الانكليز سفرنا طيلة شهر لكن تخلصنا واذا بنا نافذين الى الفاو والى وسط البحر في كنف الله ورعايته، واتفق ونحن في طريقنا الى الحجاز ان يكون الامير فيصل في طريقه الى عرش العراق.

-26-

في عام 1918 كانت القومية في العراق ممتحنة بالسلطة الاحتلالية ، وكان العراق يتململ وشجعه ما في الحجاز من حركة قومية فيحبرها رسالة نهضة وقعها زعماء الفرات واشراف النجف وابردت الى العاهل الحجازي ويعرج الرسول علينا في بلاد المنتفك ويتردد بين بيت المرحوم عبدالكريم السبتي في الناصرية وبيت الوجيه الحبيب حسين الشعرباف في الشطرة ،فعملنا على توقيع الرسالة من قبل زعماء المنتفك وذلك بواسطة السيد محمد الشبل المعروف بأبي صلوات وجهزنا الرسول مهيئين له الرفقة، وجعلنا الرسالة حشوا في غلاف كتاب ديني حرصا عليها من التفتيش، وكان الهدف من رسالة العراق ان تكون الوثبة شاملة لانهم لا يريدونها اقليمية ضيقة ، وبكل اسف لم يظهر من الماثل في الحجاز اي اثر واهتمام بالرسالة ، وبقي الرسول يتلوذ بين الحجاز وعاملة وسوريا، وهناك عرف العراقيون ان الحمل الثقيل لا ينهض به الا اهله وقاموا بها ثورة حمراء عراقية بحتة، وبعد ان انتهت الثورة والحقيقة بعد ان خنقت، كان الفرنسيون قد اخرجوا فيصلا من سوريا فغادرها الى اوروبا مطالبا بالعهود ، ويتصيد الانكليز الفرصة السانحة فتتخاطب اسلاك البرق باشارتها وهي تنبض بين لندن والحجاز وباريس ترمز تارة وتفصح اخرى مرشحة فيصلا لعرش العراق، ويعهدون بذلك الى

مؤتمر استعماري ينعقد في القاهرة ويحضرة وزير المستعمرات شرشل ومن العراق الحاكم السياسي البريطاني وجعفر العسكري وساسون حسقيل والمس بل فيقررون تتويج فيصل على عرش العراق، واطلاق سجناء الثورة، والتنازل عن الغرامات النقدية ، وابعاد السيد طالب النقيب عن العراق . ويصل الامير فيصل البصرة ويطوف بعض الانحاء العراقية ولم ينطل الامر على الثوار فيزجلون في استقباله (يا وحيد صج يومجبعينه) يخاطبون زعيمهم الشيخ عبد الواحد آل فرعون على مشهد من الامير فيصل قائلين هل الامر صدق او مبرقع.

ويتم للسلطة ما ارادت فيصبح فيصل ملكا على العراق بنتيجة ما اسموه (تصويتا عاما).

توسطنا البحر الهائج لان سفرنا كان في موسم العواصف في بحر الهند الذي لا بد لنا من اجتيازه لمدة خمسة ايام حتى نبلغ باب المندب نافذين من البحر العربي الى البحر الاحمر، ويصيب الدوار البحري ركاب الباخرة عدا خمسة انا احدهم، وبقينا ليومين بدون طعام لان الطاهي اصابه الدوار فشكوت الجوع الى رفيق نجفي مملوء نخوة، فقال لي كلما في الباخرة من طعام هو الان لك لان القوم في غيبوبة .

وبعد ساعة صفت مائدة عليها كل انواع المأكولات فأكلت بنهمة ولكنها أكلة حرام، وبلغنا مدينة جدة وياالها من مدينة كأنها بقية من مدن العرب البائدة او هي جدة تلك المدن.

ومن الغريب وجود قبر قريب منها يقال انه قبر حواء جدتنا. ان جدة التي

شاهدناها بلد مزهق حار ضيق وخم جمد فيه الهواء حتى انك اذا استطرقت شارعا منها تشم لكل دار رائحة لان الهواء لا يتحرك فكل رائحة تمكث في مكانها ومن ماء جدة تعرف ماء الزقوم والحميم .

نزلنا من الباخرة وبعد قليل اذا بجلواز يقول " كلم " يقصد أجب دعوة الملك. وكان الملك حين ذاك في جدة فمشيت مع الجلواز وانا في احرامي شملة ومأزر ونعلان غير مخيطان لان لبس المخيط لا يصلح للمحرم الذي يراد منه ان يظهر بمظهر بدائي والخياطة ليست بدائية. وكان النعلان يغرفان التراب الحار ويلقيانه على ظاهر قدمي فيكتوين وجريت حافيا وبينما انا في جريي اذ تلسعني حصاة محمية بشمس جدة وهناك عرفت السر في تسمية العرب للحصاة جمرة. وجئت مجلس الملك فوجدته وكأنه جالس على دكة حمام من تلك الحمامات القديمة العامة، كل من كان هناك مشتملا بشملته وعليه مأزر مشدود، حفاة الاقدام حاسري الرؤوس تعوزهم القباقيب، انهم محرمون أو محرومون. استقبلني الملك بكلمات الترحيب والتهنئة بسلامة الوصول متمنيا لنا طيب الاقامة، ثم سألني كيف تركتم فيصلا فشكرته وقلت يا سيدي اختلفنا في الطريق مع ركاب الامير، ويرد علي مداعبا ارجو ان يكون الاختلاف منحصرا بالطريق لا في الغاية. فاستحسنت الالتفاتة وقلت لا سمح الله ، ان شاء الله لا اختلاف في الطريق ولا في الغاية انما كنت يا سيدي اقصد طريق الحجاز لا طريق العراق. فابتسم للملحة وقال ولا في طريق الحجاز . لقد كانت دعابة ولكن توسمت منها ان الملك غير مطمئن. رجعت لاصحابي بقدم مكوية وفكر مشغول لتخوف الملك من العراق

والاختلاف في الطريق او في الغاية. وعلى كل حال مشيناها خطى كتبت علينا، ودخلنا مكة المكرمة والتقينا بمن سبقنا من الاخوان وكان الحديث عن الحجاز وعن العراق، واطلعونا على الوضع هنا فلم نحمده ، وعرفنا ان الصوت الذي كان يصلنا ونحن في العراق لم يكن صوت جرس القافلة. ومكثنا مدة في مكة وكنت اتردد على بلاط الملك، وزرته مرة صحبة وزير المال الذي كان متبرما من الوضع . دخلنا على جلالته فوجدنا امامه على الطاولة الخضراء اوراقا منثورة في جهة وفي الاخرى ورقة واحدة مستطيلة.

وعند دخولنا جمع الاوراق المبعثرة ووضعها في محفظة كانت الى جنبه . ولما انصرفنا قال سراج الدين وزير المال ارأيت الاوراق المنثورة والورقة المنفردة قلت نعم، قال غريب امر هذا الرجل الذي يريد ان يحتكر العمل ولا يريد ان يترك شيئا لغيره ابمثل هذا يدار الملك، ان الاوراق المبعثرة هي المعاهدة الانكليزية الحجازية التي يجري التفاوض عليها والمترجم لها ابنة الملك والورقة المنفردة هي تسعيرة البهيم بين جدة ومكة فان تسعيرة البهيم في الموسم تصدر من البلاط يوميا ونصيب صاحب البهيم عشر الاجرة ليس الا وقال الوزير انظر كيف يبت في المعاهدة البريطانية وفي تسعيرة البهيم في وقت واحد.

حقا لقد لمسنا الخيبة في مواقع كثيرة اهمها ما كان لنا في طريقنا الى المدينة المنورة وفي المدينة نفسها، لقد كان الذهاب الى المدينة يوقف على فسح من الملك ويحدد فيه مدة الاقامة في المدينة فحصلنا على الفسح الذي حدد لنا الاقامة بثلاثة ايام، وكانت لقبائل ما بين الحرمين عوائد منها ان

توزع عليهم حمولة الحجاج بنسبة معروفة ومقررة يسمونها حكة بفتح الحاء ومنها اخذ رسم السراية ويسمونه «خوة» اي رسم الاخوة والملك حسين يريد ان يجعل التوزيعة حسب رأيه لا حسب ما هو مقرر . كما انه يريد ان يمنع رسم «الخوة» وليت الامير يقدر على ذلك .

وحدث من جراء ذلك الخلاف ان جر الى مقاطعة بين الملك وعشائر حرب. ولما اردنا السفر ارفقنا بخمسماءة ذلال وعقد لوائهم لاحد القادة . وقد كان سفرنا سرى توقيا من شمس الحجاز. ولما اصبحنا لاول يوم من رحلتنا اخبرنا بقتيلين وهما في محملهما فساءنا النبأ ووقفنا عليهما ودفناهما واعتذر القائد بانها فعلة سراق، واصبح الركب لليلة الثانية من المسيرة واذا بالنبأ ان ستة عشر رجلا اصبحوا قتلى في محاملهم . فنال منا الغضب اشد ما نال وعزمنا على العودة ادراجنا ولكن القائد طلب الي الاجتماع منفردا ولما اجتمعنا قال اني اودعك امانة في اذاعتها اراقة دمي، ان هذه القبائل لا حساب لها معكم . ان حسابها مع الملك الذي بخسهم حقهم وليس له قوة على ردعهم وما هذه الفواجع الا من «بيرغنا» اي لوائنا الذي يرافقكم فاذا انطوى هذا المنشور امكنكم التفاهم معهم بسهولة ، فتسيرون بسلامة واطمئنان وان رؤساء القبائل الذين معكم يعرفون عوائد كل قوم منهم تجمعونها وتدفعونها وما هي بثقيلة. حرروا كتابا الى الملك يشتمل على الشكر وادفعوه لي لاطوي لوائي وانصرف . فعدت لاصحابي وكاشفتهم طالبا منهم الكتمان فاستحسنوا الرأي ودفعنا الكتاب للقائد وودعناه باحترام. وحسب الخطة كنا نجتاز المراحل حتى بلغنا منزل بئر الماشي وهو على

مقربة من المدينة المنورة وكنا نشاهد سرج الحرم النبوي. وبناء على الوصول لم ندفع الخوة لبني سليم وهم القبيلة النازلة هناك. سرنا وكلنا شوق ورجاء للتخلص من هذه المعاناة وبينما نحن في طريقنا واذا بالنار تصوب على الراكب الاعزل ويضطرب الناس وتتناطح الابل وتصطك المحامل فتدافعنا على مثل هذا الى سور المدينة واذا بالابواب موصدة وبعد فترة فتحت .

وفي الصباح تفقدنا الركب واذا بالخسارة تعد اربعين قتيلا بينهم اربع نساء عراقيات أما الجرحى فكثيرون وقد نهبت القافلة فتجمهر الناس على باب الحاكم العسكري الشريف ابن منصور، وفي المدينة حاكم سياسي ايضا وهو الشريف «شحاذ». ولما قابلنا ابن منصور قرعه احد اصحابنا وابن منصور بدوي خشن فرد عليه بقوله هذا كلام وعر وعندنا أوعر منه فقلنا له لم نأت للمبارزة وانما لبسط الحال ومعرفة ما يكون من امرنا فقال :

دعوني اتصل بالملك وبعد يومين اتصلوا بالحاكم السياسي وارجو الا تذهبوا جمهرة ولكن انتخبوا من يمثلكم. فانصرفنا عن ذلك البدوي الفظ، وقد اختارني الرفاق لمقابلة شحاذ وفي الوقت المعين ذهبت الى سراي الحميدية محل الحكومة ووجدت المحل فارغا حتى من الخادم والبواب وشاهدت في صدر المحل قاصة حديدية فقلت عسى ان يكون محل الحاكم حولها وجلست بقربها ويقبل الحاكم وتقبل رؤساء حرب وكل منهم يعتمد على بندقيته والخراطيش الصفر مصفوفة على صدره ولكل منهم سيف بدون انحناء ولا تقويس يسمونه جنيبة والعراقيون يسمونه «قامة» ولما تكامل العقد خطب شحاذ قائلا يا وجوه القبيلة ونقباء البلد بعد انقطاع طويل يصل

بلادكم هذا النفر الكريم وفد الله ووفد رسوله، اكان من الجميل استقبالهم بمثل ما استقبلوا به اريد ان اعرف من اساء، دلوني عليه وينهض شاب وسيم قائلا انا الفاعل.

أنت ؟

نعم .

ولمه ؟

حتى اعرف الشريف حسين ان عند بني سليم بارودة وليس البارود عند غيرهم فقط . ويرد عليه الشريف «شحاذ» : ذلك امر بينكم وبين الملك وما شأن هؤلاء الضيوف ، حسبكم ما وقع ودعوني اخرجهم بسلام يا ابن نهار. وكان المتكلم محمد ابن نهار زعيم بني سليم الذين منعهم الملك حسين توزيعتهم عندما وزع حمولة الركب لانه كان يضغن عليهم لموقفهم في حربه مع فخري باشا قائد الجيش العثماني في المدينة حيث وقفوا معه .

ويرد عليه ابن نهار لا تخرجهم ولا هم يخرجون حتى يصفي الشريف حسين حسابنا. وهنا يحتدم شحاذ ويركز ابهامه على خرطوش من الرصاص المصفوف على صدره صائحا يا ابن نهار اخرجهم بهذا ، ويرد عليه ابن نهار تخسأ يا حمار يا خمار وعيش عاش فيه رسول الله لان اخرجتهم لاذبحنك واذبحنهم معك، هيا معاشر حرب. فيخرج وبندقيته بيده ويخرج القوم معه مغضبين .

اما انا فقد قرأت الكتاب من الفه الى يائه وشربت الكأس حتى الثمالة، ورجعت الى الذين اوفدوني . ويطوف ابن نهار وململمته على الناس

ييلغونهم ان لا يخرج احد حتى من كان من اهل المدينة، وجاءوا مجلسنا وبعد تتناول القهوة قالوا انتم اخواننا من ابناء العشائر لا بأس عليكم يمكنكم ان تخرجوا بسلام فاجبناهم ان التقاليد تمنعنا ان ننجو ونترك الرفاق فاعتذروا وقالوا لا يمكن ان يخرج الجميع اما انتم واليوم ينتهي فسحكم فيمكنكم الخروج . قلنا تأبى المروءة ان نخرج وحدنا انتهى الفسح او لم ينته . فمضوا على نياتهم وبقينا على نياتنا طيلة اثنين واربعين يوما .

واخيرا سألنا عن مقدار عوائدهم فقيل ستة الاف جنيه قلنا نجمعها وندفعها لهم. وباشرنا العمل واذا برجل الطيبة والمعروف السيد عمران حبوبي وهو انبل رجل في مدينة الرسول يسر الينا ان توقفوا عن جمع الدراهم فان الامر انتهى وغدا تسافرون بامان، ان الملك حسين بلغه تصديكم لجمع المال فاشترى سمعة حكمه واوعز الي ان ادفع على حسابه ستة الاف جنيه وحالا دفعتها لهم وسوف يرافقونكم على الطريق.

-27-

انتهت المشكلة وأتينا جدة وفيها اقف على معجزة اخلاقية يطيب لي تدوينها. كان في جدة قائمقام تعرفت عليه اول هبوطي الحجاز وهو رجل نبيل له صدر من الادب العربي والفارسي ودراسات تاريخية واسعة وانه على خلق عظيم، معروف مرموق محترم، وان الملك حسين استغلالا لمكانته عينه قائمقاما وان يشغل الوظيفة فخريا، انه الحاج محمد علي نمازي من بيت تجاري كبير لهم تجارة ما بين الهند والحجاز، زرته مودعا في امسية وبينما نحن نتسامر يدخل رجلان ايرانيان وقدما عرضا ولما اطلع عليه قال لهما الجواب غدا، وحاولت الانصراف فيرغب الي ان نتناول معا وجبة العشاء واعتذرت لان لي رفاقا لا يتناولون عشائهم بدون حضوري فقال ارسل لهم من يخبرهم ولي معك شأن فاجبت رغبته ولما انفض المجلس تحولنا الى محل آخر من البيت فقال ارأيت الرجلين وورقة استدعائهما قلت نعم . قال اخشى ان يكونا ورفاق لهما من ضحايا الاغراء. انهم ستة انفار سلبوا في الطريق ما بين الحرمين، وللملك حسين بيان وهو ان من يسلب يقدم عرضا يعدد فيه ما اخذ منه ويقسم عليه بالكعبة، والحكومة تدفع له قيمة ما سلب منه نقدا . وهؤلاء المساكين جلبهم الادعاء الكاذب وجاءوا يطالبون بتنفيذ البيان ..وانا العارف انهم لا يحصلون على شيء وسوف يبقون للخداع الى ان تتحرك آخر باخرة تتوجه الى العراق فينقطع بهم الطريق ويموتون جوعا

لان هذا البلد انعكست آيته فاصبح لا يطعم من جوع ولا يؤمن من خوف، هذه الف وثمانمائة روبية اجرة الباخرة لكل فرد ماية وخمسين ولكل واحد منهم ماية وخمسون للصرف وارجو ان لا تذكر لهم اسمي بل قل لهم ان الشكوى لا تجلب لهم خيرا وهذه معونة مني ومن اصحابي، فنفذت رغبته مقدرا لها كل التقدير .

العودة

ركبنا الباخرة الى العراق بعد ان طوينا سبعة أهلة في الحجاز، وقد عرجنا في الطريق على عدن ومسقط والبحرين وبلغنا البصرة ومنها صعدت الى النجف وبقيت منكمشا لاني وجدت الوضع في العراق لا يتناسب وما كان لنا من احلام، ويؤسفني ان الثورة لم تنجح في جميع اهدافها انما خنقت ولكن بعد ان نسفت الحكم العسكري ذلك الحكم الانكليزي المتغطرس. الا ان شياطين الانكليز خدعوا العاملين واسسوا وضعا وجهه وطني وباطنه اجنبي ذلك النظام الذي له المظاهر الدمقراطية من احزاب وبرلمان ودستور ووزارة سيادة شكلية ووضع شاذ وحلم كسول زاعمين بانها مظاهر تطورية . ووجدت العراقيين :

كرة اللعب بين يمنى ويسرى للشياطين أمة الرافدين
فهي من قبضة لأخرى ولكن أوهم الناس فيصل القبضتين

رواية هزلية استغلها الانتهازيون ، وبراعة انكليزية فيها السلطة السياسية

المبرقعة والسلطة الاقتصادية المكشوفة. وبينما انا واقف على التل اذا بي افاجأ بحادثة ابعاد الشخصيات الوطنية الى «هنجام» الجزيرة الواقعة في الخليج لان تلك الشخصيات شهرت بالوضع المبرقع ، فأملى علي الموقف قصيدة «مسامير» التي جاء بعض ابياتها:

ابـــغداد للـــدهماء فيـك تـموج غفير وللابطال نفي وتسفير
مزامير بغداد عراقك مطرب ويضحكني ان الرجال مزامـير
هل الهيكل المنجور يحفظ شكله اذا نزعت من جانبيه المسامير

وعند التصويت على ملوكية فيصل وادعائهم حصول الاجماع على ذلك نشرت قصيدة غناء الراعي ومنها :

ارتقت عندنا الصناعة حتى كل قول وكل فعل صناعي
ونبغنا في الاختراع جميعا فتأمل في وضعنا الاختراعي
يصدع الراس بالمهام ولا خير برأس ما فيه غير الصداع
في مطاوي الاجماع قد تكثر البله فكيف الوثوق بالاجماع

وعند انتخاب المؤتمر التأسيسي وما حصلت فيه من الوقائع كالمقاطعة وغيرها لانه تأسيس حكومة اقليمية وكانت النجف ترى ان مواد العمارة تجعل البناء داخله انكليزي وظاهره عراقي بدستور مستورد وملفق فعارضته وتصلب الانكليز وابعدوا رجال الدين خوفا من تأثيرهم على الرأي العام وعند ذلك نشرت موضحا اشبه بملحمة جاء فيه وصف جهادنا وما بذلناه من اول يوم وما حملنا من اهداف وما نالنا من خيبة وعقم للمسعى وقلت فيما نحن فيه :

في ذمة التاريخ اوطارنا قد انقضى العرس وشهر العسل
لو جمعت لم تك اقطارنا دويلة فكيف صارت دول
غداً اذا هددنا جارنا كيف نلاقيه بهذا الفلل
يكفي بان اصبح مزمارنا يصدح ان العربي استقل

***

اطرحوا العذل ولا تركسوا في العتب بغداد تمل العتاب
ان رماة الحي ما قرطسوا واندلق السيف وظل القراب
وفقتموا للخير لا تعطسوا خوفا على حرية الانتخاب
يا ايها البيت الذي أسسوا بوركت من بيت له الف باب

***

ويزعج السلطة هذا الوتر بما يقرع ويقرع فاوعزوا الى عميل لهم في النجف ان يقعقع لي بالشنان، ولكني رددت عليهم بموشح «نشيد الزوايا» :

يا ضارب العود مهلا اسمع نشيد الزوايا

***

ان الحديث شجون تستك منه المسامع
ماذا تقول «العيون» كل البلاد مدامع
ملء العراق انين اما سمعت المواجع
وكل شيء حزين في القطر حتى الشوارع

***

هل زاد قطري درا حتى تزيد الضرائب

وصاحب الكوخ فقرا قد باع حتى المعاصب
أأنت تسكن قصرا من كد أهل الخرائب
بغاث طيرك يضرى ونسر قومي يراقب
***
لم يبق وجه بشوش في الكوخ او في الخصاص
ملء الصدور نشيش وفورة للخلاص
أطائر أم ريش في قبضة القناص
رفقا بشعب يعيش للضعف بالامتصاص
***
بأيها استدل بالنار ام بالدخان
قومي لماذا استقلوا للجري أم للحران
فخففوا واقلوا من مسكم للكيان
تفل ما لا يفل دقائق وثوان
***
لا تأخذوا بخناقي كم في البساتين ورق
في صدر كل عراقي اجراس شعري تدق
وفي احتجاج رفاقي يشع نور وحق
ماء جرى في السواقي أم ذاك فقر ورق
***
في الصرح شر الصدوع من هذه الطبقات

فليت قبل الشروع صحت عقول البناة
للفرد حق طبيعي في دجلة والفرات
والارض ملك الجميع لا ملك بعض الذوات
***

وبعدها نشرت موشح « رذاذ المطر»:
آه لو تمطر السماء سياسة ويدار العراق بالاقطاب
لا تجسوا اورتارنا الحساسة نحن لا نشتهي غناء الرباب
كم شهدنا معامعا وحماسة ورأينا تهافت الاحزاب
لم يغاير هذا البناء أساسه فخراب نشده بخراب
***

آه لو تمطر السماء مروه وحنانا على القرى والضواحي
أخوي اسمعا نداء الاخوه يتعالى من أنة الفلاح
يا ضعيفا لديه اكبر قوة وفقيرا يكيل بالارباح
ما لأشياخه خلاف الفتوه انهم في ظلاله وهو ضاح
***

آه لو تمطر السماء شعورا فأقولن في العراق جماجم
ان كوخ الفلاح يطلب نورا بالطرابيش كان أم بالعمائم
أفلا يطلق النفوذ اسيرا قد صبغنا حقوقه بالجرائم
ربي لو تمطر السماء شهورا إن هذا الفلاح عار وعادم
***

آه لم تمطر السماء بصائر فعسى يدرك الرفاق اهتتداء
غير مجد لنا بناء المخافر والتصاميم غارة شعواء
يا ربوع العراق جدك عاثر حملته مطية عرجاء
قادها في الدجى ضرير حائر رام يحدو فغاب عنه الحداء

***

آه لو تمطر السماء تمائم تتولى حماية الاطفال
كيف نرجو بان تشد الحيازم صبية في الضياع للاهمال
ما اهتممنا لجيلنا في البراعم فأسانا زراعة الاجيال
ذهبت بالورود كل المواسم وبقينا لموسم الأدغال

***

وتابعت النقد السياسي مشهرا بالوضع الذي كلفنا ما كلفنا حتى اني جوبهت بامور كثيرة اهمها السعاية بي حول البلاط .

وانا لا اهتم بما اقول مشهرا :

وددت الاذن للرؤيا لكي ابصر بالسمع
عسى ان ننظر الوضع كما نسمع بالوضع

وكثر الدس علي من اولئك المتاجرين بالسياسة وانا في مرقبي غير مكترث ولا هياب اتغنى بقولي :

يا ورد بستان العراق يضيمني ان تكثر الاشواك في البستان
وتقاطع الجيران كان معرة كبرى فكيف تقاطع الاخوان

-28-

مهزلة الانتخابات

في عام 1928 يحل السعدون مجلس النواب ويقوم باجراء انتخابات . ويصلني النبأ وأنا في النجف ان حزب السعدون يرشحني للنيابة ولكن حزب المعارضة المتستر بالبلاط او البلاد المتستر به يعارض. وكانت تلك الانتخابات تلاقي معارضة شديدة سقط فيها بعض القتلى والجرحى ، ويبلغني ان متصرف المنتفك متحيز للمعارضة، فقابلته في داره وطلبت منه بسط الحجة في تدخله المكشوف فتهرب قائلا ان مركز القوة في بغداد، وفهمت من ملامح قوله ان مركز القوة في البلاط فماذا يستطيع هو ، واجبته صحيح ان مركز القوة الكهربائية في بغداد ولكن القفل في دارك او في دائرتك حرك المفتاح ينبلج الضوء، فقال قررت الذهاب الى بغداد لأمور صحية وهو يريد ان يتستر بذلك لمواجهة البلاط وحزب البلاط في حل عقدته، فقلت له واني ذاهب الى بغداد لامور مرضية، وفهم مني اني اريد ان اكاشف الحكومة في هذا التدخل المكشوف، وطلب مني عدم التوجه فأبيت عليه وركبنا القطار معا وتأخر اجراء الانتخاب في المنتفك يومين عن الانتخابات في العراق. ويتأثر السعدون من تصرف المتصرف ويمتنع عن الدوام في ديوانه احتجاجا على البلاط الذي يغذي المعارضة، وبعد اللتيا والتي تنفرج الازمة وينعقد اجتماع في البلاط يرأسه فيصل ويصر على

التستر وخنق هذا التدخل ولا بد من الاسراع باجراء الانتخابات في المنتفك حيث تأخرت عن اليوم الثاني والناس لا تحمد هذا التدخل، وان الملك يوافق على نقل المتصرف ولكن بعد اجراء الانتخابات، وانه بنفسه يتدارك امر علي الشرقي. ويوعز حالا بتعييني عضوا في مجلس التمييز الشرعي ويريد لي السعدون الرياسة ولكن فيصلا يرفق بالرئيس الموجود فيراوغ قائلا ان هذه العضوية مؤقتة ولا بد للشرقي من عضوية البرلمان ، ويطلبني السعدون من النجف ويقص علي ما تم فقلت اني بعيد عن هذا المسلك وماجرياته ولست بحاجة الى الوظيفة، فقال ولكني اتعمد وجودك في بغداد حتى اختصر بك الطريق للوصول الى ما اريد . فنزلت على رغبته ونقلت من المشتل الى البستان وبعد فترة ينتحر السعدون كما ستعرف وابقى لابثا في سجن التمييز الشرعي الذي حكمت به علي سياسة البلاط .

-29-

في عام 1933 كان البلد في سورة وحزب الاخاء ينفخ في البوق والسفينة فقدت ربانها بموت فيصل، وتلاعب الاخائيون بالنار واوعزوا الى الجيش ان يظهر التهيب من الاحتكام بالعشائر التى اثاروها فكانت حركة الاخائيين خيانة مزدوجة، ورغب البلاط الحائر بايفادي صحبة وزير

المعارف الى النجف ومن هناك نتصل بالثوار وكان ذلك بعد ايفاد وزير الداخلية الى الديوانية . ولما بلغنا النجف وجدنا الامر معقدا يصعب حله ولم نستيئس فكانت مراسلة وكانت سفارة تطوع لها الاستاذ اليعقوبي ، وبينما نحن بانتظار ما يجيىء به الغد واذا بالحالة في بغداد تتوتر فكانت الحاسمة واستقالت الوزارة وتشكلت وزارة اخائية وتحللنا من المهمة، وكان الاخائيون قد اجزلوا بالمواعيد لزعماء الفرات الذين اثاروهم .

ولما اطلع الجيش لم يصوب تلك المواعيد واخذ يتدخل في السياسة فكانت حركة بكر صدقي وما تبعها من حركة امين العمري وحسين فوزي وحركة الضباط الاربعة ، وصادف في عهد الوزارة الاخائية طغيان الفرات الذي اغرق القرى والارياف فاوحت لي هذه الماجريات قصيدة معاتبة الفرات الطاغي :

اني عتبت على الفرات وهل ترى يتنازل الطاغي لسمع عتابي
ما للفرات المستشيط بغيضه يسطو وسطوته على الاصحاب
ولرب جبار يحطم نفسه من شدة الازعاج والاغضاب
هي سورة الشط الرهيب ولم اقل هي ثورة الوادي على الاطناب
هذا الفرات وهذه عاداته متفلت من عهد حامورابي
يبني ويهدم في الشؤون ولم تزل تأتي مظاهره بكل عجاب
منه غدت أم العواصم بابل تزهو ومنه غدت تلول تراب
قد يستحيل على الحديد عبوره جسرا وقد يكفيه نفخ جراب
اسباب اهمال الفرات كثيرة وشيوخه من اعظم الاسباب

الى آخر القصيدة .

ودأب الاخائيون على لعبتهم حتى انتزعهم الجيش من الكراسي، وحاول بكر صدقي ما حاول وهنا لاحت جدية صالح جبر وصلابته الامر الذي اضطره على الاستقالة من وزارة العدل ومغادرة العراق وقديما اختبرته السلطة فنجح في الاختبار ، وبعد قتل بكر صدقي بقي الامر مزعزعا حتى عام 1941 وفيه اظهر جبر معارضته لحركة الضباط الاربعة تلك المعارضة الجريئة ، فتوسمت فيه السياسة العليا انه الصالح للمهمات وتدرجت به للظهور ولكن ركضا ومرت به في المناصب والوزارات حتى تقمصها رياسة وزارة ليعقد معاهدة بورتسموث. اجل لقد ظهر الهيكل والناس يتهامسون منتظرين المفاجأة ويدشن المرجل بالطبخة التي كانت زنختها تملأ الخياشيم والرجل يتكلم وكلما ضايقه الناس ينكر عليهم، وكانت الحبلى مقربا وقد وضعت ولكن اجهاضا فتحسست الجماهير واندفعت تقلب الجمر ، وهملج الفرس الى «برتسموث» فالزموه عصا المارشالية وكان ما كان من شؤون وشجون قذفت به من الكرسي بل ومن العراق، ولكن بقي الامير باصرار وعناد يريد ان يخلق منه رجلا يعده لامور لا يقوم بها غيره.

-30-

كان الركب يتهيأ الى واشنطن المندفعة كل الاندفاع الى تغيير الوضع في الشرق العربي وخصوصا في سوريا حسب خطتها في تسوية اسرائيل. فكانت تحوك المؤامرات في شتورة والاستانة وبغداد، ويريد البلاط ان يغطي الرحلة قائلا ان غاية السفر الاجتماع بابن السعود هناك لتصفية الامور المعلقة بين الامير عبدالاله صاحب الحق الشرعي في الحجاز وبين ابن السعود المتصرف الفعلي في الحجاز بواسطة الرئيس الاميركي الذي رغب في التوسط ودعى اليه. وفي الحقيقة انهم كانوا يقصدون تصفية تخص سوريا لا الحجاز. ويجيء نوري السعيد الى مجلس الوزراء بقائمة اسماء الذين يوءلفون القافلة وقد حشر اسم جبر الذي كان على سرير المرض في احدى مستشفيات المانيا. وكانت القافلة غير متجانسة ولم يذكر فيها الهدف من تأليف هذه الململمة وبهت الوزراء واجمين ويعتبر الرئيس السكوت من الرضا. وفي الصباح الثاني دخلت على الرئيس سائلا هل جلب انتباهك وضع مجلس الوزراء بالامس قال لا فقلت لقد انسلخت ثلاثة اعوام وانا معك خاصة في هذا الديوان لم اشاهد قط مثل اجتماع الامس واحسبه استنكارا لتلك القائمة غير المتجانسة، كم فيها من جدار مائل للانهدام فما هذا الترميم. وينتفض الرئيس متظاهرا بالثورة علي قائلا تريد ان توبخني بهذا الاسلوب سوف اجمع مجلس الوزراء واقول لهم اني لا اتحمل التوبيخ (وكان

التظاهر بالثورة اسلوب يلتجيء نوري اليه بعض الاحيان) فقلت له لا تشوش علي الموقف فما جئت للتوبيخ ولكنها المكاشفة والمداولة. فخرجت وقد كنت محتدما، اما هو فيأمر بجمع مجلس الوزراء ويتوافدون مستغربين الدعوة المبكرة فقلت لهم مداعبا لعلها دعوة استقالة، ودخلنا على الرئيس فقال قبل حين دخل عليّ علي الشرقي موبخا بكيت وذيت واني لم اكن مخيرا فيما اقدمت عليه. ان رئيس القافلة اختار رفاقه ولي معه الف عمل وعمل، بربكم ايجوز ان اقف عند هذه التوافه واترك المسؤولية والظروف كما تعرفون، خففوا علي ولا تثقلوا حملي. اما انا فلم يكن مني الا الاحتجاج على تكرار كلمة «يوبخني» وتركت المجلس الى ديواني واخذت اجمع اوراقي للوداع وكأن الرئيس قد ادرك ذلك فتحول الى غرفتي معتذرا .

سارت القافلة وانا ازداد عقيدة بان السياسة العليا تبيت امرا ففاوضت بعض الزملاء بان نهيئ استقالتنا قبل ان تتم الطبخة ولكنهم طلبوا مني التريث، وكان الرأي ان الرجل الذي عقد حلف بغداد يلزم ان يستريح ولو مؤقتا . ومن جهة ثانية ان السياسة العليا تريد من العراق اختطاف سوريا ونوري لا يريد الاختطاف كما وانه كان زاهدا في الاتحاد مع الاردن من دون الكويت حسبما ستعرف ذلك مفصلا ، اما السياسة العليا فكانت تريد المسارعة بالاختطاف والاتحاد مع الاردن بدون شرط، وانها لا تريد تحقيق كل اهدافها بشخص واحد بل لا بد من توزيعها وعليه فلا بد من ابدال نوري بمن يجدون فيه الاستعداد لتحقيق الرغبات . ويقع التصميم على تهيئة جبر لذلك فاوعزوا له بالتأخر عن العودة مع القافلة وان يعرج على لندن وانقرة وبيروت

حتى تتعارف تلك العواصم ورفيقها الجديد، وبعد هذا الطواف يعود الى بغداد، ولكن يظهر ان المرض قد اضعف اعصاب الرجل فلم يستطع الحفاظ على السر المبيت واخذ يتهم الحكومة القائمة امام المراسلين الاجانب قائلا انها حكومة اقطاع ، وتبلغ كلمته زعماء العشائر فيجفلون ويشكونه الى امير البلاط ذلك الامير الذي لا يريد التعريض بالاقطاعية لانه هو وجبر يشتركان فيها ، ولانه من جهة اخرى لا يريد اضعاف الرابطة بين زعماء العشائر وبين الرجل لانه يعتبر الجميع كتلته الخاصة فيعتذر ويبالغ في الاعتذار عنه، وفي منتصف الليل يرن جرس الهاتف في دار احد المشتكين قائلا قصر رحاب يريد حضورك ويسارع المدعو وعند ولوجه البهو يجد الى جانب الامير صالح جبر ويبادر صاحب القصر ذلك الوافد قائلا هذا صالح ينكر صدور ذلك التصريح منه واني اريد منكم ان تحسنوا الظن به. وبعد ذلك يكثر التهامس بين الناس بعودة جبر الى الميدان ولكن كان القوم يقدرون والاقدار تضحك، فكانت النهاية ان يعجز القلب المريض عن تحمل السير فيقف عن الحركة، واذا بالبعض من الذين يرقصون على نقرات الامير، او الامير يرقص على نقراتهم ، بعد ان نفضوا اناملهم من تراب جبر يرجعون الى نوري، وكان نوري يريد من الدافعين لهؤلاء ثمنا لتحقيق بغيتهم، اولا يريد شيئا لصالح القضية الفلسطينية وثانيا مشاركة الكويت في الاتحاد. من اجل ذلك قام بتلك الجولة الخاطفة ففي اربعة عشر يوما يطوي ما بين العراق وواشنطن ولندن وانقرة وبعد ان تلتهم طائرته تلك المسافات تكون الخاتمة تلك الصدمة التي تلقاها من الوزير الاميركي «دلس» بتلك

اللهجة الخشنة المختومة بقوله اترك هذا البحث هنا واذا تشاء احمله الى منبر هيئة الامم حيث الخطب الرنانة. انتهت قحة دلس، واذا كتب تاريخ الهدم للشرق العربي في الحقبة الاخيرة فسوف يكون عنوان الهدم دلس . ويمكن ان نوري سمع مثل هذه الزجرة في لندن ايضا فقد سمعت من احد الساسة العراقيين يقول انه بعد سفر نوري من لندن اجتمعت بوزير الخارجية البريطاني وتحادثنا عن سفرات نوري السياسية فيقول الوزير ما بال نوري اهو مريض ام متعب انه اصبح عصبيا يحتدم في الكلام ويضرب على الطاولة .

-31-

العراق واسرائيل والكويت

لقد كانت اسرائيل اساس البلية وستبقى رأس رمح مركوز في قلب البلاد العربية. انها بعثت الحرب الفلسطينية وهذه الحرب زرعت الالغام بين الحكومات العربية فنشأت الخلافات التي كانت السبب في مغلوبية الجيوش العربية، تلك الجيوش التي لم تقصر في واجباتها العسكرية وكان رجال السياسة السبب في الردة، وبعد الانتكاسة ارادت الجيوش المكبوتة ان تنتقم لكراماتها فثارت على حكوماتها ، وكانت انقلابات عسكرية لقحها تذمر الشعب ، فاطاحت بالقيادات السياسية ، واقبلت البلاد على هزاهز وشيكا تنتهي الى تطور. لقد انفرطت العقود التي كانت تطوقنا وتضع الجامعة في اعناقنا وتسميها الجامعة العربية وطلع جيل جديد لا يأبه بالبناء الذي وجده على ارضه بل كانت عينه شاخصة الى السماء وكله شعور بلزوم (الهدم والانشاء) وفي هذه الفترة تناول كرة اللعب في الشرق العربي جباران جديدان هما الجبار الروسي والجبار الامريكي فنزلت الى الميدان افراس دولية جديدة وولت افراس اصبحت مصلية بعد ان كانت مجلية وتهرت صورة الماضي، فكانت مجاذبات ومجازفات قلبت اوضاعا واوجدت ثورة لها اهدافها واوضاعها التحريرية ، فتدخل العامل العسكري واصبح المهد مهزوزا ومن

فيه لا يعرف الا يومه اما الغد فانه بين الرجاء والحدس، وكثرت التكتلات متناقضة تارة ومنسجمة اخرى ولكن في مجالات ضيقة وحدود مصطنعة لا بد لها في نهاية الشوط الى الاندماج الذي يكون تطورا عربيا متواصلا، ورجائي ان تكون هذه التكتلات من الرغائب والمطامح موادا تجتمع احجارها لبناء مستقبل افضل.

اجل لقد بدأت مصر فأوجدت عبد الناصر ذلك الثائر الذي ركب الموجة غير مبال بارتفاعها او هبوطها وكان قد ظهر اسمه اثر النكسة في فلسطين وطلع مع الثورة المصرية عام 1952. ولما سطع نجمه في الافق السياسي تطلعت له بريطانيا واراد ايدن ان يخسف به الارض ولكن ناصر ولى بوجهه شطر امريكا فسانده دلس الذي كان يحاول ان يتسلل الى البلاد العربية بواسطة ناصر الا بلاد سوريا التي لم يردها لعبد الناصر مخافة ان تتكون كماشة ناصرية على حدود اسرائيل. ولاجل فصل سوريا عن عبد الناصر دفعها او اراد دفعها الى العراق. فكثرت المناورات السياسية والعسكرية ودأب الاسطول السادس الاميركي في الابيض المتوسط كاكبر قوة ضاربة يتجول في مياه بيروت وتكثر المؤامرات التي قام بها هندرسون وغيره من الاميركيين في بيروت وفي شتوره وفي الاستانة ، وتتحسس سوريا فتقوم بحركة تطهير في الجيش وتحجز بعض السياسيين وتطرد بعض الامريكان الذين كانوا في السفارة الاميركية، وتقوم واشنطن باخراج السفير السوري .

ان كافة الثورات والانقلابات في بلاد العرب وما ذهب فيها من الضحايا لم

تكن الا بسبب اسرائيل ومن الاتجاه الاستعماري الجديد الذي جعل الدول الشرقية والغربية تنقسم : هذى تناغي الجيل الجديد باهدافها وتلك تساند الجيل القديم، وقد كان جوق التمثيلية يتألف من المفتي والنشاشيبي وباشوات مصر وفي المقدمة حزب الوفد ومن عبدالناصر ونوري السعيد ورشيد عالي وفيصل وغازي وعبدالله وحسين وعبد العزيز وحسني الزعيم وشكري القوتلي وهاشم الاتاسي والحناوي والشيشكلي والنازيين والفاشيين والصهيونيين والبريطانيين والافرنسيين والامريكان . وقد تكشف الموقف عن وجود سياسيين اثنين في بلاد العرب احدهما شيخ هرم وهو نوري السعيد الذي ظهر اسمه اولا في الاندية العسكرية والسياسية عام 1912 في الاستانة وعام 1913 في البصرة وفي سنة 1916 و 17 في الحجاز وفي عام 920 – 921 في سوريا ومنها رجع الى العراق مع العهد الفيصلي فكان في حاشية فيصل الاول الذي كان يهتم به ويحاول ان يجعله في الطليعة من رجال الحكم في العراق. وقد تم لفيصل ما اراد في عام1930 فكان للبلاط اقوى ركيزة كما كان البلاط يسانده في كل عهد فيصل الاول ولكنه هان قليلا في عهد غازي ومن بعد غازي كان يشب ويخبو ويظهر ويختفي ولكن ظهوره اكثر من اختفائه وهكذا كانت بدايته عام 1912 ونهايته عام 1958.

اما السياسي الثاني فهو عبدالناصر انه يافع قريب من الكهولة وانه يلعب بالنار في البلاد العربية طولا وعرضا وبرغم التضحيات الجسام والدماء الغالية لم ينجح حتى الان الا في مصر .

وعلى حساب اسرائيل خذلت بريطانيا نوري السعيد وادارت له ظهرها حيث رفضت رجاءه بالمحافظة بصدق وامانة على بيانها الرسمي الذي احتواه الكتاب الابيض الصادر عام 1939 والذي بموجبه يستعيد العرب قسما من فلسطين. ومن رفضهم لهذا الرجاء ظهر الوهن على سياسة نوري وبدايته عام 1941 وما كان فيه من ثورة على عبد الاله ونوري وربما كانت تلك الثورة تستهدف ازالة الحكم الملكي عن العراق. ومن الغريب ان يكون الوهن الثاني لسياسة نوري هو رفض الانكليز والامريكان لرجائه حول الكويت. وبعد قليل من الزمن الذي اصطدم فيه نوري بالوهن الاول تصطدم مصر باحاطة الدبابات البريطانية بالقصر الملكي واقتحامها ذلك القصر وفرضها على فاروق ما فرضت. صدمتان الاولى في العراق وقد كانت باعثة على الوهن ومجددة للاحتلال والثانية في مصر وقد كانت محفزة للوثبة. وبدأ نوري يخسر مكانته السياسية تدريجيا.

غريب امر نوري الذي لمس الخيبة من البريطانيين مرارا ولكنه لبث لا يتزحزح عن صداقتهم. لقد كتب نوري الى شرشل عام 1941 وهو رئيس الحكومة البريطانية يومذاك في موضوع القضية الفلسطينية قائلا ان صدور تأكيد للكتاب الابيض الصادر عام 1939 يمكنني من حمل العراق على الوقوف بجانب بريطانيا ضد المحور ولكن شرشل خيب امل نوري ولم يقم بشيء. ويذهب نوري الى مصر لتوسيط القائد «ويفل» عند شرشل لاصلاح قضية فلسطين ويتعنت شرشل الذي كان اشد صهيونية من الصهيونيين فيعود نوري ادراجه . وكان نوري دائما يشترط ان لا يلج في القضية السورية

بصورة جدية كما يريد الانكليز والامريكان الا بالحصول على امرين اولهما استعمال الدولتين نفوذهما على اسرائيل بتسوية معتدلة ترد على العرب بعض حقوقهم ، وثانيهما موافقة الانكليز على انضمام الكويت الى الاتحاد . ولكن الانكليز لم يعملوا شيئا لصديقهم مع علمهم انه محق . وقد فات على ثعلب العراق ان قداسة البترول عند الانكليز تفوق العهود والصداقات فكم وكم باعوا ملوكا ووزراء وامراء من اجل رائحة البترول ولكم اشتروا المهازيل بغالي الثمن من اجل تلك الغاية. ويمكنني ان اقول كان نوري يفكر بعقلية عام 920 وهو في عام 958 وقد جدت عقول ودثرت عقول .

لقد ابتلي الانكليز بالجمود السياسي فكانوا لا يفسحون المجال حتى للمناورة والتظاهر بانهم نفضوا اليد من العراق وان الامر لأهله، كما ان بعض السياسيين من العراقيين قد جمدوا على الصداقة الانكليزية حتى انهم لا يعرفون الرياء السياسي او المخاتلة .

لقد كانت حركة نوري المستعجلة في حزيران 1958 رأس سهم في كنانته وكان اليأس يلوح على الفصل الاخير من تلك الرحلة وسبق له اليأس في عام 1956 كما تصرح بذلك رسالته التي وجهها الى الشعب البريطاني بواسطة جريدة التايمس قائلا يا معشر الناس في الغرب نحن معكم والكرة الان في جانبكم لقد توليت زمام المبادرة وعليكم ان تتقدموا لتلقفوها ولا تدعوني اضرب في الهواء وحدي واذا لم تقوموا بحركة حقيقية للحل وتقاعستم ان تعملوا ما فيه العون الصريح فسوف يفوت الاوان ويضيع كل شيء وتكون العقبى سيئة على اصدقائكم وحينئذ لا ينفع الندم . ولكن

الانكليز سدوا اذانهم. والغريب من هذا السياسي انه يريد منهم ان يضعضعوا احجار البناية في اسرآئيل غافلا عن انهم هم كانوا الاساس وما فوق الاساس . ان اخطر ما حدث في البلاد العربية هو اختلاف الحكومات العربية وشعوبها فعواطف الحكومات في جانب وعواطف شعوبها في جانب، وها نحن واقفون في مفترق الطريق بين حكام كل ما عندهم التشبث بتغيير سياسي طفيف وترميم قليل يهدم قصورا وينهض قصورا، وبين شعوب تريد الانقلاب الجذري والوضع الثوري. ويمكننا ان نقول ان التطور العالمي صريح بان الخير كل الخير في طريق الشعوب لا في طريق الحكام وطريق الشعوب لا تؤمن الا بالمنظمات العالمية الحقيقية فقد ولت سيطرة دولة واحدة، او سيطرة دول متحالفة على البلاد العربية وما فيها من خيرات ومصالح واستراتيجية. ولت منذ نهاية الحرب العامة الثانية واصبح التدخل العسكري فاشلا كما ظهر ذلك في معركة القناة وغيرها واذا كتب له النجاح فمؤقتا ويكون مآله الفشل كما كان في العراق عام 1941 فقد كانت نهايته ان ينفلت زمام التمسك بالسيطرة المكشوفة والمبرقعة . لقد اصبح الاستعمار والاستغلال من الماضي البغيض، ولا بد من الاعتراف بالاستقلال للشعوب والتعاون معها بالمصالح المتبادلة من طريق التفاوض لا من طريق السيطرة وفي ميادين الاقتصاد والمنافع المتبادلة لا في ميدان السلاح والقواعد العسكرية ومراكز القوة ، وخير ضمان لهذا التعاون العالمي هو ايجاد منظمات عالمية حقيقية تتولى رعاية تلك الشؤون رعاية صادقة بضبط وهيمنة لا منظمات هزيلة ومحتكرة او متحيزة.

-32-

سوريا والعراق

ما اغرب الصدف التي تلعب في مقدرات الامم مرغمة او راضية. لقد تحفزت سورية قبل كل الاقطار العربية الى الحكم الوطني منذ نصف قرن تقريبا. وفي سورية ترعرعت الفكرة القومية. لقد عمل السوريون على النهضة وضحوا لها وكان في المقدمة رجال سوريون لامعون في دنيا العرب الامر الذي جعل الاتحاديين يهتمون بسوريا اولا فيقارعونها ، ولكن تثور مصر ويثور العراق ويثور كثير من الاقطار العربية فتربح وتنجح وتنال استقلالها او شيئا منه. اما سوريا فتثور وتثور ولكنها تنتكس وتنتكس وتبقى رازحة تحت حكم القدر. فبعد ان كانت مرشحة لان تكون واسطة العقد والمركز والقاعدة واذا بالمحولات تريدها ان تكون ملحقة بمصر او تابعة للعراق . فهي تتأرجح بين هذه وتلك، في كل يوم عرس وفي كل يوم زفة والسر كامن في تضارب الاهداف السياسية الاجنبية من انكليز وامريكان وفرنسيين. فمن عام 1949 ومن مبدأ حركة حسني الزعيم اصبحت سوريا شبح السهام ورمية لرماتها . فحلف بغداد يريدها ان تشد حزامه، وان تنفذ به الى الاردن ولبنان. وعبد الاله يريدها عرشا له. وامريكا وانكلترا تريدها للانابيب وستارا لاسرائيل . والسعوديون يريدونها ولا يعرفون ما يريدون. والسوريون في دوامة. والجيش ،وكل الامر للجيش، كل يوم يحدوه حاد. والاحزاب في

حيص بيص. والشعبً في هذا اللج طافح راكس. وكان الانكليز والامريكان يريدون اولا جعلها في المنطقة الهاشمية من بلاد العرب لا في المنطقة المصرية ولا في المنطقة السعودية ، فطورا تسمع الترنيمة من الاردن وطورا ترتفع الزغردة من العراق . وان لسوريا هوى في قلوب الحجازيين من اول الدهر. واذا كان العراق عندهم بستان قريش فسوريا جنة قريش . لقد كان لأمية وهاشم جولات وجولات حول سوريا وقبر أمية في سوريا يشهد على ذلك الاتصال . ومن الطبيعي ان يكون للبيت الهاشمي اليوم حصة من ذلك الميراث. تشتد المطالبة بتلك الحصة بعد ان عقد تاج العراق على ذلك الرأس الذي سلب منه تاج سوريا، وهكذا بقي الجرح نغارا الى ان اهتبلت مصر الفرصة واحتوت سوريا من طريق الوحدة ، تلك الوحدة الهوائية، ولا اظن ذلك خاتمة المطاف .

وبقي الاتجاه الى سوريا من قبل العراق ينشط وينكمش . وقد كلف العراق اشياء واشياء ولكن كل المحاولات لم تنجح برغم توافر اسباب الوحدة ومعداتها . وكانت قالة السوريين ان العراق مقيد بالمعاهدة وسوريا طليقة لا تريد ان تمد يدها الى القيد طواعية. ومن جوانب القضية السورية ما كان من الاعمال المصرية العراقية في الاردن ولبنان فقد كانت مساع وأعمال لهؤلاء وهؤلاء لو فحصتها بعمق لوجدتها من جوانب القضية السورية . لقد اصبحت سوريا برغم المخلصين ميدان مساومة سياسية للشرق والغرب وللدول العربية من هاشميين ومصريين وللاحزاب والكتل السورية وفي مقدمتهم كثير من ذوي التاريخ القومي، واخيرا دخل الميدان فرس جديد وهو

الحكومة الروسية وذلك بعد ان اغلقت بغداد السفارة الشيوعية ولم يكن ذلك عملا وجيها لان من كان في دمشق وطهران تكون بغداد تحت سراجه فما الفائدة من غلق سفارتهم في بغداد . لقد كان ذلك عملا ضحلا، وكان الانكليز والاميركان يهدفون الى جعل سوريا في المخطط الهاشمي كما اسلفنا فان المخطط الاستعماري قسم بلاد العرب الى ثلاث مناطق هاشمية ومصرية وسعودية . فالمنطقة المصرية تشمل قسما من افريقيا ومن جهة تتصل بسيناء وتنتهي بالمنطقة السعودية. وهذه تشمل القسم الشمالي من جزيرة العرب بما فيها الحجاز. والمنطقة الهاشمية تشمل العراق وسوريا والاردن. والمقصود من كل ذلك الاطمئنان على انابيب النفط واقامة ستار لاسرائيل . وقد انشق العراقيون العاملون للقضية السورية الى فريقين فريق يرى ان التدخل يجب ان يكون بالقوة وعلى رأسه الامير عبدالاله الذي يرى ان الطريق الموصل هو ضرب السوريين بالعراقيين واعادتها صفين ثانية . وفريق يرى ان التدخل يجب ان يكون بعيدا عن استعمال القوة وعلى رأس هذا الفريق نوري السعيد اول أمره فقد كان يرى لزوم القيام بعمل داخلي في سوريا وضغط خارجي يطيح بالحكومة التي لم تكن في جانب العراق ويأتي بحكومة موالية للعراق ومؤمنة بالوحدة او الاتحاد معه . وفي هذه الخطة احتراز من تدخل تركيا او اسرائيل . وتطوعت لهذه الخطة احزاب وكتل وسعى العراق بالبدء لهذه الخطة ، ولكن نوري اخذ يتحول عن هذا الاتجاه وذلك عندما اشتد الخلاف بينه وبين عبدالناصر الذي ركض الى سوريا او ركضت له سوريا حتى اصبح عبدالناصر على الحدود العراقية وحتى

تأثرت المعارضة في العراق بالعقيدة الناصرية الامر الذي جعل نوري يبدل رأيه ويلتحق بالفريق الثاني الذي يرأسه عبدالاله. وكان من حواشي هذه الخطة تسليح قسم من العشائر السورية المؤيدة للعراق واتخاذ مساحة على الحدود لتكديس الاعتدة والمؤن بحراسة سرايا الحدود. اما بخصوص فلسطين ففي الحقيقة لم يكن عبدالناصر بعيدا عن نوري في الحذر والاهتمام بالصهيونية ولكن الاختلاف في الاسلوب . فعبدالناصر تظاهر انه يريدها بالغدارة ولعلعة الرصاص ونوري يريدها بالسياسة ويطلب العون من الاصدقاء والاعداء.

-33-

مصر والعراق

ان البحث يقتضي ان اذكر طرفا عما كان بين مصر والعراق. فمن عهد الملك فؤاد والملك فيصل الاول كان اختلاف في الاتجاه العراقي والمصري حول القضية العربية. والمحنة جاءت من مصر فطورا تريد السيادة على البلاد العربية من طريق الخلافة التي ارسل لها فاروق ذقنه ردحا من الزمن، وتارة تريدها من طريق القومية فيركب لها عبد الناصر الجمل . اما العراق المتواضع فلا يدفعها ولا يتقمصها. وبسبب ذلك الاختلاف يتجاهل الملك فؤاد القضية العراقية في مرور الملك فيصل الاول بمصر متوجها الى عرش العراق، فلم تكن منه أية مجاملة. والحقيقة ان الاختلاف كان بين العائلتين لا بين القطرين. وورث ذلك التجافي الملك فاروق مع شيء من التحامل . وظهر الاختلاف بوضوح في خطوبة سوريا وطلب يدها ففي الصباح يصلها الطيار العراقي نوري السعيد عند حركة الزعيم حسني وفي المساء يصلها الطيار المصري عبدالرحمن عزام يحمل معه اربعة اطنان من النقل لنثار العرس. ويختلف رجالات سوريا في العقيدة فشكري القوتلي عازف عن العراق والحناوي عراقي في النزعة والسيد الاتاسي بين بين والى العراق اميل وقد بذل القطران محاولات واموالا ودعايات.

وظهر الاختلاف العراقي المصري ثانية في ميدان فلسطين بابشع مظاهره.

وظهر ثالثا على الصعيد العراقي عندما نزع عبدالناصر طربوشه الاحمر وتبرقع بكوفيته وركب جمله حاديا في القومية العربية، فتصدى له نوري. وكان للخلاف واجهتان مكشوفة وغير مكشوفة وتبارز البطلان فكان الصريع نوري برغم ما بذل من دهاء او محاولة. لقد قابل عبدالناصر وكاشفه فتظاهر عبدالناصر بتفهم الوضع العراقي الخاص وخصائصه وموقعه الجغرافي. ولم تخف تلك المظاهرة على نوري ولكنه اراد ان يمد الحبل وكرر المحاولة ثانية ولكن على صعيد العراق لا صعيد مصر وطلب من عبدالناصر ارسال وفد للمفاوضة فارسل وفدا برياسة صلاح سالم وكانت المفاوضة في بغداد وفي سرسنك وقد ربحها العراق الا ان عبدالناصر كفئ انائها ولم يستسغ ما جاء به صلاح سالم. وتشكف الصراع وبدأت حملة مصر على العراق عندما زار الملك فيصل الثاني باكستان وذلك قبل عقد ميثاق بغداد . ومما زاد الموقد اوارا حنق عبدالناصر شخصيا على عبدالاله ونوري بادعاء انهما ألبا عليه الانكليز في حملة القناة. ولم يسبق لنا علم بهذا الادعاء.اما ميثاق بغداد فلم تكن مقاومة عبدالناصر له الا مظاهرة لأن عبدالناصر عقد مع الانكليز معاهدة الجلاء التي كانت اشر بلاء على البلاد العربية ، تلك المعاهدة التي لم يؤخذ فيها رأي الحكومات العربية رغم اشتمالها على ما يمس تلك الحكومات في المآل، خلافا لما فعله نوري في التمهيد لميثاق بغداد. انه كاشف عبدالناصر قبل ان يقدم على البت وان عبدالناصر اظهر تفهمه للوضع العراقي الذي يختلف عن الوضع المصري ولكنه رغب الى نوري بالتمهل في عقد ذلك الاتفاق حتى يتم الجلاء عن

القناة. ولم تكن له أي ملاحظة اخرى . اما الاستشارة بخصوص الحملة فلم نعرف عنها شيئا وكلما نعرف اننا فوجئنا بنبأ الحملة من قبل الامير عبدالاله لا من قبل نوري. لقد كنت نائما في بيتي وقد مر اكثر من نصف الليل واذا بجرس الهاتف يقرع ومن ورائه صوت يقول انا عبدالاله اريد علي الشرقي وينبهوني له وعند المكالمة يأمرنا بالحضور حالا في دار نوري فاجبت بالامتثال وانا متهيب من هذه الدعوة ووقتها واسلوبها. وسرعان ما التهمت السيارة الطريق فوجدت في دار نوري عبدالاله وكافة اعضاء الوزارة ووجدت نوري بلباس النوم «بيجامة» كانما استل من فراشه وقد كان الانزعاج باديا عليه ويخاطبنا نوري بقوله كنت نائما وايقظني الامير مخبرا لي بالنبأ المزعج المفزع وهو ان هاتفا من السفارة البريطانية فاجأه بنبأ زحف يهودي على القنال في هذه الليلة وقد رغب اليّ في دعوة الوزراء للمداولة فيما يجب فاستمهلته حتى الصباح وهو قريب ولكنه اصر على رغبته ودعاكم بنفسه ومن شدة اهتمامه رغب ان يحضر المداولة. فظهر لنا من هذا الاسلوب ان نوري غير راغب بهذه الصورة من المكاشفة والمداولة . وقد اهتم الوزراء بهذه المفاجأة وطفح على وجوههم ومنهم نوري ما لم ينتظره عبدالاله حيث اصر الجميع على الاستنكار لذلك الزحف ومن اسرائيل خاصة ولا بد من مساندة مصر واعلان ذلك للشعب. فاراد عبدالاله التستر وطلب عدم اتخاذ قرار بهذا الاجتماع وان لا يذكر اسمه وحضوره الامر الذي عرفنا منه أنه لم ينجح في مهمته. ولكن المجلس اصر على اصدار منشور يطلع الشعب بان العراق يساند مصر. هذا ما شاهدناه من مظاهرة

نوري . اما مظاهرة عبدالناصر في هذا الخصوص فلم نعرف حقيقتها أهي رمانة أم قلوب مليانة. ان احمد سعيد ينفخ في النار وهيكل يغرس الابر ويزرع الالغام والسفارة المصرية في بغداد تبني صرح هامان وقد أتخذت مصر من سوريا مرقبا وأي مرقب . وقد هللت ليوم 14 تموز وحول عبدالناصر وهو في البحر اتجاهه نحو سوريا ولكن تحطمت الامال على صخرة عبدالكريم قاسم ولم يستفد ناصر.

-34-

العراق والاردن

كان الحكم عثمانيا وكانت «السلط» مركزا من مراكزه في سوريا الكبرى. وجاءت الحرب العامة الاولى ونشر الحسين وأولاده علم الثورة العربية. وكان اتجاه فيصل نحو دمشق واتجاه علي نحو المدينة المنورة لمحاربة التركي فخري باشا واتجاه عبدالله نحو السلط الواقعة على الطريق التاريخي بين الحجاز وبصرى. ولما انتهت الحرب كان علي يحمل لقب ولي عهد الحجاز ورأس فيصل يحمل تاج سوريا أما عبدالله فأمير شرق الاردن «منطقة السلط» وحوله بيوت متواضعة لجماعة «الجركس» الذين اسكنتهم الحكومة العثمانية هناك. وكان عبدالله لا يحمد النتيجة ويعتبرها قسمة ضيزى. فكان حائرا خائرا والانكليز يريدونه هناك كقاعدة عسكرية عربية لأمر في نفوسهم فكانوا يجزلون له المواعيد البراقة وهو في دوامة من الحيرة. لقد سمعت المرحوم عبدالمحسن السعدون بعد عودته من شرق الاردن مستقبلا الامير غازي والعائلة الفيصيلية يقول وجدت الامير عبدالله متأزما وهو في قصره البسيط الذي انشأ لتوه، وان ذلك المتذمر يقول اذا لم تحل عقدة امري فاني انسف هذا القصر وما يراد به واقول لشرقي الاردن الوداع . ولكن تدرج الامر وجاءت الحرب الفلسطينية وبمناورات ومداورات انظمت

الجبهة الغربية الى الشرقية من الاردن وتكونت من الامارة مملكة ومن الامير ملكا واعترفت به لندن اما جيش تلك المملكة فانكليزي اولا وبيد الانكليز ثانيا ، واما ماليتها فمعونات امريكية انكليزية. وآنذاك لم يكن للعراق اي هدف في الاردن او عند صاحب الاردن غير ان العراقيين في ثورتهم عام 1920 هتفوا لملكية عبدالله ولكن بعد ان خسر فيصل التاج السوري انتقل التاج العراقي بقدرة قادر من رأس عبدالله الوهمي الى رأس فيصل فكانت عقدة في نفس عبدالله.

وبعد سنين مضت مات فيصل وحضر عبدالله حفلا عراقيا ويجيئ بعض شعراء المناسبات منوها بعبدالله فيقول «تنازل عن عرش العراق تفضلا» وتثور اعصاب عبدالله فيصيح بالشاعر اسكت اني لم اتنازل. هذا هو كل ما كان فلم يكن الاردن من هم العراقيين وانما هي هموم رجالات البيت الهاشمي .

لقد كان عبدالله في صدره تعتلج شؤون وشجون اولها العقدة النفسية ثانيها التفكير فيما اذا قطعت المعونات ثالثها خيبة امله في اولاده حيث لمس فيهم عدم القدرة على القيام بالامر من بعده فكان يحاول توحيد الاردن والعراق بان يتناوب سنويا مع فيصل الثاني ملوكية دورية احدهما في الاردن والثاني في بغداد عام وعام طيلة حياة عبدالله ومن بعده ينفرد فيصل بالملك.

وأما عبدالاله فولي للعهد هنا وهناك وقد وضع خططا لهذا المشروع وراح وجاء وطلب من شخصيات سياسية في العراق كتوفيق السويدي وفي لبنان كرياض الصلح العون. وفي طريق هذا العون اغتيل رياض الصلح، وانا

حتى الان لم استطع ان اعرف ذلك المشروع اكان سرابا أم ضبابا ام جرابا نفخ فحشر فيه ثلاثة رؤوس. ما اغرب ذلك الكائن وما اعجبه ولكنه حلم السلطة. انها رقصة ساخرة او ساحرة. وبقي الصوت يخفت ويرتفع حتى اغتيل عبدالله واذا بالعراق يجاذب الاردن بعد ان كان يسوف ويماطل. ومن الغريب ان تتحول الهواجس من الخوف على عرش العراق من عبد الله الى الخوف على عرش الاردن من عبدالاله وقد غفل القوم عن ان امر هذه العروش لا بيد هؤلاء ولا بيد اولئك.

-35-

مسيرة التاريخ او الوضع كما حلمت به

حلمت وكأني امرح في ثنايا العقد الاول من القرن العشرين وقد كانت في انحاء الشرق الادنى زعزعة ارتباك وانحلال، فانقلاب في الاستانة واطاحة بالعرش في طهران وغارات في جنوبي جزيرة العرب، وكان المنتدى الادبي في الاستانة وصوته الاستاذ الاعمطي صوت العروبة الداوي ، وكانت الفترة الزمنية ما بين 1908 وعام 1914 مملوءة بالحوادث مثل حرب طرابلس الغرب وحرب البلقاء والروميلي وكثير من الكوارث التي جعلت الاتحاديين من الاتراك يلتزون الى المانيا الامر الذي جرهم الى الاشتراك في الحرب العامة الاولى التي ظهرت في بوادرها وخاتمتها المزعجات للشعب العربي اهمها اللوثة التركية التي جعلت الاتحاديين يتمسكون بعنصريتهم ويقلبون ظهر المجن للعرب، فتحسس العاملون من العرب وكانت اول بادرة لهم المؤتمر العربي في باريس ونشر فكرة اللامركزية، ذلك الحدث الذي هز البلاد ودفع الاتحاديين الى الصرامة في مقاومة رجال العرب، فاندفع العرب الى العمل الجدي واذا بالجمعيات السياسية منتشرة في الاستانة وبيروت ودمشق والبصرة والموصل وبغداد. وكانت البصرة اكثر فعالية من الموصل وبغداد لانها كانت تستند على ابن مرداو شيخ الاهوار وعلى ابن صباح شيخ الكويت وعلى ابن مقرن امام نجد عبدالعزيز السعود ، واخيرا جاء دور

الحجاز فانضوت تحت لوائه رجالات العرب في شمالي الجزيرة عدا ابن السعود . وكانت الحركة عربية الا في مصر فقد كانت مصرية فقط كما تدل على ذلك اصفار سعد زغلول. ولم يكن قبل الحرب العامة في الاندية والجرائد والمجالس وعلى المنابر اي ذكر للاقليمية الضيقة . واول من كسر السدة مصر. وقد نشطت حركة البصرة وامتدت في انحاء شط العرب وصعدت الى دجلة والفرات وكان لها صدى في المنتفك والغراف وصارع عنف الاتحاديين الحركة العربية في كل مكان فكانت المشانق والمنافي والمداهنات، حتى اذا جاءت الحرب العامة الاولى وغطت حركتها العسكرية على الحركات السياسية الظاهرية لانها لبست ثوب السرية ووقف العرب للاتحاديين من وراء الخطوب ، ولم يكن الحكم العثماني ثابت الاساس في العراق بل كان مهزوزا في الحواضر والارياف فلم يكن الا علما في الهواء يصعد وينزل وطربوشا لائذا في زوايا الدوائر. اما الريف والقصبات فكلها مناوشات وزعزعة والحكم يباع ويشرى. وكانت الحوادث متتابعة في لواء البصرة وعلى جانبي الفرات ودجلة وكانت كردستان مذبذبة لا تعرف نفسها. ولما سنحت الفرصة للعرب تحركت الاحلام مطالبة بانهاء الحكم التركي، فكانت ثورة الحجاز وكان مفجرها يحلم بدولة عربية من تطوان الى الخليج العربي. انه لأمر لم تتهيأ له البلاد بعد ولكنه حلم لذيذ او صيحة في واد ان ذهبت اليوم فسوف تذهب غدا بالاوتاد . وقد لعب الاستعمار بكل اوراقه ولكن لم تزل الاحلام الذهبية تراود المخلصين . وبعد ان احتل الانكليز العراق وانتقلت ادارته من يد الى يد انشطر الناس الى متفائل ومتشائم .

وكان للانكليز مركزان في هذا الشرق فمركز في الهند له خططه ومنفذون لتكل الخطط يتبعون وزارة المستعمرات ومركز ثان في مصر وخططه تصدر من وزارة الخارجية. وكان المركزان يتجاذبان العراق، فمن جهة وقوعه في طريق الهند والويل للبلاد التي تقع في طريق الهند. وانه على فم الخليج العربي الذي يهم الهند وان الجيش الهندي بذل وضحى في سبيل احتلاله وكان ضباط ذلك الجيش ورفاقهم السياسيون من مدرسة الهند، لهذه الاسباب كلها يراد ان يكون العراق تابعا للهند او ان يجزأ فيكون جنوبه وفي الطليعة البصرة تابعا للهند ولمدرسة الهند.

ومن جهة ان العراق مركز مهم للقومية العربية قديما وحديثا ومحتضن للاقطار العربية المهمة التاريخية وله كل التأثير على الامة العربية فكان يراد جره الى الجانب الثاني . واخيرا تغلب الرأي على الاخذ قبل كل شيء بالوحدة العراقية وعدم التجزئة ثم ابعاد العراق عن التبعية للهند وهذا التصميم اوجب ابعاد الضباط والساسة الذين يميلون الى الفكرة الاولى.

وعلى الرغم من هذا الاتجاه فان سياسة الانكليز في العراق لم تبتعد بروحها عن السياسة الهندية. لقد كانت ملامح الراجوية تلوح في الاهتمام برؤساء العشائر والكوخات والتمسك بالعادات والعنعنات القديمة. انهم اتوا للحكم الجديد بنقيب الحضرة الكيلانية وبشريف مكة وبزعيم السعودن وهكذا جاءوا بها مؤسسة عنعنات لكنها مصبوغة بلون عصري ضعيف. وكلما فيه انهم ابدلوا عقال فيصل المقصب بكاسكيت واسم الشريف بملك واسم الشيخ والكوخة بوزير وعين ونائب. حتى التشريع العراقي اصبحت تظهر عليه اثار

التشريع الهندي .

لقد اتبعوا في العراق سياسة عشائرية كان لها الاثر المهم في وضع العراق وكان فيها العبث والعيث في النظام القضائي. فان قانون العشائر الذي اقحم في العراق لم يكن الا ابتعادا عن الهدف من التشريع فلا حرمة فيه للدماءولا صيانة للمال وقد فتت وحدة الامة لان الامة تظهر في نظامها وفي قوانينها، ولكن فيصل عمل للتجديد في بعض النواحي ولم يكن العمل جذريا. ولا ادري هل كان ذلك برغمه او برغبته. لقد بقي الوضع عتيقا بالروح والدم واللحم. وقد اقحم فيصل في الحكم بقية السيوف من العراقيين الذين كانوا في الجيش العثماني المنحل تلك التركة، الثقيلة من الرواسب. ولم يهتم بالصفوف العراقية من غيرهم فمن وزارة النقيب الثالثة اختص بالحكم تقريبا تلامذة مدرسة الاستانة ودامت لهم الهيمنة على العراق الى آخر ساعة من الحكم الملكي .

واليك بعض الانوار الكاشفة لتعرف كيف انفجرت الثورة العراقية الاولى وكيف خنقت . لقد خاب كل امل في سياسة الانكليز وقد كثر التذمر من غطرستهم التي نوهنا عن بعضها فتأزم الموقف واشتعلت الثورة الحمراء، فكانت ميادين في كربلاء والنجف وبغداد تجمع بين الفوران السياسي والفوران الحربي وكان للحركات السياسية في دمشق من قبل الضباط العراقيين العاملين هناك اثرها المهم فقد بدأوا اولا بالاهتمام بالعرش العراقي فقاموا باحتلال دير الزور في الفرات الاعلى ، ومن هناك زحفوا على قرة. فكانت مواقف انتصر فهي االثوار اولا وخسروا مكاسبهم اخيرا. ولكن الفرات

أبى الا ان يكون الثائر المنتصر فانتقل الميدان من الفرات الاعلى الى الفرات الاوسط وهنا استعر الصراع للثورة الحمراء في النجف وفي كربلاء وفي الكوفة وفي ابي صخير وفي الشامية وفي الهندية وفي الديوانية وفي الرميثة وفي السماوة وفي ناحية الخضر وفي الناصرية. وكانت في غير الفرات ميادين اخرى من ديالى وسامراء. كل هذه الميادين تحلت بقابليات حربية ونضج سياسي وشعور قومي ووحدة وطنية وفي نتيجة هذه القومة خذلت فكرة تهنيد العراق .

ولا بد لي من بسط الجهود التي قامت بها النجف في الفترة التي سبقت الثورة او مهدت لها. لقد خاضت النجف اعتبارا من 1908 معارك سياسية واجتماعية وحربية ، نضال وصيال، انتفاضة تعقبها انتفاضة وكانت في النجف كتائب للاحرار تريد الحركة الاصلاحية والتجديد وجماعات اخرى تريد الركود ولا تعرف التطور . واخيرا انتصر دعاة الاصلاح. وكان للحركات السياسية والانقلابات في الاستانة وفي طهران تأثير على النجف لما هناك من الروابط المتينة . وقد كانت الفتوى الصادرة من النجف تقيم وتقعد في هاتين العاصمتين. وكان الشعبيون من الساسة يستمدون العون من فقهاء النجف . ولشد ما انتفضت وناضلت هذه المدينة المقدسة في تأييد النظام الدستوري وهزيمة الحكم الفردي . وامتد الصراع الى مقارعة الاحتلال الانكليزي. وكان الانكليز قد عرفوا اهمية النجف وتأثيرها على الاوساط المهمة فجعلوها مقرا للسيطرة على قلب الفرات النابض واختاروا لها الحاكم السياسي البارع جامعا للنجف وكربلاء والحلة والديوانية وما تلم هذه البقعة

المهمة من زعماء واعلام وشيوخ قبائل، ودام الصراع النجفي مع الاحتلال صدمة اثر صدمة يهز صداها العراق ويثيره. واول الصدمات تلك الانتفاضة من البهاليل وقتلهم الحاكم السياسي وما جرت تلك الانتفاضة من حصار وماجريات ذلك الحصار. والصدمة الثانية ما حصل لمؤتمر الحاكم الانكليزي نومبري من الخيبة وصداها الذي هز العراق من أقصاه الى اقصاه. فقد عقد نومبري مؤتمرا فخما لاستطلاع الرأي عن مصير العراق السياسي وما هو نوع الحكم الذي يراد، فصرحت النجف بالغاية العظمى من دون مواربة ولا تردد قائلة ان العراق يريد استقلالا تاما ونظاما دمقراطيا نيابيا. فتأثر الحاكم البريطاني وتميز غضبا مما جوبه به، وتشددت في خذلانه سائر الطبقات العاملة في مقدمتها العلماء ورجال الفكر . وبقية المدن العراقية المهمة تبعت النجف في الرأي ، ومن ذلك الحين بدأ التحضير للثورة التي فجرتها الرميثة . لقد بدأ التحضير .

اولا – بالاحتجاجات ورسائل المطالبة بأقوى الاساليب وبلاغات الاستنكار .

ثانيا – لما جدد الرغبة نومبري المنهزم بعقد الاجتماع مع القادة والسادة العلماء في دار الحكومة وكانت البلاد على ابواب الثورة والاصابع على الزناد، وقد قام الانكليز بابعاد جماعة من الاحرار وفي طليعتهم محمد الرضا ولد الزعيم التقي وهنا جوبه بصرامة اقوى من المجابهة الاولى عندما قال ارجوكم ان تهونوا على الشيخ التقي نفي ولده، وسرعان ما قيل للحاكم اي ولد تعني فكل العراقيين اولاده المنفيين منهم وغير المنفيين .

وثالثا – بعد اندلاع الثورة وانتشارها حاصر الثوار القواعد العسكرية ومنها ما

كان في ابو صخير وهنا طلب الحاكم نومبري عقد اجتماع يحضره الحكام السياسيون في تلك الانحاء والعلماء والزعماء في الكوفة وبعد المساجلة التي اسمعت نومبري قارص الكلام بأسلوب مشبوب خصوصا عندما تشدق مدعيا حسن نوايا الانكليز واحترامهم للحريات ، اسفر ذلك الاجتماع عن عقد اتفاقية وقعت من الطرفين اشتملت :

اولا – افراج الثوار عن الحامية البريطانية في ابو صخير والاتيان بها الى الكوفة.

ثانيا – جلاء الحكام السياسيين الى العاصمة بعد الافراج عن احرار العراق المنفيين منهم والمعتقلين حتى يتسنى اجراء استفتاء حر.

ثالثا – ايقاف اطلاق النار .

وكان الجانب العراقي وفيا بعهوده ولكن الانكليز ما احترموا تواقيعهم، فلم يكن للنجف بد من المثابرة على الجهاد. الا ان الامر المأسوف عليه ان الثورة خنقت قبل ان تستكمل اهدافها ، واراد الدهاء الانكليزي ان يستغل الرأي العام وينحرف به عن اتجاهه فارسل الى العراق سياسيا معروفا عند العراقيين وهو «السر بيرسي كوكس» وزودوه بما يلزم لتشكيل حكومة وطنية تعتمد على الارشاد البريطاني . وعندما وصل المعتمد السياسي وتوفر بالاطلاع على الوضع وجد ان الوعود التي قطعت للعراقيين قد باخت . فاسرع بصياغة حكومة وطنية الشكل وطلب الى نقيب الحضرة الكيلانية تشكيل الحكومة المؤقتة حتى يركن الثوار الى الهدوء وبعد ذلك ينظر في وضع القواعد والاسس لحكومة دائمة. وينهمك العجوزان الانكليزي والعراقي

بخلق عجوز ثالثة تتقمص صورة فتاة تسمى الحكومة الوطنية.
وكان المقصود من تشكيل الحكومة المؤقتة افساح المجال للسياسي الموفد لاختيار شكل المؤسسة الدائمة واختيار الرئيس لها وذلك بعد استيعاب الجهد في دق المسامير الانكليزية بجانب الهيكل الوطني.
واقيمت المؤسسة، اما تثمينها فيعرف من المادة العاشرة للائحة التعليمات الادارية الصادرة من دار الاعتماد واليك تلك المادة :
" تعتبر جميع قرارات مجلس الوزراء قاطعة بشرط موافقة المندوب السامي عليها بصفته رئيسا للحكومة ".
وكان في هذه الوزارة السيد طالب نقيب البصرة الذي يرى لنفسه الاهلية لان يكون رئيسا لدولة عراقية ولكن الانكليز لا يأمنون جانبه . لقد كان يتجول في انحاء العراق داعيا لنفسه وكان الانكليز يقلبون اوراقهم ويمدون بابصارهم الى من يرشحون. واذا امعنا النظر في كتاب «اعمدة الحكمة السبعة» لكاتبه لورنس عرفنا منه ان فيصلا هو المرشح وهو الشخصية العربية المرغوب بها لاسباب عديدة اهمها شخصيته. كما ان من يطلع على ما كتبته المس بيل وما سعت به المس بيل يعرف ان فيصلا كان المرشح. ولأجل هذا المرشح سافرت مرتين الى دمشق وثالثة الى مصر ومن هذه السفارة أو من هذه السفرات كان للمس بيل اليد الطولى في ترشيحات كثيرة لبعض العراقيين الذين كانوا هابطين على دمشق. رشحتهم لمناصب وزارية وغير وزارية وكان الموقف المهم لها في مؤتمر القاهرة الذي حضره الداهية الانكليزي شرشل والذي تقرر فيه ان يكون فيصل ملكا على العراق وان

تؤسس حكومة دستورية نيابية دمقراطية . ولكن شرشل بعد رجوعه الى لندن رجع عن تفكيره او تقريره في ذلك المؤتمر وأبرق الى دار الاعتماد في بغداد يطلب منها لزوم اعتراف الامير في حفلة التتويج بان السلطة الفعلية سوف تبقى في دار الاعتماد . الا ان إباء فيصل ومرونة كوكس غيرت رأي شرشل . ومن هذا القبيل محاولة بعض البريطانيين ان تكون لفيصل امارة العراق لا الملوكية التي تدل على الاستقلال التام بخلاف الامارة لانه لا يطيب لذلك البعض استقلال العراق وان كان استقلالا مثلوما.

وغريب موقف فيصل في العراق من الساعة الاولى التي تصدر فيها حفلة التتويج حيث يجلس وبريطاني على يمينه وآخر على شماله أنه بين الحاكم السياسي العام وبين القائد العسكري العام. وهكذا تلازمه هذه الاحاطة البريطانية الى آخر عهده ، بل الى آخر الحكم الملكي ، ومن هنا كانت عقدة عند الكثير من العراقيين . ففي كل العهد الملكي والاكثرية العراقية تعتقد ان الانكليز وراء كل شيء، وفي ذلك ما فيه من خذلان الهمم واضاعة الجهود وكان من خطل بعض السياسيين من الانكليز في العراق انهم يتظاهرون بما يشد تلك العقيدة او العقدة.

ولكن اخيرا برع بعض الساسة في غير العراق بل وفي العراق بالتظاهر في الحملة على الانكليز وطرد الاستعمار والاستقلال بالحجارة ، ولكن خيوط الاتصال ممدودة من بعيد او من قريب. وقد نجحت هذه البراعة في كثير من المواقف . وبعد الانتقال السياسي من المندوب السامي الى الاستقلال المثلوم او المزعوم خفت وانحصرت السلطة البريطانية في الثالوث المقدس

لعبادة المصالح الانكليزية رقم اول النفط ، الثاني المواصلات، والثالث التجارة. وما عدا هذا فلا يهم الانكليز الا انهم في بعض الاوقات تدخلوا عندما رأوا ان التدخل ضروري فكان التدخل بصورة مكشوفة او مبرقعة مثل ما كان في عهد بكر صدقي ومثلما كان في حركة 1941 .

فعندما بلغهم ان بكرا يبيت اغتيال نوري وياسين الهاشمي ورشيد الكيلاني تقدمت السفارة الانكليزية بانذار يهدد بالتدخل العسكري اذا وقع ما هو مسموع وعندها تقرر اخراج ياسين ورشيد من العراق عن طريق الرطبة . أما نوري فلم يأمن الطريق البري وحلق بالطائرة . وفي عام 1941 تدخلوا تدخلا عسكريا بصورة مكشوفة كما انهم تدخلوا بصورة غير مكشوفة عام 1954 .

-36 -

ذكرنا انتقال الرياسة من المندوب السامي الى الملك وبقي الانتقال من الانتداب الى ما يسمى بالاستقلال وهذا ما تكفله المعاهدة او تلك البنود التي حددت في الظاهر مركز بريطانيا القانوني وابقت الاستقلال مثلوما من نواح عديدة اهمها ما جاء في ملاحق المعاهدة من الاتفاقيات العسكرية والمالية.

اما الاتفاق العسكري فيفرض ان يكون الدفاع عن الجانب الايمن لدجلة وعن جانبي الفرات على عاتق الحكومة العراقية ، اما مسؤولية الدفاع عن البصرة والعمارة وجانب دجلة الايسر فعلى عاتق الحكومة البريطانية . اما الاتفاقية المالية فكانت تقضي ان تكون كلفة دار الاعتماد على الحكومة العراقية وتقضي بالعفو عن الرسوم الجمركية لكل ما يتعلق بالجيش البريطاني وغير ذلك من القيود. لقد تحذلق البارعون من شياطين الانكليز في افراغ السلطة البريطانية من قالب الى قالب وتلك الحذلقة جعلت الموظفين من الانكليز يعتقدون انهم الكل في الكل. وصاروا لا يكتفون بمعارضتهم للوزراء في سلطاتهم القانونية بل يريدون منهم ان يكونوا تابعين في كل شيء.

ومن هذا الوضع تكونت قوتان متعارضتان ، ودوما يريد المستشار ان يكون السلطة المرهوبة وقد يبلغ فيه الصلف ان يقتحم مجلس الوزراء ويفرض رأيه. وقد يتجاوزون بتلك السلطة حدودها فترقى الى صاحب العرش وتفرض ما

تريد . هذه هي شنشنة الانكليز التي كانت سافرة ثم اصبحت مبرقعة ما لانت ولا هانت . وعلى مثل هذا مدت المائدة التي كان المطبخ السياسي في لندن والحجاز والعراق مشغولا بطبخ انواعها ، وبعد حفلة التتويج استقالت وزارة النقيب وعهد اليه الملك ثانية بتشكيلها .

وفي عهد هذه الوزارة كان العمل على انتخاب المؤتمر التأسيسي لوضع الدستور وقانون الانتخابات وقانون الجمعيات، واهم من كل ذلك التصديق على المعاهدة الانكليزية العراقية التي تثبت المطامع وترسخ النفوذ. ولأجل الحصول على ذلك اخذت الاصابع السياسية تلعب ، فغارات وهابية في بادية العراق وانتفاضات كردية في الشمال وحركات عشائرية في الجنوب ومظاهرات في بغداد ونزاعات على الحدود الايرانية واختلافات تركية عراقية، كل هذا والحكومة الوطنية غير راسخة القدم، انها حكومة شكلية تتلوى امام الانكليز وامام الشعب . وكانت الوزارة والملك كالحبة في المقلاة على النار. والشباب الناهض المستنير يريدون ان يتبوأ العراق المحل اللائق لطموحهم وبتاريخهم ، ويحاولون ان ينفخوا من روحهم في ذلك الهيكل حتى يصبح كائنا حيا له كيانه ومنعته ، لا حكومة تمويه تفرض نفسها بصلافة وعناد. ولكن برغم ذلك الشعور وبرغم تلك التضحيات بقيت الحكومة العراقية تطوح بها الهزاهز، والملك يخاطب الشعب قائلا : لا تتركوا فيصلا معلقا بين السماء والارض. لقد صدق الوصف فالحكومة الملكية في العراق عاشت كل ايامها معلقة بين السماء والارض، وقد سلمت من هزتين عنيفتين. سلمت من حركة بكر صدقي الذي حاول ان يكون اتاتورك العراق، وسلمت من

حركة 1941 التي كان تصميمها ازالة البيت الهاشمي وقد اوشكت ان تحقق اهدافها ، اجل سلمت من هذه ومن تلك ولكن ما كل مرة تسلم الجرة.

ان سجل ذلك الحكم المزدوج وبالاخص في عهد غازي وعبدالاله، كان مشحونا بالهزاهز . غريبة تلك الحقبة التي كان رجالها يلعبون بالنار في السر تارة وفي العلن اخرى. واكبر غلطة للسياسة البريطانية في العراق انها لم تنظر بعيدا حيث بنت القبة الكبيرة على عمد واحد وهو فيصل فاذا نهض نهضت واذا طاح طاحت . نعم ما كاد ان يتقوض ذلك العمد الا واختل التوازن واضطرب الحبل وكثر التنزي على الكراسي ولم يستوسق الامر الى ان انهار الحكم الملكي. وما ادري هل كانت معجزة فيصل في جدة عهده في العراق وجدة عهد الحكم الوطني ولكل جديد لذة ولو موقتة . او ان فيصلا كان موهوبا . وبعد ان نجحت لعبة الاصابع السياسية التي نوهنا عنها وبعد اضطهادات واعتقالات وتشديد القبضة على الاحرار لم تستطع الوزارة البقاء، فرفعت استقالتها. ويوعز فيصل الى النقيب بتشكيلها ثالثة ولم تستطيع هذه الوزارة البقاء بعد ان وقعت على المعاهدة الانكليزية الاولى فانسحبت وطوي بساط النقيب، ولما قبلت الاستقالة كلف السعدون بتشكيل الوزارة .

السعدون

كان العراق في العقد الثالث من القرن العشرين بوضع غريب لا هو بالفج

ولا الناضج. المخلصون يتطلعون في الافق لاستجلاء النور الجيد، والمستعمرون وعملائهم يتشبثون باعمالهم الناكصة ويريدون لها الصمود والثبات، والمؤسسة مهزوزة ومزعزعة ولما ترسخ. وفي المجال السياسي العراقي ثلاث افراس او ثلاثة فوارس فيصل ومحسن وياسين، وكان السعودن المخلص لوطنه وعروبته يؤمن بسياسة عربية عراقية تتعاون مؤقتا مع الانكليز، لان العراق بعد لم يستطع الوقوف على قدميه فلا حدود ولا جنود ولا رصيد مالي ثابت .

اما الهاشمي فكان الفارس الصموت النافذ في الزرد، وكان يقوم بسياسة المعارضة البناءة وكان يحسن اختيار الرفاق بل يخلقهم خلقا. وثالث الفرسان أو أولهم فيصل بطل الرواية ومدير الحركة. انه يمالئ هذا ويماشي ذاك ولكنه لا لهذا ولا لذاك . ان فيصلا كان لا يشعر بالارتياح حينما يتولى محسن او ياسين لان له حاشية يريد ان يشق لها الطريق، يريد ان تأتي نوبة جعفر او نوري.

لقد كان السعدون آية في الخلق العربي وكان واثقا بنفسه نزيها في الحكم بعيدا عن الاستغلال . وكان متسما بالطابع البدوي صريحا واضحا يمتاز بالصبر والتسامح . وفي وزارته الثالثة بعد ان أمن الحدود ووضع للبلاد دستورها وغرس نواة الجيش اخذ يعمل على التخفيف او التحلل من القيود المالية والعسكرية التي جاءت بها الاتفاقيات البريطانية فاثقلت كاهل العراق وحملته ما لا يطيق. فكان يريد تقليص مصروفات دار الاعتماد وشمول الرسوم الكمركية للمواد المستوردة باسم الجيش البريطاني، وان لا تعهد

الاحكام العرفية الى القائد البريطاني على حين ان البلاد تتسم بالاستقلال ، وان تعود مسؤولية الامن الداخلي والخارجي الى الحكومة العراقية . وقد كان اعتماده في هذه المفاوضة على حسن صلاته بالمندوب السامي آنذاك وكانت ثقته بالوعود المقطوعة تجعله متفائلا. ولكن ما عتم ان اصطدم واحس بتقلب الافعى، فكانت التجربة قاسية. وكاشف المعارضة . وبصدق واخلاص اشارت عليه المعارضة بالاستقالة ، متفقين على عدم القبول بتشكيل وزارة ما لم يتبدل الموقف الى ما يشجع. فاستقال وأدان باسقالته دار الاعتماد. وتأثر الرأي العام العراقي بهذه الاستقالة . وبعد تطورات في الداخل والخارج حيث عزل المندوب السامي في العراق وتشكلت في لندن حكومة للعمال واعلنت انها تلغي الانتداب في العراق وتعمل على ادخال العراق في مجلس عصبة الامم، عند ذلك استدعي السعدون الذي كان مستجما في لبنان والف وزارته الرابعة بعد الاتفاق مع المعارضة التي قررت التعاون معه ودخل في الوزارة ياسين قطب المعارضة التي ساندت السعدون كل المساندة. وكان السعدون في هذه الوزارة غير السعدون الذي عرفته الوزارات السابقة، لقد ترك ذلك التحفظ وانفجر بالخطب النارية تتنزى وتنطف بالدم . فما اهول تلك الصراحة التي لم ينسها العراق ولا التاريخ عندما جوبه في البرلمان بالتشكيكات في الوعد الذي جاءت الوزارة على اساسه. اسمع بربرة الليث في ذلك التصريح الجريء الذي انفجر به السعودن قائلا لذلك النائب المساجل اذا لم ينجز الوعد ولم يدخل العراق مجلس عصبة الامم ولم تلغ المعاهدة الجائرة والاتفاقيات وتتجدد معاهدة لا تغمط الحق وتكون على

اساس الاستقلال التام ، اذا لم يتحقق ذلك فاني اعتقد ان نوال الاستقلال يكون تابعا لارادة الامة، التي يجب ان تتهيأ من الان لا بالاقوال الفارغة فان الاستقلال يؤخذ بالقوة والتضحية . لقد هز المجلس والشعب هذا التصريح الرهيب وهو يصدر من المسؤول الاول في مجتمع الامة الممثلة في ندوتها الرسمية. ودهش فيصل فاسرع الى دار الاعتماد التي كانت تشاركه الدهشة ، وهناك تبودلت النظرات المستريبة التي كانت من البريطانيين نظرات خيبة ومن فيصل نظرات شماتة وكأنه يخاطب البريطانيين قائلا هذا الذي تريدون ان تزاحموني به .الم اقل لكم اعتمدوا علي وكفى!

وتحركت شياطين السياسة وابالستها فتعالت اصوات وتهامست اقوام وهبت أعاصير في وجه ذلك الثائر لبلاده والمخلص لقومه. وقد لاحت مقاتله للذين يريدون الفتك به . وكبر على السعدون ان تقابل نخوته بذلك الزيغ من العراقيين وغير العراقيين وشعر انه وحيد في الميدان. ولما استيأس قال للانكليز اذا كنتم تريدون تحقيق الصداقة فاجيبوا مطاليب البلاد والا فانكم تخسرون وسيطا ناصحا. ولكن الصلف الانكليزي رد عليه بخيبة الامل فنبضت عروقه بدم الامجاد والاجداد ، ولما رأى قلة من يفهمه وتكاثرت في طريقه العقبات تناول القلم ليرسم الحكمة الصارخة . «الامة تريد الخدمة والانكليز لا يوافقون ، ليس لي ظهير» ثم تصور ان القلم عاجز عن ان يفصح بما يجيش به صدره الكريم، فتناول المسدس مدويا بما يريد بثه قائلا «اني الاشد اخلاصا» . وعلى الفور اجتاحت البلاد موجة عارمة من

الغضب وانتقل الحديث من الافواه الى العيون فهي تتخاطب بلغة حارة ترسم سطورا وتمحو سطور ولكنها ترسم بذلك المحو سطورا مفجوعة.

وكادت الهزة ان تطيح بالمؤسسة لو لم تسندها شياطين السياسة بدموع التماسيح والتأبين الكاذب وقطع العهود بالتمسك بمبادى محسن وتحقيق اهدافه، وان حزبه هو الذي يتولى الحكم. وكلفوا عميد الحزب وعمدة محسن ناجي السويدي بتشكيل الوزارة. وتصلب ناجي تمسكا باهداف سلفه بكل شجاعة غير مكترث بما يطبخه البلاط، ولما بدا له الشر عريانا واصطدم ناجي بما يبيتون رفع استقالته وضج الشعب لها. ولكن حانت الفرصة الذهبية لفيصل وتم له تشكيل وزارة من حاشيته فكان ملكا ورئيس وزارة . وعمل على عقد معاهدة عام 1930 ، وظهرت وجوه عراقية وغير عراقية واختلفت قسمات تلك الوجوه فمنها ما كان مثل الحروف المغطوشة والكلمات المعماة لا يمكنك قراءتها واذا قرأتها لا تفهمها. ومنها ما كان مثل الحروف المنقوطة تقرأ بوضوح وسهولة. وجوه قاتمة ووجوه مشرقة كل ذلك في الملامح والمخائل، اما الدم فمنه العربي ومنه غير العربي ومنه المطعم او المهجن وكثير من هؤلاء واولئك كانوا كمجموعة نحل تأكل الزهر ولكنها لا تلسع ولا تعطي العسل .

لقد امتحن العراق بقادة وحكام اغراب وان كانوا من ارساس عربية، ذلك لأن نشأتهم ومدرستهم كانت غير عربية فهم لا يعرفون عن العراق والعراقيين الا النزر اليسير .

-37-

نجا مفتي فلسطين من مصايد الانكليز ملتجأ الى العراق، واحتفى به الوزراء واتفق لي ان ادعى من قبل احد معارفي لتناول العشاء مع المفتي وابن عمه السيد جمال الحسيني ، فكانت ليلة سمر طيبة وذكريات غالية للفرات والفراتيين وكيف كان الجانب الايمن للفرات رواقا مادا للطنب العربي، فمن التاريخ البعيد حتى اليوم والموجة تتلو الموجة في ذلك الوادي الذي كان مشتلا وبستانا للعرب . وكان السيد جمال يتبارى معي في ذكريات الامجاد لانه سبق وكان متصرفا للواء المنتفك في العهد العثماني، وكان ختام السمر ان يقول لي «انكم معاشر الواعين من ابناء الفرات لكم رسالة يجب عليكم وعلينا ادائها». قلت " وما هي؟" قال «ان كل فراتي يعبد صنما فيجب ان نمنعهم من عبادة الاصنام ». فملكتني الدهشة وانتفضت في وجهه قائلا «لا اعرف قطعيا عبادة للاصنام في الفرات» . ورد علي «انهم يحملون قرصا من الطين يسجدون له» .وهنا انفجرت ضاحكا من هذا الشطط فقلت يا شيخ ان الفراتيين مسلمون موحدون ومن جمرات العرب العاملين بالمأثور عن النبي العربي القائل خلقت لي الارض مسجدا وطهورا، وهذه الطينة المجففة قطعة من الارض التي امرنا بالسجود عليها لا بالسجود لها كما تزعم وهي اعتزاز قومي ووطني واسلامي اختص العراقيون به، ان هذه القطعة المشرفة التي حملوها بعزة واحترام من الارض المشرفة أرض

التضحية والجهاد ارض كربلاء المكرمة بدم الشهداء ، اليست هي ازكى من غيرها من التراب؟

اين هذا القصد الاسلامي الاسمى والقومي الاعز من عبادة الاصنام على أن السجود عند الفراتيين غير منحصر بهذه التربة بل انهم كبقية المسلمين يصلون على الارض الطاهرة ونباتها فكيف نشوش ونشوه هذا الاعتزاز ؟

وقريب من هذا القول الغريب ما سمعته من السيد ابراهيم الحيدري . قال السيد : «كنت شيخ الاسلام في الاستانة فوجدت في سجلات المشيخة ان المشيخة كانت ترسل المرشدين الى الديوانية في العراق لارشاد اهلها الى التعاليم الاسلامية لانهم فرس وديانتهم الوثنية الفارسية» ويسألني السيد ابراهيم شيخ الاسلام وأحد أعضاء مجلس الاعيان العراقي وابنه أحد وزراء الحكومة العراقية .يسألني عن الديوانية واهلها فأقول له ان الديوانية أحدى مدن خزاعة في الفرات الاوسط ، وخزاعة اهم قبيلة عربية ومن صميم العرب وهي من امهات القبائل الاسلامية ، وفيهم يقول النبي العربي لا نصرني الله ان لم انصر خزاعة وذلك عندما غدرت قريش برجل مسلم من خزاعة الامر الذي حمل النبي العربي على القصاص من قريش . وفي تلك الحملة فتحت مكة المكرمة. فمتى كانت خزاعة من الفرس؟ ولكنها تلفيقات اتراك تعربوا او عرب تتركوا لانهم نشأوا مع غير قومهم . ان اولئك الاغراب في النشأة او المدرسة شوهوا الوضع العراقي في عصرنا وقبل عصرنا. وقديما تشكى ابن المقفع في رسالة الاصحاب التي وضعها ورفعها الى المنصور كدستور للدولة الجديدة حيث يقول ، ان العراق مظلوم من اولئك الاغراب في نشأتهم

الذين كتب لهم التسلط على العراق فكانوا وصمة العراق والعراقيين ، وان العراق يبرأ منهم ولو ان الامير مد يده الى الاوساط الشعبية لوجد الاكفاء المخلصين في القول والعمل .

ومما كان من امر السعدون والسويدي شعر العراقيون وتغيرت اراؤهم في جملة من الرؤوس والوجوه وعرفوا ان الوزارة التي لم تكن من حاشية الملك تكون قصيرة العمر واذا كانت من الحاشية فهي طويلة العمر. وعلى مثل هذه الاوضاع انتهى عهد فيصل بالمناورات والمداورات وطويت صفحته في جنيف . وكان رحمه الله طموحا وصبورا ولا اعلم اي الصفتين فيه ترجح على الاخرى .انه يعرف القبضة الانكليزية ويعرف ان الانكليز متمسكون بمكاسبهم وانهم يهتمون لجيوبهم لا لقلوبهم ولكنه وهو ما بينهم طامح الى الهدف البعيد . غريب أمر ذلك الرجل الذي يعمل بكل برود مع قوم انتزعوا اباه من احضان بلاده التي غرسه فيها التاريخ وظللته شجراتها الممرعة المغدقة بالامجاد عشرات القرون ، غزوه عنوة ثم احتجزوه في قبرص «على عينك يا تاجر». وفيصل يعمل معهم طامعا ان يخرجهم من المكان الذي كانوا السبب في وصوله اليه ! ما ادهش هذه المداورة . لقد كان فيصل شجرة برية صلبة العود . انه مجموعة اعصاب عليها طابع الجزيرة سمرة وهيف، فسبحان باني هذه الاعصاب .

كان فيصل في بغداد أول أمره يسكن بيتا صغيرا متواضعا في «قصر الحارثية» وباثاث بسيط ومظاهر متواضعة لا تتناسب وشخصية كبيرة تريد الملك العضوض ، فهل كان فيصل لغزا ؟ لقد كانت له اناة كاناة ذلك الذي

يريد ان يصطاد السمكة الكبيرة بملعقة صغيرة والسمكة تسبح في حوض واسع عميق مملوء بالماء فلا هو يخوض الماء عليها ولا ينشر شبكة الصياد ولكنه يريد ان يفرغ الحوض بملعقته حتى اخر قطرة فيقبض على السمكة .
لقد كان ورستم حيدر كلا منهما يكمل الاخر وقد دلت الاختبارات على براعتهما فلو قدر ان يتكون منهما شخص واحد لما كان بيننا افضل من ذلك الشخص .

مات فيصل وجاء غازي وقد كان فيصل قويا في عقله ولكن غازيا قوي في عاطفته. اما عبدالاله فتردد بين عقله وقلبه . لقد قست الاقدار وجاءت نوبة غازي ولم يحمدها العراقيون، فكانت رجات في الفرات ، وحركات في الشمال وتنز على الكراسي في بغداد وابرز حادثة في عهده حركة بكر صدقي وما جرته من عقابيل وخاتمة المطاف ذلك الحادث المروع بموت غازي او مقتله.

مات غازي وولي عهده فيصل الثاني لم يبلغ السن القانوني لاستلام سلطاته الدستورية فاختير بحبك ومناورة عبدالاله وصيا على العرش . وقد مات غازي وهو غير مرتاح لعبدالاله، وكان يراقبه ويضيق عليه . وقد رغب الي بعض النابهين ان ازور عبدالاله بين اونة واخرى خصوصا وانه جاري اذ كان يسكن بيتا من بيوت السكك الحديدية الكائنة جوار الصالحية وهي الحارة التي كنت اسكن فيها فقلت لذلك النابه اني افضل الانكماش عنه، فقد اتفق ان زرت اباه وكان في مجلسه المرحوم سلمان البراك فجئت وجلست بينهما ويظهر الازورار على وجه الملك علي وهمس في اذني انه وزير

فقلت اني عارف حيث اجلس ونحن العراقيين يعرف بعضنا البعض، ولم يطل مكثي فخرجت على ان لا اعود برغم ما وصلني من اعتذار الملك علي. ويرد عليّ ذلك النابه تلك أمة قد خلت وقد انتهى الملك علي ومجلسه، ارجوك ان تزور جارك . فنزلت على رغبته واخذت اتردد عليه وقد حفظ لي هذه العارفة واخيرا أوعز اليّ من بلاط غازي ان اقلل من تلك الزيارات وان الامير مراقب . وظاهرة ثانية وهي ان غازيا بتأثير من الملكة عالية اعطى عبدالاله قطعة ارض من الحارثية مساحتها 2000 مترا مربعا لينشئ عليها دارا لسكناه. ويسعى نوري والصدر لزيادة تلك المنحة حتى تكون لائقة لسكنى امير فيقول غازي أيريد ان يأسس له بلاطا للمستقبل . وظاهرة ثالثة ان يخبرني محمد رستم حيدر ان بعض الساعين قالوا لغازي ان رستما والصدر ونوري وجعفر يريدون ان يكون لعبدالاله شأن في العراق.

اختلاف العائلة المالكة

لقد كان بين عائلة الملك علي وبين اركان البيت الهاشمي خلاف عائلي مستحكم ظهر بجلاء بعد موت فيصل ولما اقترن غازي بابنة الملك علي ذلك الاقتران الذي اقتضته الظروف ظهرت عبقرية الملكة عالية، حتى اني سمعت سياسيا عراقيا يقول يوم موت عالية اليوم مات فيصل الاول . وكانت عالية السياسية الوحيدة في البيت الهاشمي ، وكانت سندا قويا لنوري

عند غازي الذي لم يكن راغبا فيه . ولأجل الملكة عالية اصر نوري على وصاية عبدالاله ابعادا لبقية الاسرة لان عالية لا ترغب ان يقتربوا من عرش ولدها ، فاوعز نوري الى عالية ان ترفع كتابا الى مجلس الوزراء المنعقد للنظر في اقامة وصي على العرش تشهد فيه ان الملك غازي قد اوصى اليها فيما اذا وقع امر على حياته فالوصي على العرش عبدالاله، وفي ذلك ما يحمل مجلس الوزراء حسب صراحة القانون الاساسي على اقرار بوصاية عبدالاله . وهذه المساندة من نوري لعبدالاله جرت اليه المكاره من عبدالاله حتى اصبحت كل مواقفه مع نوري مخاتلة ومراوغة، فكثيرا ما كان يختار من يرى فيه الوقوف بوجه نوري ومن ذلك احتضانه لصالح جبر. واليك مثلا من تلك المراوغات وهو ما وقع في وزارة مرجان ، لقد كان علي جودة رئيس وزارة وكان نوري في سفرة سياسية . ويستغل الامير الفرصة ويعمل على استقالة جودة الذي كان زاهدا فيه بخلاف نوري فقد كان يرغب في بقاء جودة ، ويستقيل جودة فيوعز الامير بل يقرر قبولها، واستئزار مرجان. ويسافر قبل المراسيم الى الخارج تظاهرا منه بعدم الاشتراك في شيء، ويصل مطار لندن وقد سبقه قبل ساعة وصوله مطار لندن نوري السعيد عائدا من امريكا الى العراق، ويبلغه قرب وصول الامير الى المطار فينتظره قبل ان يتوجه الى العراق ، ويصل الامير ، وفي المطار يخبر الامير نوري باستقالة جودة ولما سأل نوري عما تم، اخبره بان الملك لم يبت فيها حتى مغادرته العراق وقد غادر لانه يريد ان يتصرف الملك مستقلا، ويقول نوري بالتريث الى عودة الامير وبعدئذ يكون قبول الاستقالة واختيار من يؤلفها،

ويقره الامير على ذلك قائلا «سوف تجتمع بالملك وتقررون ذلك» وحالا يتجه نوري وعند وصوله المطار في بغداد يكون في استقباله رئيس الديوان الملكي فيسأله نوري عما تم ويجيب بانه لا يعلم وعندما يقابل نوري الملك يخبره بان الامير في مطار لندن اجتمع به واخبره باستقالة جودة وان نوري يرى التريث في قبول الاستقالة حتى يعود الامير ويتم الاستيزاز الجديد. فيرد عليه الملك ان الاستقالة قبلت ووقع بالامس تكليف مرجان كل ذلك بحضور خاله وعلمه وتصويبه وباطلاع رئيس الديوان . فتأثر نوري وأسرها في نفسه وينصرف من البلاط وهو المغيظ المحنق.

وسبق عند استقالة وزارة العمري التي لم يكن لنوري فيها رأي ان يكلف المدفعي بتشكيل الوزارة ويقبل ذلك التكليف ولكن لما بلغه ان الشارع هتف بسقوطه تهرب من التشكيل . ويكلف الامير نوري بتشكيلها فيستعد لها ويحضر الرفاق والمنهاج ولكن الامير يعدل من وراء ظهر نوري فيكلف نور الدين محمود . وعندما تأزمت الامور في عام 1954 يدفع السفير الانكليزي الامير عبدالاله للشخوص الى لندن لاجل احضار نوري واقناعه بتشكيل وزارة وافساح المجال له فيما يقترح ويريد ، فيتوجه الامير وهو مكره لا بطل، وكان نوري تحت التداوي وعند المفاوضة يشترط للقبول امورا عديدة منها حل المجلس حالا واجراء انتخابات جديدة وان تطلق يده في اختيار الوزراء ويوافق الامير على كل ذلك.

ولما حضر سرسنك دعى نوري من اختار للاستيزار وطلب اصدار الارادة بحل المجلس واخذ عبدالاله يدس وادرك نوري ما كان مع بعض الوزراء

فقالها كلمة حاسمة، اني حضرت من اوربا على شروط واذا تزعزع بعضها فاني عائد من حيث اتيت، ولما عرف عبدالاله صلابة عود نوري ترك الامر له .

وغريب نوري الذي نشأ في حضن المؤامرات والمناورات انه يعرف نوايا عبدالاله نحوه ولكنه يبعده عنها، ويعطي ولا يأخذ كأنه مشدود بحبل خفي ، وكان عبدالاله يرى في نفسه انه الوارث الوحيد لسلالة البيت الهاشمي .

ففي موقف من مواقف الجد خاطبني قائلا بارتفاع صوت واندفاع " اني هاشمي قبل كل شيء بالفعل والعاطفة والتقاليد، يا هذا انا غلبنا مرة واحدة ولا نغلب بعدها ". وكان عبدالاله لا يعرف الاستقرار في الرأي ولا في السفر ولا في الاقامة ، وكان عندما تضيق به المواقف يقول في خلواته انه سيترك العراق ويستريح. وقد قال لي ماذا تريدون منا اننا مستعدون لترك كل شيء. كما اني علمت ان نوري ضاق به فارسل اليه شخصية عراقية لتقول له عن نوري ان وجوده قد انقلب خطرا على العرش وقد برم منه العراقيون، وان الحكومة مستعدة لوضع تشريع يتكفل الصرف عليه اينما يكون فليترك الامر الى الملك . وكان عبدالاله يعد بذلك ويخلف وبرغم كراهيته لنوري، او خوفه منه ما كان يختلف معه على الجوهر بل الخلاف على المظهر فقط . وكان لكل منهما حاشية وبطانة وكل منهما يكره رفاق الاخر، ويتدرج الخلاف بل يتطور الى هم كبير يأكل قلب عبدالاله ويلوح له بالخطر. وكانت المفاجآت ترهصه فهو يلوك نفسه بحسرة ومرارة والناس من حوله لا يعرفون . ومن تلك الارهاصات ان ارشد العمري كان باندفاع يشبه الهستريا

يدير الانتخابات في الظاهر بصفة حيادية ولكن معمل الترشيح كان في غرفة رئيس الديوان الملكي، وكانت المحاولة المجيء باكثرية بلاطية تحمل شعار نواب مستقلين وبعيدين عن رجال السياسة خصوصا عن نوري الذي كان في لندن ومنها يبعث بالرسائل الى البلاط محذرا من مغبة هذا الاتجاه. وكانت رسائله بواسطة خليل كنه يوعز له ان يقوم بتلاوتها على الامير . ولكن ارشد يداوم على الاتجاه حتى اتم الانتخاب حسب الخطة ، ويفاجئ الناس بالهزيمة الى الاستانة تاركا استقالته على المنضدة غير منتظر قبولها. فكان ذلك غريبا لاول وهلة ولكن تكشف الموقف عن تدخل السفير البريطاني قائلا للامير بحزم وشدة لا بد من جلب نوري ليتدارك الوضع ، والامير يعرف جيدا من عام 1941 بان اقامته في العراق مستندة على حراب الانكليز وان الشعب ضده، فهدم ما قام ببنائه وطار ليعود بنوري . وبعد ذلك بزمن فاضت كأس عبدالاله بالغضب على نوري فكان يعرض به ويدس عليه واتفق له ان يقول لي بلهجة التذمر ماذا يريد منا هذا الاطرش . واخيرا لم ينفع الشاب المستوي على العرش خاله كما لم ينفع خاله المعارضون لنوري ولم تنفع نوري صداقة الانكليز الذين يبس عودهم وهرب نفوذهم من العراق. لقد كان التاج معلقا بخيط من وهم وفجأة انقطع الخيط واستراح الراكض وراء السراب ومضى وفي قلبه ورمان في وقت واحد ورم 1941 وورم نوري السعيد ولم تفارقه انطباعات عام 1941 طيلة حياته وكان تأثره عميقا.

مات غازي ولم يكن لسياسة البلاط وجه يعرف بل كانت سياسته تتأرجح

يقل فيها التوازن . كما ولم يترك لابن غازي المجال حتى يعرف اتجاهه . وكل سياسة البلاط ظهرت في عهد فيصل الاول وفي عهد ولي العهد عبدالاله، ولم تكن سياستهما متقاربة. ترى فيصلا يعمل المستحيل ليشق الطريق الى نوري وترى عبدالاله يضع الفخاخ ويزرع الالغام في طريق نوري واكثر ما يحتدم الصراع بينهما عند الانتخابات النيابية فكل يجر النار الى قرصه ويحاول ان تكون الاكثرية في جانبه. ولم يقتصر الاختلاف بين سياسة فيصل الاول وعبدالاله على هذا فقط بل هناك وجوه اخرى . ترى فيصلا حازما يحز على المفصل وتراه يتقصى عن رجولة وعزيمة عند اشتداد الازمات .

أما عبدالاله فمتناقض يخور تارة ويتماسك اخرى. ومن المواقف التي انهار فيها اتجاهه الى الديوانية يوما والى البصرة يوما ومن البصرة الى الخارج، وكان الفضل في هروبه الى البصرة يعود للامريكان وبعد ان تمكن من خرق الحصار الذي ضربه عليه الجيش يذهب الى دار عمته صالحة في شارع ابي نواس ، ويرسل له الامريكان زورقا بخاريا عليه العلم الامريكي فيحمله الى موضع الدورة حيث هيأوا له سيارة تحمله الى معسكر الانكليز في الحبانية فسار وهو مستلق في السيارة ومغطى بنسيج من الحرير نثر عليه الورد حتى لا يشعر احد بالراكب، ومن الحبانية يستقل طيارة بريطانية الى البصرة تهبط به على بارجة كانت في شط العرب ومن هناك الى الجيش الانكليزي في فلسطين.

هذه ليلة وكان في غيرها من الليالي يصله الف تحذير فلا يأبه لانه كان

يعلم بالامر المبيت وهو حركة الجيش انسلالا الى الاردن او الى لبنان .
وبما ان قصر رحاب على طريق الجيش المسافر انسلالا فالأمر لا يهمه وانا لا أدري أهي البلاهة او الايمان.
وفي انتفاضة 1948 يخور وينهار ويقف وراء المذياع متهدج الصوت مغرورق العين يطلب تهدئة الشعب المنتفض، وينتقل من دار الاذاعة الى قصر رحاب داعيا رجالات البلد قائلا لهم والارتباك باد عليه لقد رفضنا المعاهدة وقبلنا استقالة الوزارة ورشحنا ارشد العمري لتشكيل الوزارة، فيرفض الحاضرون ارشدا وحالا يتحول منه الى السيد محمد الصدر، وكان ذلك اكبر دليل على الارتباك فشتان بين ارشد والصدر، ويتم استيزار الصدر في حلك الليل وبعد ذلك يدعو الامير الحاضرين الى الاستراحة وتناول الشاي معهم، وهناك تنتشر دموعه ويرفع ورقة تنازله عن الوصاية ويرفضها الحاضرون بما فيهم الوزارة الجديدة ويبقى منكمشا في زاوية من القصر .
وفي عام 1952 يستشيط فائرا، ويظهر بمظهر الجبار وذلك بعد عودته من امريكا وهو يغازل احلامه، وتطوف به اطياف بهيجة . رجع ليجد مذكرات الاحزاب السياسية وقد افرغت في اسلوب لم يتعود عليه ، ويدعو رؤساء الاحزاب، طه الهاشمي، كامل الجادرجي، مهدي كبه، نوري السعيد، صالح جبر ، فيدخل عليهم غضبان ، بادي العصبية ، طالبا منهم ان يتكلموا الواحد تلو الاخر، قائلا: منذ وزارة مصطفى المضعضعة وانا اسمع الانباء المزعجة ، فاريد منكم ان تبسطوا ارائكم في الوضع وما يقتضيه، ولا بد من الصراحة. فيقول طه ، قد بسطنا ما عندنا في مذكراتنا وجئنا لنسمع الجواب.

ثم تكلم السعيد ، وعلق على كلامه الجادرجي، وعارضه طه ليقول ، ان الوضع يحتاج الى اعادة نظر ، ولكن بنظرة جدية وعميقة. ويتبارى كل من كبه والجادرجي، ويصيح طه متسائلا ، من كان منا حرا في تأليف وزارته؟ واتجه الى الامير قائلا، ان مدة وصايتك على وشك، فاحسن الخاتمة بما يجب من القيام بأعمال تهيئ للملك المقبل عهدا فيه الكثير من الاستقرار، ويكون الحكم بعيدا عن الاستغلال والتلاعب.

فيتميز عبدالاله غضبا من هذه المجابهة، وكان لا يستقر به المجلس بل يخرج من القاعة ويعود، وفي اخر عودة يهتاج وينفجر والتأثر باد على قسماته قائلا : اني منذ هبوطي العراق اسمع الناس يسلقون الحكومة بالسنة حداد، وينتقدون الانتخابات والوزارات زاعمين ان البلاط يتدخل. وبعد وفاة عمي فيصل كثر تناحر الاحزاب، فما شأني انا، بل وما شأن البيت المالك، لست انا المسؤول ، انتم كلكم تكذبون علي، متى تدخلت في امور الدولة؟ ولماذا لم تعترضوا علي عندما اتدخل؟ وقال لطه، انك تكذب، ويكررها فيصيح طه محتجا: انا رجل شريف، ويخرج من القاعة مغضبا .وهكذا كانت الامور ازمة اثر ازمة، وقد شعر الساسة بثقل الامير، وان وجوده يهدد بالخطر حتى ان شخصية سياسية اجنبية مهمة نصحت قائلة لوزير الخارجية : اذا لم تتداركوا امر هذا الامير فسوف لا يبقى بلاط. واهم نقاط ضعفه انه كان يصطفي من لم يتحل بالمؤهلات فيرتبك عليه الامر ويتراجع ولكن مؤقتا، ثم يعود فيجري وراء خياله .

لقد استمر عبدالاله على رأس الحكم ، واستمرت الوزارات تروح وتجيء ،

وفي عام 1947 كان المرجل يغلي ، والسياسة توقد تحته طابخة للعراق طبخة جديدة هي الدفاع المشترك ، تحقيقا لما ينعتوه بالحزام الشمالي الذي يشد ظهر تركيا وايران الواقعتين تجاه تخوم روسيا، ذلك الاخطبوط الذي اربك العراق والعراقيين وتفتح على عبدالاله وعلى الوزارة ابوابا لم تسد حتى اليوم. وكنت لا اعرف شيئا عن الوزارات العراقية وكيف تتألف حتى عام 1950 عندما كلف الايوبي بتشكيل وزارته الثانية ورشحني في من رشح، اجل لقد رشحني وزيرا مشاورا او كما يسمونه وزيرا بلا وزارة، فدخلت الدهليز وانا لا اعلم اين ينتهي، وحيث اني كنت وزيرا بلا وزارة يسألني البعض ما هي حصتك في العمل واين مكانك؟ فقلت : ان بعض القصاصين يقول ان الله خلق الخلق وعين لهم اسباب رزقهم، فكان الحبل والفأس للحطابين، والمحراث والمنجل للفلاح، والحباب والخوابي المملوءة بالاصباغ كانها دواوين السياسيين للقصارين والذراع وسلق المشتري بالدعاوة واليمين الكاذبة للبزازين، والمطرقة والمنفاخ ذلك المنفاخ الذي يشبه افواه بعض الخطباء للحدادين، وهكذا دعى كل العاملين ووجههم لاعمالهم، وجاء المعممون قائلين اين مكاننا؟ وما عملنا وقد نفدت كل الاعمال ؟ فقيل لهم ، انتم فوقهم، اذهبوا وشاركوهم حصيلة اعمالهم. اعرفت يا صاح اين مكاني وما هي حصتي، واليك مثلا عن تشكيل الوزارات العراقية.

ففي عام 1957 كنت عضوا في وزارة نوري ، ولما استقال جمعت اوراقي مودعا مجلس الوزراء وعائدا الى مجلس الاعيان، ويسألني الرفاق عن سرعة العودة فاقول : من لا اول له لا آخر له، انا حلس هذا المجلس قبل

كل شيء، فقال احد الاعضاء من الاعيان ، انت عضو في الوزارة الجديدة، فانكرت عليه لاني لم افاوض ، فاجابني اني متأكد انك وعلي جودة وعلي ممتاز اعضاء في الوزارة الجديدة . وبينما نحن نتجاذب الحديث يرن جلس الهاتف ، البلاط يتكلم ، نطلب حضور علي الشرقي، واذهب الى غرفة رئيس الديوان الملكي، واعرف ان علي جودة كلف بتشكيل وزارته الثالثة، ووجدت لمة من اعضائها، وعند حضوري يتلو رئيس الديوان اسماء الاعضاء ، وعندما استفهم من الرئيس كيف تم الاستيزار ؟ وما هو السبب في عدم مراجعتي؟ ابتسم قائلا ليس المسؤول باعلم من السائل ،انها كما ترى اولها علي، ووسطها علي وآخرها علي . لقد دخلت الوزارة عام 1950 واستمر استيزاري الى عام 1958 تتخللها فترات قصيرة ، وعرفت لاول مرة ان مطابخ السياسة العراقية عديدة ، وان الطهاة اولا البلاط ومن يتصل بهم البلاط، اولئك الذين تشده بهم حبال المعاهدات ، وخيوط البرتكولات، فهناك وحي وهناك تلويح وهناك تصريح، وثانيا رئيس الوزراء مشدودا الى البلاط ، وثالثا الملتصقون برئيس الوزراء، واخير يجيئ دور مجلس الوزراء ، وكانت الطبخة تصب من اناء الى اناء ، حتى تصل مجلس الوزراء ناضجة ، وربما يستنشقها الخارج قبل ان يشمها مجلس الوزراء . وقد لا تأتي مجلس الوزراء ، وأمثلة ذلك كثيرة، ففي وزارة الايوبي الثانية ، يسافر وزير الخارجية الى مصر بسفرة سياسية بدون علم مجلس الوزراء وذلك على اثر تشكيل حزب الوفد وزارته الاخيرة، وعندما يستنكر الوزراء هذا التصرف يعتذر الرئيس بانها سفرة قصيرة ولأجل جس النبض، ولكن الوزير يعود بمعاهدة

يسميها معاهدة الجنتلمن . وفي وزارة المدفعي وزارة التتويج تقع "مجزرة" في سجن بغداد ، ولا علم لمجلس الوزراء بتدبيرها واقوم برفع الاحتجاج الى الرئيس، واعقبته باستقالتي ، فقال لي الرئيس : اني اشاركك، ولكن امهلني قليلا حتى نخرج جميعا بصورة صارخة ، وما كان منه الا ان تستر عليها بتشكيل لجنة تحقيق ، وقالت الوزارة الوداع.

وفي وزارة السعيد عام 1954 لم تعرف الوزارة عن تشكيل نوري لجنة للنظر في انهاء معاهدة 1930 ، ولا عما كان لنوري ومندريس على البسفور ، ولا عما كان له وعبد الناصر على النيل، ولا ما كان له وايدن على التايمس من المذاكرات عن حلف بغداد. وكانت السياسة العليا تريد ان تلعب لعبتها القائلة ان معاهدة 1930 تمس الاستقلال باكثر من أمر، انها تمسه بالاستشارة في السياسة الخارجية ، وتمسه بالقواعد العسكرية وما يرافقها من امتيازات، فالاستقلال العراقي مثلوم، ولا بد من سد الثلمة بالغائها واستبدالها بحلف بغداد. كما لم نعرف شيئا عن اهداف القافلة التي توجهت الى امريكا، ولم نعرف شيئا عن ما جرى في دمشق وبيروت وشتورة والاستانة من المؤامرات والمؤتمرات . ولم يعلم المجلس بارسال الجيش العراقي في ليلة 14 تموز. اما سفر غازي الداغستاني لمقابلة الشيشكلي فلا علم للوزارة به. هذه وكثير من امثالها كان يختم على صفحاتها في غير مجلس الوزراء . تلك واجهة من الوضع واخرى كان يلوح للفاحص للمؤسسة ورجالها وخططها واهدافها انها قديمة لا اثر للجديد فيها ، فلم تكن حكومة عصرية في العراق، وانما هي عجوز تلمع وتحمر وتصفر باصباغ الجديد ودهانه.

لقد كان البلاط ومن حوله لا يرغبون كثيرا بالروح الحضارية ، وكانوا شديدي التمسك بالكوخات والشيوخ ، يشجعون نظامهم بقانون العشائر مثلا، ويمكنونهم من التوسع في الارض والنفوذ . لقد كانت سياسة البلاط عشائرية اكثر منها مدنية، لا اهتماما بالريف ولكن ابتعادا عن الحضر . وحتى في المدن المهمة مثل النجف الاشرف وكربلاء كانوا يهتمون بالجماعات التي تتعاطى بالنظم العشائرية، وهؤلاء اذا نبغ فيهم المثقف يفضلون عليه غير المثقف من قومه. وما الاعراض عن تأسيس لواء الكوفة والاهتمام والتوسيع بلواء الديوانية وحصر لواء كربلاء بسور النجف ونخيلات الحسينية الا من هذا النوع من التحيز. وكان الامير يعتبر العشائر قوة وسندا له في الملمات، وكان يهتم حتى بمن يتزيا بزيهم، وما مصاهرة امير البلاط لاحدى عشائر العراق، الا مظاهرة سياسية . وكان أثر الماضي في حياته اكثر، بل لا اثر للحاضر الا في هندامه وبزته ، وكانما في شخصيته امتداد للزمن الغابر ، فلم يكن في اعماق نفسه تجاوب للواقع الذي هو فيه . وكثيرا ما يظهر الارتباك في اختياره للوزارات، فطورا يأتي بها هزيلة بادية اضلاعها ، وطورا يأتي بها متغطرسة ظاهرة العنجهية ، وتارة يأتي بها شوهاء بوهاء . ومن الغريب انه بعد ان يكلف الصدر بالتستر على ما جرته وزارة برتسموث، يعود ويشنج الوضع بوزارة مزاحم ، وما ادري كيف تم استيزار من كان في زاوية منسية من المخزن الوزاري ؟ ثم يشكل الوزارة الايوبي ، وما كانت وزارة بل كانت شركا او فخا للاطاحة بالايوبي على الرغم من نوري الذي يرغب به، فما طالت مدتها اكثر من نيف وخمسين يوما .

وفي وزارتي الجمالي وسابقتها وزارة المدفعي حصل شيء من الهدوء ، ولكن ما عتمت القلاقل ان عادت على شدتها في وزارة مصطفى العمري، ذلك المتخوف المتردد. فما ان شكل وزارته الا وارتبكت الحال وحق لها ان ترتبك، ولما استيأس من قدرته على البقاء، انهزم ورفع استقالته في هزيع من الليل وترك البلاد في حيص بيص. فاستدعي نور الدين محمود في حلك الظلام لوزارة جديدة ، ولكن دام الغليان وصارت العاصمة تنتقل من سيء الى اسوأ. وهكذا استمرت الايام تستقبل وزارة وتودع وزارة ، ففي غضون عامين تلقت القوابل ولادة ست وزارات ،ولكن الحال دامت مستعصية ، وفي الاخير وضع رئيس الوزارة وهو ارشد العمري استقالته على الطاولة وهرب من العراق حتى ظن البعض ان في الامر أحجية.

اين هذا الوضع من خيال برنادشو حيث يتصور ان لا بد للمصلح من العمر الطويل ، فهو يقول متى تيسر للانسانية ان تنجب جيلا من الساسة يعيش احدهم ثلثماية سنة. فقد حان موعد الاصلاح بسياسة رشيدة ، اما الان فالمصلح يكاد يموت قبل ان يهتدي الى مواطن الاصلاح ووسائله الفعالة .

هذا قول شو والوزارة في بلاده تعيش مدة سنين ، فما هو القول في وزارة تعيش اسابيع . حقا اننا لفي حاجة الى وزارة يمد فيها عمرها حتى تتكامل في التجربة والنمو لتأمن من العثار.

ولما تأزم الوضع يشخص الامير الى اوروبا، ويلزم نوري باصلاح الحالة ومن الغريب ان الذي يطلب منه العلاج كان مريضا يحتاج الى العلاج،

ولكنه لبى الدعوة وشكل وزارة وحل المجلس وجرت انتخابات وصدرت عدة مراسيم مهمة ودخل العراق في حلف بغداد. ثم ترك نوري الوزارة للايوبي ، ويتركها الايوبي لمرجان ، ويتركها مرجان لبابان وبها يختم العهد الملكي . وقد طلع الشباب الصاعد فوجد ان العراق لا يواكب القافلة، وقد ذهبت به السياسة مشرقة تارة ومغربة اخرى، وقد غرر بالمشتغلين في سياسته ما كان من ركود مؤقت ، لقد كانوا في خمر والواقع المكشوف يقول بان في غد أمر فلا بد من انقلاب وشيك لا في اسلوب الحكم فقط بل ثورة جذرية ، كفانا التشبث بالاساليب الفاشلة، ان الاوضاع العامة بالغة في الاستشراء ما ينذر بانهيار المقومات وما على تلك المقومات ، وكم تطارحت الحديث مع من أأتمنه فكنت اجد تجاوبا في الخواطر ، ولكن كانت الحيرة في من يفجر الثورة .

-38-

لقد كان عمر الحكومة الملكية 38 عاما تشكلت خلالها 59 وزارة وحصل في عهدها 80 حادثة كبرى وكانت اهم قواعد الحكم قد وضعت في وزارات النقيب والسعدون ونوري، اما بقية الوزارات فبالرغم من كثرتها كان نتاجها نزرا اظهر ما به نقل الموظفين من دائرة لأخرى. لقد كانوا في وضعهم البارد يشبهون ما اتفق لركاب سفينة شراعية محملة بالاكياس المرصوصة «شد لندن» وفي ليلة باردة من ليالي كانون ضلت السفينة طريقها ويشتد البرد على الركاب فيقول لهم البعض ان الحركة تدفئ الجسم ، انقلوا هذه الاكياس من صدر السفينة الى مؤخرتها. وهكذا كانت اعمال الكثير من الوزارات الباردة وقد كانت اكثر الوزارات رهبة وزارات نوري وياسين الهاشمي وبكر صدقي ، وممن تكررت وزارته جميل المدفعي ويطلقون عليها وزارة اسدال الستار لهدوئه . ومن كل ما تقدم يلوح للمتتبع ان الوضع السياسي في العراق لم يكتب له الاستقرار فمن ساعة التأسيس بدأت الهزة في حفلة التتويج ثم جاءت حوادث التأسيس في مقدمتها ونتائجها ، وبعد ذلك بدء الصراع الخفي بين فيصل والسعدون وانتهى بالخاتمة التي مجدت السعدون. واستمرت الثورة السلمية على الانتداب وانتهت بالخداع السياسي الذي افرغ صك الانتداب في لائحة المعاهدة لسنة 1930 وبسببها كان للصراع السياسي مظهر جديد بين فيصل وحاشيته وبين المعارضة من حزبي

الوطني والاخاء. على مثل هذا انتهى عهد فيصل ونودي بغازي ملكا، وقد كان طيب القلب والعاطفة وكانت البلية في ضعف مداركه . لقد كان شابا مندفعا لا يعرف السياسة الحكيمة ولا يصغي لمن يعرفها. وظهر اندفاعه قبل اعتلائه العرش يوم كان ابوه خارج العراق وكان نائبا عنه فقد ارتبك في معالجة حادث الاثوريين مما اضطر والده الى العودة مؤقتا. ولما تولى الامر بعد ابيه كان الساسة الكبار من العراقيين يريدون له المقدرة على تعاطي الامور بحكمة وسداد رأى ولكنه كان في غير واديهم فلم يقدر تلك النصيحة، وكانت مواقفه السبب في تعاقب الانقلابات واضعاف مركز الكبار من الساسة ، ومن الغريب انه كلما ضعف امره ازدادت ثقته بنفسه فكان على الدوام يخبط في عشواء. وكان الشعب في دوامة من الحيرة حتى اصطدم فجأة بما هو اهم وادهى ، اصطدم بالبلاغ الرسمي الصادر في 4 ايلول سنة 1939 ينعي غازيا في حادث غامض.

مضى غازي وترك وراءه عقدا عديدة والبلاد بعد لم تتعرف على مفاهيم الدمقراطية الصحيحة. وكان الدولاب السياسي يدور بين جميل ونوري والكتلة العسكرية ، وكان جميل الى اخر ايامه يتطير من نوري كما فاتحني بذلك مرارا ونوري يعرف ذلك منه وعلى الدوام كان يعالج امر المدفعي من طريق جودة. وفي بعض الاوقات كان نوري يود تمشية الامور بالمدفعي لسلامة طويته فهو لا يأتيه الشر من قبله. اما الكتلة العسكرية فبعد تخلصها من بكر صدقي كانت تشعر بشذوذ الوضع وترغب باخلاص ان تنعم البلاد بحياة دمقراطية تكفي العسكريين امر التدخل في السياسة . وعندما قتل بكر

صدقي كان نوري خارج العراق ولم يكن الامر ممهدا لعودته، فدعي المدفعي لادارة الدفة لكن الكتلة العسكرية وضعت ثقتها بطه الهاشمي ووثقت بحسين فوزي.

ولما عاد نوري تعاون مع طه على التفاهم مع الجيش. وكان حسين فوزي رئيس الاركان . ودب الخلاف بين المدفعي والجيش ويتم التفاهم بين نوري والكتلة العسكرية على امور اعتنقوا الدعوة لها على ان تكون منهاجا للوزارة التي تخلف وزارة المدفعي . وشكل نوري تلك الوزارة على اساس ايجاد حكومة ملكية دستورية دمقراطية تعمل باخلاص واجتهاد بما تحتمه الضرورة للحياة الدمقراطية الصحيحة من قيام احزاب بناءة واجراء انتخابات حرة تمثل فيها تلك الاحزاب ، وان تطلق الحريات ضمن القانون وان تمثل البلاد تمثيلا صحيحا وان تتقبل للمعارضة مشاركتها في السياسة العامة برحابة صدر وان تشجع الصحافة المهذبة ، فاذا توافر ذلك ينظر في تعديل الدستور العراقي واصلاح قانون الانتخابات .

ولكن جاء نوري وخرج ولم يتحقق شيء من ذلك. وبقي الحكم غير قائم على الاسس الصحيحة مما استلزم ابقاء الاحكام العرفية في اكثر الاحيان، وبقي نوري عاملا على شد اواصره بضباط الكتلة العسكرية مصوبا لارائهم ومعطيا لها بالغ الاهمية وكانوا بعد ان نفروا من طه الهاشمي قريبين الى نوري بعيدين عن طه .

ولما امعن طه في الابتعاد عن رئيس اركان الجيش حسين فوزي اتفق هذا مع قائد الفرقة الاولى أمين العمري الذي كان مناوءا لنوري. واعانت على

ذلك الاتفاق يد اجنبية وهي يد المفتي الحسيني، ولم يكن العقداء مرتاحين للعمل ولا لتدخل المفتي ولكنهم لم يخاصموا المفتي لاجتماعهم معه على ما هو أهم وهو القضية الفلسطينية . وبدأ العمري وفوزي في تحقيق بغيتهما وهي ابعاد نوري وطه عن الاشتغال بالسياسة. ولكن نوري اطاح بهما قبل ان يطيحا به، ففي الهزيع الاخير من الليل استصدر ارادة ملكية باحالتهما على المعاش، وبقي الجيش بدون رئيس اركان لتساوي العقداء في المرتبة وامتناع تقديم احدهم فكانوا يعملون مجتمعين، وبعد ذلك اتفقوا مع الكيلاني رشيد والمفتي على ان لا يكون في الميدان السياسي من الحلبة الاولى الا ناجي السويدي فلا نوري ولا طه ولا المدفعي ولا جودة. ووقع الاصطدام مع الانكليز الامر الذي جر الى حوادث 1941 وعقابيل تلك الحوادث التي ذهبت بباقة فواحة من شباب العراق ورجاله وفي مقدمتهم فخر الشباب العراقي يونس السبعاوي رحمه الله، فما اشرف نفسه وما انبل مواقفه شباب تحليه الشمائل وعصامي تزينه المخايل نذر نفسه لقومه ووطنه لقد كان احيا من فتاة واصلب من حصاة مغامرا بروحه ومقامرا بحشاشته ثابتا في مزالق الامور الصعاب ، عرفته اول ما عرفته مصححا في احدى مطابع بغداد وقد تطوع لي في تصحيح كتاب ذكرى السعدون ، صعد وصعد حتى اعتلى كرسي الوزارة وركب «مطية» زيد، وهو واثق النجاح والخلود .

ومن حوادث سنة 1941 جاءت ايام العسرة وروع الناس بالكوارث، مشانق ومناف وغلاء وسوق سوداء وتهريب واستغلال نفوذ ، فكثرت الحزازات واستعرت الثارات، انفاس محبوسة وكبت مزهق يزلزل البلاد ويهدد بالخطر،

وانتفض الشعب باهول انتفاضة ولم تغط عليه وزارات المهازيل ، ولا خطبة الامير في قاعة الشعب تلك الخطبة التي اجزل فيها بالمواعيد الخلابة والتي كانت من وراء ظهر رئيس الوزراء حمدي الباجه جي في وزارته الثانية فكانت انذارا للوزارة بالنهاية ، ولا نفع استبدال وزارة الرجل المريض حمدي باشا برئيس تمد كهولته دفقات من دم الشباب وهو توفيق السويدي.

لقد فاتنا السرب ولم نزود بغير الحسرات فما حمدت وزارة حمدي ولا وفقت وزارة توفيق وانهمكت الاحزاب بتحضير الكبريت لاشعال الحطب اليابس .

لقد تجمعت على البلاد امور متناقضة واعمال غير متجانسة ، قوم في سكر ادار الرؤوس وقوم بحزم ووعي واضعين اصابعهم على الزناد ينتظرون ساعة الصفر. وقد عجل على اشعال النار عدة شؤون منها ضياع المسؤولية ، ومنها عدم الاهتمام بما يسهر عليه رجال الاستخبارات والمباحث ، ومنها ذلك الجراب المنفوخ الذي كتبوا عليه الاتحاد بين الاردن والعراق الامر الذي لم تقره حفيظة المسؤولين العراقيين واوجد عدم الانسجام بين الحكومتين . ويرفع رئيس الحكومة العراقية استقالته وكان المقرر قبولها بعد سفر الملك الذي كان وشيكا ولكن كانت الثورة وبطل التدبير وذهبت حكومة الاتحاد وحكومة العراق الملكية.

ومن غريب الصدف ان اكون في غرفة رئيس الديوان الملكي قبيل الثورة بيومين ويدخل احد وزراء حكومة الاتحاد وهو يضم الى صدره اوراق ميزانية حكومته بحرص واحتفاظ كأنما يخشى عليها من الاختطاف فقلت له مداعبا انت وزير حكومة جراد لا حكومة اتحاد، وهنا يدخل علينا وزير آخر لتلك

الحكومة فيقص عليه رفيقه دعابتي فيلتفت الي ذلك الوزير قائلا بلهجة عراقية انتم مؤآخذون اما انا قرأت له رباعية للخيام :

ان ســـر مخــفي نتـوداني ونـمـن

وان حرف معمي نتو خاني ونمن

هس دربس برده كفت كيو من تو

جن برده برفـتـد نتو ماني ونمن

وترجمتها له بقوله ان هذا السر المخفي لا تعرفه انت ولا انا، وهذا الحرف المعمى لا تقرأه انت ولا انا ، يوجد وراء الستار قول انا وانت واذا اسقطت الستارة فلا أنت ولا انا. ولم أكن اعلم بما يبيت ولكنه لسان الواقع. ومن هذه الدعابات توهم البعض بعد وقوع الثورة باني كنت على علم مسبق بما وقع.

دخل علي ديواني احد الزملاء من اعضاء الوزارة قائلا ما هذا النوم على العقارب. فطلبت منه الايضاح وبعد ذلك عرفت ان الجيش يهم بتوريث الثورة وان ساعة الصفر وشيكة ، وانهم يحاولون قلب الوضع فقلت وهل اطلعت الرئيس فأجاب وجدته مشغولا بمقابلة من لا تحسن المكاشفة بحضوره، فقلت ولكن الامر يستدعي العجلة ، اذهب واخبر امير البلاط وانا اخبر الرئيس عنك وعن ما جئت به ، ودخلت بالنبأ الى الرئيس فقال او انت ممن يقعقع له الشنان، الا تحتمل انها اشاعات يراد بها الشغب واذا ثار الجيش فماذا نستطيع عمله، فقلت يجب ان نجد مجالا للعمل والا فما معنى بقائنا على رأس الحكم، قال اني رفعت استقالتي منذ امس وانا بانتظار قبولها .

-39-

لقد اطاحت بالحكم الملكي ثورة الرابع عشر من تموز تلك الثورة التي تعاونت فيها الصدف والتدابير. فالملك الوديع كان قد شد حقائبه للسفر يوم السادس من تموز ولكن مراسيم وانظمة لحكومة الاتحاد كان يراد تتويجها بتوقيعه بصفته ملك الاتحاد استوجبت تأخير سفره الى اليوم التاسع من تموز وبعد ذلك وصلت برقية من شاه ايران وهو في واشنطن انه سوف يصل انقره يوم الرابع عشر من تموز وانه يريد الاجتماع هناك لشؤون سياسية فتأخر الركاب الى ذلك اليوم. ونوري الذي طار واهله للاصطياف على شواطئ اوربا والاستجمام في خمائلها ، تضطره الحال على ترك راحته واهله ويعود الى بغداد وقد بلغني انه لم يكن يريد العودة الا الى انقرة لينتظر الركاب الملكي ولكن برقية من فيصل استدعته الى بغداد ولم ينكشف امر تلك البرقية حتى الان. وعبدالاله كان ناجيا بمهجته وقد حرر مجلس الوزراء قائمة باسماء هيأة النيابة عن الملك المعتزم على السفر ، تضطره الخطط المفاجئة ان يقطع رحلته راجعا الى بغداد مجازفا بركوب طائرة صغيرة وغير مريحة وبطيئة بعد ان اعياه الحصول على احسن منها وهو يريد سرعة الوصول ليلعب بالنار او لتلعب به الاقدار . انه يريد ان يزج الجيش والقدر يريد ان يزج به الجيش. لقد كان معتزما تشكيل وزارة تخلف وزارة بابان تشجعه على المغامرات والاندفاعات حينما يقوم بالنيابة عن الملك المسافر.

اجل ينام ذلك الراكض الى الموت وتنام بغداد ناعمة وادعة ولكن الاقدار تنشر لها الشباك. لقد كان تقدير القوم ان يطير الملك وحاشيته الى الاستانة لأيام ومن بعدها تتوجه القافلة الى لندن للتفاوض في امور عربية حول الكويت ودمشق وعمان. واحسب ان رأس البلية هو الكويت والمستقبل كشاف. وان يبقى عبدالاله في بغداد مناجيا احلامه باتمام الاهداف، ولكن الاقدار كانت تضحك،وختاما لهذا البسط يصح لي ان اقول جاءت ثورة 1920 بدون تمهيد فلم يكتب لها النجاح التام. والانكليز، وان كانوا صاغة ملوك وصناع دول، لكنهم في العراق لم يفرغوا الهيكل باتقان، فلم ينشأ الوليد نشأة كاملة وبقي المهد مهزوزا تارة باليمين وتارة بالشمال :

فيا من وضع اللبنة هل اعجبك الصرح

ويا من طبخ الطبخة قد اعوزها الملح

ومن اسباب الاطاحة الصراع الخفي بين الانكليز والامريكان في الشرق العربي وذلك الاختلاف في الاتجاه السياسي فالانكليز محافظون بالطبع يصعب عليهم التبديل والتغيير بسرعة في الوجوه والتقاليد خصوصا في الشرق والشرق العربي بالاخص، والامريكان متجددون يريدون تبديل الاوضاع العتيقة والاتيان بوجوه جديدة فهم لا يهتمون بالعروش ومن عليها ويحسبونها اسطورة ، والملوك زوائد على جسم النظام العام ، ويخافون على هذه الارجاء من البعبع الشيوعي فلا يهمهم الا شبحه المخوف.

-40-

ضياع الحكم في العراق

كانت الزعامة في العراق اول ما كانت قابعة في ردهات ثلاث، صالون الولاية وليس فيه غير طربوش الوالي التركي وبجنبه عمود نشرت عليه قطعة نسيج رسم في وسطها الهلال . اما الحكم فيقال انه في الاستانة وان شئت فقل انه ضايع في ذلك الطريق الطويل يومذاك. والردهة الثانية بيت «رئيس القبيلة» وفيه اباريق القهوة وخوان الطعام. والردهة الثالثة مجلس المجتهد من علماء الدين وحوله كتب الدرس والفتوى. والحكم ضايع بين هذه الردهة وتلك. على مثل هذا جاءت الحرب العامة الاولى فتجاوب المدفع وزجل العشائر وفتوى المجتهد .

ولكن سرعان ما سكت المدفع التركي وانزوت الفتوى وخفت الزجل وعمر ديوان الحكم السياسي يسانده مقر القائد العام ، والحكم لا يعرف لونه. انه ضايع بين الطغمة الانكليزية والهندية والتقاليد العشائرية. ودب الوعي وتحسس الشعب وتجمعت فلول فكان تململ فحركات فانتفاضات فثورات اولدت عرشا ودستورا ووزارة واحزابا ودوائر يدعون انها مركز الحكم المعلق عليها الواحه المعنونة ولكن الحكم معشعش في غيرها .

اما الدمقراطية فدمية لا اقل ولا اكثر والبرلمان ندوة كلام لا هيبة لها ولا

تأثير .

وكانت الطاسة النيابية ضايعة بين المنطقة الانتخابية وبين الوزارة والبلاط ، وكان الشعب والنائب عنه ينتظرون الوحي من البلاط وكان الموجه الحقيقي وراء البلاط ، فهل كان الحكم بالبلاط او في مكان آخر او انه ضايع كموجود او موجود كضايع فمن يخرجنا من هذه الحيرة ويجد لنا الضايع .

لقد اشتهر العراقي بالقدرة على حمل الخاتم والحفاظ عليه في لعبته المفضلة «المحيبس» ، وقد لعبت بمحيبس السياسة عندنا جماعات سمت نفسها احزابا سياسية وما هي الا اجواق لعبة محيبس . فمن هو الحزب الذي حفظ المحيبس حتى نقول له كما يقول اصحاب هذه اللعبة «حفظ الله من حفظ» . أهو حزب الامة او حزب الوحدة او حزب التقدم او الحزب الوطني او حزب النهضة او حزب الاستقلال الوطني او حزب الاخاء او حزب الاستقلال او حزب الاحرار او حزب الامة الاشتراكي او حزب الاخاء الدستوري او حزب الكتلة او الحزب الوطني الدمقراطي او الحزب الوطني التقدمي او الحزب الشيوعي او الحزب البارتي الكردي ؟ ولكن قسماً بالمقدمات والنتائج والمبادئ والمناهج والخفي والبادي كل من هؤلاء لم يحمل المحيبس وكل ايديهم وقبضاتهم فارغة ولم تكن غير السياسة الاجنبية تلعب على هذا العظم وذلك العظم وبين آونة واخرى تصيح هذا العظم كسر.

ثمان وثلاثون سنة والسياسة في العراق تلبس بزة وتنزع بزة وكانت مثل الراقص على الجمر لا تستقر له قدم ، وقد كان الانكليز في العراق يلعبون

على الحصان الخاسر. تجربة فاشلة اثر تجربة فاشلة. والبيت المالك الذي شعر انه اقحم كان يتردى ويتردم في حيرة وارتباك يناوحه الهبوب من ها هنا وهناك. ففي يوم من ايامه السود وهي كثيرة كان اجتماع لمجلس الوزراء في قصر رحاب ويطلع علينا عبدالاله وبعد ان يستقر به المجلس اخرج من جيبه قطعة من «مخمل» حمراء لفت على دفتر صغير لوح لنا به، قائلا هذه مذكرات فيصل الاول اريد ان اتلو عليكم شيئا منها. تلى ولكن صفحة من كآبة تشعر بالحزن والقنوط جاء فيها ما نصه «انا فيصل ابن الحسين احيي ليلة ليلاء ليس عليها مسحة من ليالي بغداد تعاور اطرافي الهموم فتقض مضجعي وتثير الهواجس، ابعد تلك المكابدات وذلك الجهد والجهاد يكون ابي مخفورا او محجوزا في قبرص ، واخي الاكبر مع اهل البيت تتقاذفهم الامواج قد باتوا في كنف الله لا ادري ما تم لهم وأي مصير صاروا اليه انهم بيد الطورئ، وأنا هنا في العراق معلق بين السماء والارض» .. وتقطع العبرة على عبدالاله تلاوته ويقول نحن اليوم في مثل هذا الحال من المحنة «والمحن انواع» . وهكذا كان البيت الهاشمي يتحول من مأزق الى مأزق . فكم بث وكم شكوى سمعتها منهم وعنهم واخيرا كنت اتحسس انهم سيحاولون نفض اليد، ففي يوم وعلي جودة رئيس وزارة قد آب من سفرته الى الاستانة التي حمل اليها خاتم الخطوبة لعروس الملك ولكنه في طريقه للاوبة عرج على دمشق وهذا التعريج احفظ عبدالاله واتفق لي ان ازور البلاط، فيقول لي عبدالاله ماذا عندك عن تعريج علي جودة على دمشق فقلت لا اعرف شيئا فقال يجب ان تعرفوا كل شيء يا هذا . انا غلبنا مرة

واحدة ، غلبتنا الظروف المرة ولا تغلبنا بعد هذا ابدا . والحقيقة الصريحة انه بعد انطفاء فيصل الاول لم يسرج ذلك البيت الا بسراج دخانه اكثر من نوره، ثمان وثلاثون سنة مشحونة بالحوادث لم يعمل لها الا ثلاثة نوري وعبد المحسن وياسين .

أجل ثمان وثلاثون عمارة او طابق عمارة ملأى بالجهاد والعناد والضحك والبكاء انهارت كهيكل من ورق، وحصيلة ما رسمت لك ان العراق تخلص من حكم مولانا السلطان وسماحة شيخ الاسلام وصاحب السعادة وصاحب الشوكة ولكنه ابتلى «بالصاحب» الحاكم الانكليزي والمرشال الانكليزي ووزير المستعمرات. ولما ناضل وجاهد للتخلص من هذه الطغمة اسدلوا عليه ستار الانتداب ، ثم برقعوا لوحة الانتداب بمعاهدة معقودة مع مؤسسة لها بلاط ووزارة ودستور ومجلس امة، «اوصاف للزينة والبهرجة» وقوانين وانظمة ومراسيم لشد القيد والاخذ من الشعب بلا عطاء ، اما الشعب فهو كالمرجل الفائر ولكنهم للتنفس يرفعون عنه غطاء ويضعون غطاء بين آونة واخرى.

وكان البلاط أكمة ووراء الاكمة ما وراءها. والوزارة مشدودة مقرراتها بموافقة المراجع العليا . وما في مجلس الامة غير الخطب التي تتبخر بها الريح وكان اكثر الاعضاء ستارا حاكته السياسة مظهرا او مظاهرة لها .انه رداء للمؤسسة ولكنه رداء كله عقد. وهكذا كان التنقل بالعراق من قيد الى قيد ، استعباد ثم استعمار ثم استغلال ظلمات بعضها فوق بعض ، في كل موسم تيار جار وموج طاغ وكانت حاجتنا الى يد تقبض على المجذاف بقوة .

لقد كانت الرواسب من الماضي البغيض بمثابة جسور عبر عليها الظلم والتعسف والجور الى هذه الارض الطيبة فرواسب الاستعباد نصبت جسرا للخوف والوهم مكن الاستعمار من العبور الينا ورواسب الاستعمار نصبت جسرا للاستغلال وهكذا دواليك. كان البلاء يعبر الينا جسرا بعد جسر ، ومن خلال الضباب الغائم والعجاج القاتم والدخان المسيل للدموع نفذت الينا حفنة من الرواسب نعتوها عادات وتقاليد بعثت بالظالمين الى هذه الارض الحبيبة فافرغوا الهيكل وكتبوا على كل واجهة منه بالخط العريض شعارات وعناوين مغرية ومضللة في وقت واحد . وكان البعض منا يتعثر حتى بالفاظها فهو يأكل بعض الحروف او يعلس بعض الكلمات ، وتدريجيا وكما تصب القوة والنمو في عصب الوليد الناشئ ويدب فيه الوعي كنا ننفخ في ذلك الهيكل بشيء من الروح الذائبة مستوحين اهدافنا بعد ان فهمنا ما يراد بنا ومنا .

وبعد ان احتدم الصراع بين المخلصين والانتهازيين الذين استغلوا الفكرة الطيبة يوم كانت الأمية تشجع القوالين من الدهماء، وكان الواعون قلة فتمثلت على المسرح روايات وروايات كان الكثير منها ظالما للشعب وظالما للتاريخ. اما ظلمه للشعب فبالاغراء والتنويم والتقرب الى سياسة الشارع ودفع البسطاء الى المظاهرات والهاب الاكف بالتصفيق حتى اذا صعد السلم ذلك المتظاهر بشعبيته قلب للشعب ظهر المجن وتوجه به الى المنافي والزنزانات والمشانق .

اما ظلم التاريخ فكان يتمثل على صفحات الدعاوى وما تسطره اقلامها

وقاتل الله الدعاوى التي تلبس الثوب لهذا وتنزعه من ذاك وهناك اقلام متسرعة تسجل الطافح وترسم الظاهر كحقائق وهذه الاقلام كانت خائنة لما انعم الله عليها من موهبة التصوير والتعبير .

وبعض الاقلام تسمع الصوت من بعيد فيعجبها وكثيرا ما كانت الاصوات من بعيد مغرية فكانت تلك الاقلام خادعة ومخدوعة. وكانت بعض الاقلام لا تزن بالقسطاط فهي تكيل الشعبية لهذا والتبعية لذاك. فعلى كتاب التاريخ ان يتبينوا الابيض من الاسود وان يتفحص الكاتب منهم ويقتل الامور بحثا واستقراء وعليه ان يعرف ان ارض الزارعين اول ما يطلق عليها الماء تكون كثيرة الزلق ليس للراكض عليها غير الكبح . واليك خاتمة المطاف اقدمها قصيرة من طويلة .

حلمت وكأني في شارع الصالحية وقد تجمهر العراقيون لمشاهدة رفع الستار عن تمثال الفارس الذي نصبوه في مدخل بغداد . وشاهدت الفارس العربي بكوفيته وعقاله وعباءته يعلو جوادا عربيا يتحفز برفع الحوافر عن الارض ومن خلفه جون بول يصر بأنيابه متحمسا ويصيح تقدم اركض لتسبق، فقلت لجون بول الفرس لك قال لا، قلت الفارس لك قال لا، فقلت اي شيء لك قال اني املك اللجام وانه هو الذي يوجه الفرس ويتصرف في جريها، فقلت اني اخاف ان يغير الاتجاه فقال ذاك الذي نريده . فهمست قائلا كسر الله ذلك اللجام، ولم تمر الايام حتى رأيت اللجام مكسورا ولكن بعد ان جمح الفرس الذي رمح فارسه فقلت يا لله لقد ذهب الفرس والفارس واللجام .

لقد بدأت الثورة العراقية الكبرى سنة 1920 ولكنها خنقت قبل ان تستكمل

اهدافها . وكل ما تلاها من انتفاضات وانقلابات كان امتدادا لها فدفقة عام 1928 حتى تضحية السعدون التي طوت صفحة وفتحت صفحة جديدة ، ودفقة 1941 وكانت خاتمتها مريعة ، ودفقة عام 1948 نسفت ما بنته بورتسموث، ودفقة عام 1956ودفقة عام 14 تموز 1958 وقد انحرف بها عبدالكريم قاسم فجاءت دفقة 8 شباط سنة 1963 لترجع الحق الى نصابه.

فيا ايها الشباب الصاعد خلصوا ارجلكم من القيد وارادتكم من الوهم وقلوبكم من الوهن ثم احملوا المعول الى هذه الخرائب صارخين

نريد ان نروي الارض لا ان نغرقها ،

نريد ان ننور البيت لا ان نشب النار فيه .

ايها الشباب ان الشيوخ يقولون لكم ان الاستعمار هو القلب الحول وهو دائما يغزل ويحوك متنقلا من اسلوب عتيق الى اسلوب جديد ، ومن صناعة شعثاء الى صناعة لماعة بشكل ابدع ولكن المادة هي هي حديد صلب وليف خشن يمده سلاسل وحبائل ذوات زرد وعقد .

- 41-

حلم المستقبل

حلمت اني قد جريت مع الاصيل متجولا في جبانة النجف الكبرى «وادي السلام» الواقعة بالقرب من جبانة الكوفة «الثوية»، تجولت مناجيا ملايين الملايين من الارواح التي تمر فوقها وقد تخلصت من اجسادها ومن وضر تلك الاجساد ، كما اني تخلصت من سور النجف وما ضمت اضلاع ذلك السور . انك عندما تتجول في ذلك الوادي المنور تجد رملته الصفراء فواحة الشذى وترى ذلك الرحب مغروسا في الطول والعرض قبابا ودكاكا ومساطب وحيازات ولكن بوضع مشوش لم تنظمه صفوف ولا شقته طرقات ولا نجمته حدائق ولا ظللته اشجار. مهملة ويا للاسف تلك الجبانة التاريخية وذلك المهبط الجليل الذي حوى أديمه ملوكا وزعماء وعلماء وادباء تراهم كومة حول كومة وحشدا فوق حشد. ان هذا الوادي وما فيه من خيال وجمال وروعة والهام واحلام حلمت وكأني اشاهد فيه مؤتمرا من جماجم في ندوة كبرى او مجلس تشريعي لا يشبه ما ألفناه من المجالس التشريعية في العراق تلك المجالس التي لا فيها لا وحدة لغة ولا جنس ولا تقارب في الاذواق والاتجاه . كل ما فيها غريب فهي غاغات وخليط. تلك المجالس وما حشر فيها او حشي بين اضلاعها ، مجالس تقمصها الاستعباد والاستعمار والاستغلال تقمص اشخاصها وقوانينها ونظمها. مجالس تروح وتجيئ عن

سبب ولا عن سبب. انتخابات تتجدد وتتجدد ولكن الممثلين فيها كما قيل نسخة واحدة تعددت طباعتها واذا فرضنا انها تغيرت اشخاصا لم تتغير ارواحا . مجالس تشطرها رجال المال وارباب النفوذ فكانت شركة نفعية كل رأسمالها التحوير والتخلف وكل بضاعتها بيع الشعب بما يشبه بيع يوسف. لقد ذهبت تلك المجالس وأتت هذه الندوة المباركة التي تكثر فيها الجماجم الصلع من الرجال وتعلو جماجم السيدات اكاليل الشعر المشذب. ورأيت الى جانب تلك الندوة دارا للاثار وما اكثر الاثار في العراق. حفظت تلك الدار كومة من الجماجم العتيقة بازيائها القديمة، هذي عليها طيات من الغزل تشبه طيات العمائم وتلك الطيات تكون رفوفا واخرى عليها طية واحدة من الشعر الاسود او الصوف الابيض فالاول تسمى عقال «لف» والثانية تسمى عقال «اقحاني» وهناك عقال ثالث وهو العقال المقصب وكم عقال في بلاد العرب. وقد قرأت ما كتب بازاء تلك الجماجم " هذه جماجم العمد والشيوخ في الريف". وجمجمة عليها طيات من المناديل الحريرية او القطنية الملونة كتب عليها هذه «جماجم الكوخات» . واخرى عليها الطربوش كتب عليها «هذه جماجم الافندية». وهناك جماجم عليها العمة السوداء شارة العلويين او الخضراء وهي شارة الاشراف او الصفراء وهي شارة الاعيان او البيضاء وهي شارة رجال علم الدين والوعظ والارشاد .

لقد كانت دار الاثار تلك تشبه حديقة مصيرة وراء صفيح من الزجاج أرى الوانها ولا اشم لها رائحة. خرجت من تلك الدار متمتعا بمشاهدة ذلك المؤتمر الذي يشعر الهيبة والاحترام مؤتمر جماجم جماعات الاصلاح

الحقيقي من صميم العراقيين الذين مكنهم الفاطر فعظمت خبرتهم وتمت احاطتهم بشؤون العراق وشجونه وقد شحنوا دفاترهم بالاختبار عن بادية العراق وحاضرته وريفه وقصباته ودرسوا امكانياته ومقدراته وتوافروا على مختلف طبقاته ومتباين نزعاته ورغباته واهدافه وكانوا ذوي عزيمة ومضاء شهد لهم الماضي بالتصلب وشاهد منهم قوة الارادة، يحبون النظام بالفطرة ، وقد ثمنوا وفهموا الرابطة الاجتماعية التي جبلوا عليها، لم تثقلهم الغطرسة ولم يتعصبوا بالصلف ، قلت اقوالهم وكثرت افعالهم وتنوعوا بالاختصاص .

ذلك المعرض المزود بكل غال ونفيس ، وذلك المؤتمر الذي انتخبه الله والوطن، ورشحه الشعب من جمراته ، لم يتلاعب فيه قانون الانتخاب ولا زبانية ذلك القانون. وبعد ان اكتمل النصاب اخذت مكاني في شرفة المستمعين مصغيا الى خطبة الافتتاح التي ارتجلها الرئيس بعد ان تم انتخابه ، فوجدت ذلك البرلمان لا يماشي برلماناتنا لا بتقاليده ولا بروتينيته. فلم يفتح بخطبة العرش لان العروش وخطبها قد ذهبت، وكان من غرائب النظام السابق ان البرلمان يتعرف على الخطة والمنهاج وحاجات البلاد ومتطلباتها من العرش او من منصوب العرش . على حين ان المجلس الوطني اعرف من العرش بوضع البلاد وما يلزم ذلك الوضع. ولم يكن في ذلك البرلمان يمين اخلاص لان الاخلاص للوطن اكبر من ان يكون بصيغة لفظية يحرك لها النائب لسانه او يمط بشفتيه، كما لم يكن في ذلك المؤتمر لجنة لتصديق مضابط النواب لان المفروض في هيئة الانتخاب وحاكم الانتخاب النزاهة والوثوق، ولا يروق انتخاب لجنة من النواب لتنظر

في صحة انتحاب النواب تجنبا من القول بانها تحلب حلبا لها شطره . ومن مزايا هذا المؤتمر ان حق الانتخاب وحق التمثيل لكل افراد الشعب المرأة والرجل فيه سواء بسواء، وان ذلك الانتخاب على اساس الاخذ بمبدأ الدائرة لا على اساس القائمة والانتخاب النسبي، لان الانتخاب على اساس القائمة ليس فيه احترام لحرية الشعب فالقائمة تختار له وليس هو يختار لها. ولا بد من الاحتراز على ان لا ترافق الانتخاب العصبية الحزبية او القبلية او الطائفية لئنا لا نريد للنائب ان يمثل قبيلة او حزبا او كتلة، انا نريده ان يمثل العراق من الحد الى الحد، فيجب ان يكون الترشيح شعبيا غير مشدود الى حزب او عصبية، نريد ان نرفع قيمة المرشح ونتركه يعتز بكرامة ما يراد له وقدسية ما يراد منه. اننا لا نرشح فردا بل نرشح حكومة تحكمنا وقوانين تنظم شؤوننا وتشرع حقوقنا .

اليس من الاحتكار والحيازة التي لا خير للشعب فيها تلك الشروط الانتخابية كالتأمينات والاهلية بتحديد السن، ما قيمة الثلاثين او الاربعين عاما اذا رافقتها غباوة او بلادة او أمية، افلا نجعل الاهلية لذلك العمل الشعبي مرتكزة على الرشد وكمال الشخصية، الا نجعلها في ذلك المسوغ الذي يجيز لنا تسليم الامانات ، الا نجعلها في النجاح الذي تستلم فيه الشهادة العالية ، فلا قائمة ولا دائرة مقفلة ولا تأمينات ولا ثلاثين او اربعين ولا امية كما ولا تزكية بل لا بد من اجراء انتخاب لكل نائب . ويجب ان يكون للبلاد مجلس واحد لان مجلس الاعيان ارستقراطية ضمن دمقراطية. انه مجلس الملك الذي يريد به المحافظة على سلطته، انه يريده قيدا لسلطة الامة المتمثلة

بمجلس النواب، ولا قيمة ابدا لذلك التزويق في القول من ان مجلس الاعيان يقلل من اندفاع مجلس الشباب، لان الشيوخ لهم اناتهم وتجاربهم وقد برد منهم الدم . واذا كان لا بد من تنجيم الندوة بالشيوخ فليكن المجلس مؤلفا من منتخبين من قبل الامة لا يقل عددهم عن ثلاثة ارباع المجلس ، اما الربع الباقي فيعينه مجلس الوزراء بحدود وقيود تتصل بالخبرة والماضي المجيد وغير ذلك من خدمات اكتسبوا بها تقدير الشعب وثقته.

-41-

بجلال ووقار دوى صوت الرئيس قائلا ان الواجب جمعنا هنا ومعنا الامانة والاخلاص جمعنا لندشن البناء المقدس بناء العراق الجديد، اما آرائي حول تشييد هذا الصرح فارجو ان لا تكون غريبة الا عند من يرى ان الحق غريب .

وخلاصتها اننا في حاجة الى عملية هدم وبناء ، وقبل الهدم يجب ان نهيء مواد الانشاء مع بذل الجهد على ان تكون محلية اكثر منها مستوردة . ولا بد من الايمان بان القضية العربية والجامعة القومية، ليست امورا لفظية بل انها قضايا تكونت من طبيعة الشعب وواقعيته وخصائص ذلك الواقع ذوات اثار مادية وادبية ناشئة من ارض الشعب وسمائه وعرفه وتقاليده . وقبل كل شيء يجب ان نتعمق في اعرافنا وتقاليدنا ونفحص مقدراتنا الاقتصادية

وشؤوننا او شجوننا الاجتماعية وامكانياتنا ومواهبنا لنقطف امورا ننسق ونوفق ما بين موادها بانسجام ونسكبها نظاما عراقيا بتمام معنى الكلمة .

واذا كان نظام الامة منبعثا من صميم ارائها ونفسيتها ومواهبها واخلاقها وحياتها تكون حينئذ حكومة ذلك النظام حكومة قوية تنهض بها الامة تنتعش وتنمو متدرجة بتدرجها .

هذه هي عملية البناء . اما عملية الهدم فيلزمها تقويض اشياء واشياء ، منها الرواسب التي خلفها الماضي وتركتها بالاكوام والاغراب الذين اجتاحوا العراق واصبحنا نجد تركتهم في الدوائر الرسمية والبيت والمدرسة والنادي والحقل وبالاخلاق والنفوس والافكار . وهنا توقف الرئيس عن الافاضة قائلا في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء، وفيً النفس اشياء وفيكم فطانة :

كم حانة كم معبد كم خلوة أو إزدحام
كم معول كم منجل كم من يراع أو حسام
كم شاعر او عالم كم من زعيم او امام
في مسمع الدنيا تصيح نريد تغيير النظام

فقوبلت خطبة الرئيس بالتصفيق . وانبرت جمجمة اخرى قائلة مضت حقبة من الاعوام والامة العراقية تتغنى باستقلالها وتناغي ذلك الوليد المهزوز بمهد الامال ولكن حتى الان لا يزال ذلك الاستقلال استقلال تحبير وتقرير . لقد اضعنا مراكز الاستقلال الحقيقي في المزارع والمصانع والمطابع والمدارس التي بقيت جميعها جامدة او انها فراغ في فراغ حتى اصبح العراق

بكل نواحيه بيد غير أهله، انه اذا لم تستعمره الرجال استعمرته الافكار والاعمال.

فالى م يبقى الاستقلال العملي والعلمي بعيدين عن العراق ؟ لنترك الاستقلال اللفظي لأهل الاستغلال ونسعى لنبعث الامة ونحملها على ترك الركض وراء الهرج السياسي وهجر تلك السوق سوق الخشب المسندة. ان العلماء والعمال والفلاحين هم عصب الاستقلال وان القوة في العصب لا في الخشب . لنتوزع الاختصاص ونجعل قيمة كل امرء ما يحسن . ويصادف اقتراح هذه الجمعجمة الاستحسان ويحاول المجلس ان يوزع العمل على دوائر الاختصاص ، وبكل اسف لم يجد غير السراكيل والكوخات وبعض القوالين الذين هم اشبه برحى تطحن قرونا، وهناك ململمة من التركة العثمانية ايتام الحرب الاولى. وكاد ان يسقط الاقتراح من جراء هذا الوشل بل الجفاف، ولكن الجمجمة المقترحة دافعت عن وجهة نظرها، قائلة اني لم اطلب ان نوزع الاعمال في ندوتنا هذه على ذوي الاختصاص لاني اعرف ان العجين لم يختمر بعد، وانما اردت ان الفت النظر الى فقر القطر وخلوه من الاختصاصيين ، اردت ان تكون باكورة اعمالنا تشريع قانون يخلق الاختصاص .اردت ان نوزع الشباب العراقي حسب رغباتهم وكفاءاتهم كلا الى ما يحسن . كفانا وحسبنا تثقيف الالوف من الشباب باداب الالفاظ وما في تلك الاداب من حشو. نحن في حاجة ماسة الى الحقل العلمي والفني في حاجة الى المعمل والمرجل والمصنع .

اريد ان الفت الانظار الى انا في نوبة من النوبات التاريخية التي تعرض

للامم فتكيف نفسيتها ، وفي دور كهذا وهو دور التحول الانقلابي تكون نفسية الامة مرنة تتأثر بكل طارئ فلا بد من التحفظ والانتباه حتى لا تلتبك الحال . انا في وقت يركض فيه التجدد وكأن العالم في سباق فلنهيء نفوسنا ونروض بلادنا ولا نبقى كطبول التهريج ودائما نقترح الاصلاح على الفلك.
ولاجل ترتيب المسعى لا بد لنا من توافر امور توسيع التعليم وتنويعه ، وغرس النظام في نفوس الناشئة بحيث نجعل النظام درسا، واذا ترسخ النظام فلا بد لنا من توافر الحريات في الرأي والنشر ولا بد لنا من غربلة تركتنا العتيدة واختيار الفاضل والنافع حتى نجدد ما في العقول من اراء ومفاهيم .

- 42-

وتناولت منبر الخطابة جمجة اخرى فافاضت بخطبة تندد بالارتجال في التشريع، قائلة لا بد للقانون ان يكون منتزعا من المستوى الذي بلغته الامة، اما اذا اريد بالتشريع رفع الشعب الى مستوى اعلى فلا بد وان تتقدمه ارشادات وتوجيهات، وذلك بان يطرح في اوساط المشتغلين بشؤون الامة، يطرح كفكرة اولا يراد افراغها في لائحة تشريع حتى تتداولها الاراء وينوشها النقد والتقريظ وتصبح معروفة مألوفة في الاوساط ويتذوقها الشعب تدريجا فلا تكون غريبة عنه بل منسجمة مع حياته الفكرية واعرافه الاجتماعية، وعندئذ تكون صالحة لان تحقق النفع وتتكون منها طاقة اجتماعية على

اساس علمي يحوطه العدل والحرية. وبعد هذا قالت تلك الجمجمة اريد ان اتكلم عن القانون الاساسي «الدستور» الذي لا بد وان يكون منبعثا من روحية الامة واهدافها ومقومات حياتها ضمن اسس عامة وقواعد راسخة ليرجع اليه عند ممارسة الحكم وعند التشريع اللازم لمرافق البلاد، ويجب ان يكون منسقا ومبوبا وموضحا لا لبس فيه ولا حشو ولا تفريط حتى لا يحتاج الى محكمة عليا للتفسير بين اونة واخرى حسب حاجة المتلاعبين بالالفاظ المتحايلين على القانون من رجال الحكم والتنفيذ .

وكل كتاب لا يتم به الهدى اذا جاز تأويل عليه وتفسير

ويجب الا يكون فيه تقليص في حقوق الشعب وتكديس في حقوق السلطة، وان يكون موزعا للسلطات، وان تكون له ضمانة ولو قيل ان الشعب هو ضمانة الدستور. ولكن نريد بالضمانة هنا ما يصونه من تلاعب التعديل فلا يعدل الا في كل ربع قرن وذلك اذا جدت ضرورة للتعديل ، ومن شرائط التعديل ان يكون نتيجة مجلسين ونتيجة انتخابين مجلس يوافق على اجراء التعديل وكيفية التعديل ومجلس آخر يصادق على مواد التعديل، ويجب ان لا يجدد انتخاب نائب وافق على اجراء التعديل حتى لا تذهب ثمرة الحل واجراء انتخاب جديد. وللعبرة والتاريخ اقول ان دستورنا المدفون لم يكن دستورا عراقيا لا باللحم ولا بالدم . لقد كان الدستور المائت مستوردا وكان كمرقعة الدرويش مؤلف من مزق ونتف لدساتير عديدة، وضعت لائحته في دار الاعتماد البريطاني من قبل فقهاء بريطانيين وبكل براعة افرغوا ما اشتمل عليه صك الانتداب في تلك اللائحة فلم يكن جديدا الا بالسبك .

وبعد موافقة لندن على صوغه ارسل مخفورا الي الحكومة العراقية فالفت له لجنة من وزيرين ومستشارين بريطانيين وبعد تعديلات روتينية رفعته اللجنة الى مجلس التأسيس الذي احاله الى لجنة اكثرها من الاميين او امثال الاميين ، وبعد المناقشة عليه في مجلس التأسيس تقدم خيال المجلس «وما اكثر الخيالة» راكضا باقتراح الاكتفاء بالمذاكرة وعلى الفور يصادق على المواد واحدة واحدة.

-43-

وانبرت جمجمة اخرى قائلة نهضت الحضارات واخص منها الرومانية واليونانية على فلسفة لعبت دورها الاجتماعي ولا زالت تحتل انحاء العالم حتى اليوم، ونحن نرى طرفا من تعاليمها في سياستنا وادابنا وعلومنا مندمجا فيما نسميه جديدا اندماج الحبة في السنبلة. وعلى مثل هذا نهضت الحضارة العربية من اول الدهر، على مبادئ وفلسفة مستقلة ولا تزال تلك الحضارة حية وان وارتها بعض الاوهام والبدع ولكن الحبة الحية لا يعطل نباتها ما حولها من ميت الاشواك والادغال. ونهضت الحضارة الاوربية على مبادئ جديدة فزهت وازدهرت ولكني اتوسم لها قصر العمر واظنها لا تقوى على النبات فيما لو كافحتها المبادئ الصالحة، واذا ارادت الحياة طويلا فلا بد لها من ان تتحور وتندمج والا فتبيد وتذهب. لست الان في صدد تحليل

مبادئ الحضارة الاوروبية ولا في مقام الموازنة بينها وبين سواها انما اريد الفات نظر العاملين على تطوير العراق الى ان الكثير من المبادئ المستوردة غرارة لا تصلح لنا ولا نصلح لها فليس من النافع اقتفاء الاثر الغربي أيا كان جوهره.

ان الكثير من ذلك الحب لا ينبت في تربتنا اللهم الا بعد تهذيب وتشذيب، فلا يصلح ان نلقح نهضتنا من تلك الحقول بدون تمحيص والا فنكون قد افسدنا مغارسنا ولم نحصل لا على ثمرتنا ولا على ثمرة جديدة. حرام على المشتغلين في بناء الامة ان يقلعوا كل اساس بنته فلسفتنا واخلاقنا واكمله تاريخنا وميراثنا الاجتماعي وينهضونها عمارة اوربية، فذلك العمل هو كمنشور للدعاية الاستعمارية . علينا ان نركب من شجرهم ومن شجرنا شجرة عربية جديدة، وافضل من ذلك ان نبتكرها وطنية قومية في اللب واللحى. ولا نكتفي بالاحتراز من السيل الاوروبي فقط، فهناك مياه مستوبلة قد عشعشت جراثيمها من القديم في بلادنا ولا تزال تنخر في شجرتنا العربية وتأكل لبها، هناك قوميات تزاحمنا فيجب الانتباه لها واخذ الحيطة حتى نحرجها ونخرجها من اوساطنا.

– 44–

وانبرت جمجمة اخرى قائلة ان الارض أم المشاكل في العراق فكل تاريخ

العراق وما اشتمل عليه ذلك التاريخ من شؤون وشجون واحتلال واستغلال كان ناشئا من الارض وانواع التصرف في الارض.

ويمكنني ان اقول ان الاحكام والتشريعات الخاصة بالارض لم تكن من نصيب المتصرفين الفعليين ولم تستهدف مصالحهم بل استهدفت الربح للمستغلين واستهدفت السلطة للحكومة على الفلاح. هكذا كان الاقطاع في الالتزام وفي الشرطنامه قبل مدحت باشا وفي نظام مدحت باشا ودفتره الخاقاني، وحتى هذا كان ايضا من نصيب المتنفذين في الريف وبعض المتصيدين من الماليين في المدن. ذلك النظام المفروض الذي اعطى سلطات جديدة وخلق ملاكين جددا وهدر حقوق المتصرف الفعلي «الفلاح» وفوض الغلة للمالك البعيد عن الارض واهل الارض مثل السلطان عبدالحميد والزعيم السعدوني والشيخ الشمري وكثير من الرؤساء وبعض البيوت المالية، وأكبر اختراع جاء به نظام مدحت باشا ذلك الاصطلاح «أرض اميرية» الذي يسلب الارض من المتصرفين بها والناشئين فيها هم وابائهم واجدادهم ويعطيها بالعقود او التسجيل على الورق الى من لا صلة له بها ولا رابطة والذين لا يهمهم من امرها سوى الربح الخاص.

ومما زاد الطين بلة تكاثر آلة الضخ وسن بعض القوانين المجحفة مثل قانون اللزمة مما فتح شهية النفعيين فتوصلوا الى نهب او امتلاك مئات الالوف من الدونمات في الارض الزراعية بل وامتلاك اهلها المتصرفين الفعليين . واكبر تزوير قانوني ذلك التشريع الذي جاء باصطلاح «ملاك» للارض الزراعية ، وكان الاجدر اعتبار المتصرف الفعلي «الفلاح» وفي

رأيي ان اكبر تشريع اصلاحي يتعلق بالارض الزراعية هو قانون الاصلاح الزراعي لو توافرت اسبابه وحسن تطبيقه .

لقد شهدت الارض العراقية اطوارا ومرت عليها ادوار فيها الخراب وفيها الاعمار وفيها الاشتراكية العادلة والاحتكار الفاسد. حيازات واقطاع وملكية واسعة وتفويض وعقر وحق القرار وايجاد وعقود ولزمة واخيرا الاصلاح الزراعي وهو تحول اجتماعي بناء.

ولم يكن الاصلاح الزراعي في العراق من مبتكرات العهد القاسمي ففي الوزارة البابانية كان تفكير بل اتجاه الى انعاش القرية العراقية والاصلاح الزراعي وقد وضعت لائحة للمشروع وانا رفعت تقريرا لانعاش القرية ووزع على الوزراء للاطلاع ، وكان النظام في العهد الملكي يقضي برفع كل مشروع او كل تفكير بالمشروع الى البلاط من قبل رئيس الوزراء او الوزير المختص فاذا صادف قبولا يبرز بعد ذلك في مواد ويرفع بصورة لائحة الى مجلس الوزراء، ولكن امير البلاط عبدالاله لم يشجع على هذا المشروع قائلا لقد خسرنا اهل المدن فهل تريدون ان نخسر اهل الريف.

وبينما الاقتراح مطروح على الطاولة تشب الثورة ويرث قاسم الاقتراح .

لقد استهدف تشريع الاصلاح الزراعي قلب العلاقات الزراعية وقلب الاحوال الاجتماعية والاقتصادية في الريف وجعلها لمصلحة الاكثرية من الشعب، ولتوفير الكميات الانتاجية واستخدام الكثير من الامكانيات والمواهب سواء كانت من الفلاح او رجال العمل او رجال الدولة . فكم فيه من اصلاح للانتاج واصلاح لاهل ذلك الانتاج. انه لا اقطاع ولا ملكية كبيرة ولا هجرة

مضرة ولا نظام يتماشى مع الجهل والفقر والمرض، بل نظام يحقق التقدم والتطور والعدل الاجتماعي وروح المسؤولية في جهاز التطبيق والتوزيع وقوة الرقابة دون انحراف الى اهواء وانجراف الى غايات عقائدية. وان تشريعا كهذا يجب ان يكون حصيلة دراسة واسعة وخبرة طويلة بعيدا عن الارتباك االذي يسبب اضاعة التصرف. وبناء على قلة المصلحين وضعف الاختصاص يجب ان يكون التطبيق تدريجيا فالتشميل بالانقلاب دفعة واحدة وبحشد العناصر غير الكفؤة يجر الى انقلاب في الاهداف واضاعة للمبادئ النافعة.

وختاما لهذه الكلمة اقول لا بد من ابقاء الملكية في الارض الزراعية فانها اعود وافيد خصوصا لذي العلاقة المرتبط بالارض كالفلاح والسركال، ولكن لا الملكية الكبيرة بل الملكية التي تحقق الارتباط والاستغلال التام بالزرع والغرس. وبناء على وفرة الارض الصالحة في العراق وقلة الايدي العاملة فلا نشح ونقتر بالتوزيع ولا ننزل الغني الى درجة الفقير بل نرفع الفقير الى مستوى كريم فنوجد طبقة متوسطة تنعم بعيشة راضية وتستطيع توفير الانتاج. وعليه فيمكننا ان نسمح لانفسنا بتمليك المزارع الكبير ما لا يزيد على عشرة الاف من الدونمات حسب مكانته الاجتماعية وسعة عائلته المكلف بها وحسب امكانياته ومقدراته. ان من كان يتصرف بمئات الالوف لا داعي ولا ضرورة للقضاء عليه بان ننزله الى مائتي دونما خصوصا وانه حسب الحصص الميراثية سوف تتفتت ملكيته. فاذا ابقيناه على الالف دونم او ما يقل ، ماذا تكون حصة ورثته غدا وهل يكون في كل يوم توزيع جديد

والا فسوف يصبح اولاده واحفاده بدون ارض. ويجمل بنا ان نحافظ على المستوى اللائق لهذه الاسر العراقية في جيل او جيلين كما ولا بد وان نسمح بتمليك الفلاح ما لا يقل عن مئتي دونم حسب نشاطه وكلفة عيشه خصوصا بعد ان كانت الزراعة في العراق على طريقة «نير ونير».

-45-

وانبرت جمجمة اخرى قائلة كثيرة اهداف المصلحين في هذا البلد المحتاج، واذا حاولنا الوصول الى الاثر الطيب فعلينا الاكتفاء من استعمال المنظار الاسود باحثين عن ويلات الماضي بل يجب علينا ان نستوحي واقعنا وما فيه من حيوية. كل ناحية من ذلك الواقع تلهمنا الاعتزاز ، ولكن الاهم والاجدر من الجميع ناحية الريف الحبيب الذي هو مشتل الامة وينبوع خيراتها. انه المستودع للحياة وللعمل والثروة . فلننظر بمنظاره الابيض الى القرية العراقية التي هي العمود الفقري للكيان العراقي ولندخل التاريخ بعد ان خرجنا من التاريخ، فبالاحصاء لو حصل الاحصاء الحقيقي يمكننا ان نحصل على المعلومات الضائعة عن اكثرية الشعب العراقي القاطن في الريف.

ان الريف هو المنتج اما المدن فمستهلكة، وفي الريف ذلك الفلاح الحالم وتلك السواعد الخلابة . ان هذا الريف :

قلبه اطعمنا حبته واجتلى الافلاذ ورداً وثمر
انه ينعم في قدسية ديرها العامر طين او شعر

فلا بد من العمل على زيادة انتاجه وزيادة نشاطه وبث التعليم الاساسي فيه وتحسين التغذية والسكن، وتهيئة الاسباب المفيدة باشغال اوقات فراغه ومعرفة نقطة البدء ثم التدرج خطوة خطوة حسب اطراد الفرص وتوافر القدرة.

ولا بد من ضمان وجود الماء الصالح والكافي ، ومن صلاحية التربة، والابتعاد عن المستنقعات والفيضان والسيول ، والاتصال بشبكة المواصلات. ولا بد من تجنب التصاميم المستوردة لبناء حي الفلاح لانها قد لا تتفق مع الريف العراقي من جهة المناخ .

كما ولا بد من التقارب في المشاكلة والمواصفات لمنازل الفلاحين حتى يمكن الحصول عليها بسهولة عندما تتوافر بواسطة المتعاطين بهذه الشؤون.

ولا بد من مصنع مائي للقرية ومواسير لتوزيعه .ان المدينة مسؤولة مسؤولية ضمير ومصير عن القرية فلنقم للقرية بما يلزمها من الضرورات والضروريات .

- 46-

صحة القرية

اذا لم تتوافر للقروي صحة البدن وقوة العصب وسعة المدارك فكيف نطلب

منه زراعة حقل وتربية ماشية وانشاء اسرة تقدم حصيلة كل ذلك على الوجه الاكمل . ولولا تعرض الفلاح لنور الشمس النقي والهواء الطلق وتلك الرياضة البدنية بالسباحة وركوب الخيل لما وجدنا في القرية الفلاح الصالح.
ان صحة الفرد من اهم شروط التقدم الاجتماعي .
ويؤسفني ان القرية لا تعرف شيئا عن الطب الوقائي وكلما هناك شيء من الطب العلاجي وهو الكي والفصد والحجامة والوخز والادعية والنذور والحروز.

التعليم القروي

ان اصلاح القرية كما المعنا مشروع شامل كثير النواحي والتعليم الاساسي هو الركيزة للنهوض بالقرية . والهدف للتعليم الاساسي لا يختلف بالجوهر عن اغراض التعليم العام والنهوض بالحياة ، انه رفع للمستوى ووعي للصواب وفهم للصالح ومبادئ للاصلاح. وبكلمة جامعة تكوين مواطن صالح. ولا بد ان يستهدف التعليم الاساسي الروح الشعبية النبيلة المتطلعة الى المثل الانسانية والتعاون الاجتماعي ، ويهيء القرية لخلق القادة المخلصين. ويجب للتعليم القروي ان يساير التعليم في المدن مسايرة لا تنقص من قيمته الخاصة. ان التعليم القروي اوسع من مدرسة لنشئ القرية فلا بد وان يكون مركزا ثقافيا لسائر الطبقات وتكون فيه النشاطات الاجتماعية والتربوية والاجتماعية ، ومنهجه مستوحى من حياة القرية

وحاجات تلك الحياة بشيء من التبسط.

- 47 -

التعاون

وانبرت جمجمة قائلة من اهم المقومات العامة للاصلاح في القرية ورفع مستواها الحركة التعاونية، انها اهم ناحية اجتماعية لخلق الحياة الزاهية في القرية واهم ما فيها انها ترفع عن عاتق الفلاح نير المرابين الجشعين فتحقق بذلك مجالا اقتصاديا. التعاون ينبه روح التضامن بين القرويين ويصبغ القرية بصبغة جديدة تتفتح لها روح الفلاح بانتعاش وارتياح، ولا بد للحركة التعاونية من التغلغل بين الطبقات الفقيرة لتحسين اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية وبها يتحقق مجال ايجابي ناجح.

ان الوضع الزراعي وما فيه من عقبات ومشاكل يحتاج الى التعاون دائما ، ذلك العمل الاشتراكي المفيد فلا بد لا بد من نشر الجمعيات التعاونية في القرى .

- 48 -

صناعات الريف واقتصادياته

وانبرت جمجمة اخرى قائلة ان الماضي وماجريات الماضي قد اوجبت

تركيز الصناعات في المدن والقصبات فلم تهيء للقرية ما يعينها على العمل الصناعي، مع ان القرية هي التي تقدم المادة الخام، وان الصناعة اليدوية متوفرة في القرية ولها من الاهمية ما ليس لغيرها. ان لها خصائص وسمات فنية اصيلة ، انتاج وطني ممتاز يضمن للقرية الاكتفاء الذاتي تقريبا من بعض اللوازم . علينا ان نشجع الصناعة القروية بالمراكز الاجتماعية ، وبجماعات من الخبراء الصناعيين يتجولون في القرى لبث التعليم والارشاد ويزرعون النشأ، ولا بد من الاكثار من الاندية القروية التي تحاضر في الصناعات والتنظيم الحرفي، ولا بد من اقامة معارض موسمية للصناعات الريفية . ان الريف صالح لمشاريع صناعية كثيرة فانا اذا نظرنا الى السوق نشاهد المعلبات المصففة على رفوف الحوانيت بالوان واحجام تحوي كافة انواع نتاج القرية الاوروبية والامريكية. فمتى تتوافر للقرية العراقية هذه الصناعات التي تزيد في الدخل القومي وتساعد على نشر العمل وتقليل البطالة.

ان المادة الاولية للصناعات الريفية وللتعليب متوفرة في القرية العراقية كالصوف والقطن والوبر والشعر وتجفيف الجلود والسمن والالبان والجبن والزبد والسمك والطيور والتمور والتبغ. كل هذه توفر بعض المأكولات والملابس والمفروشات وغير ذلك من لوازم الحياة .

ان كثيرا من القبائل الريفية التي تتعاطى تربية الماشية تذهب الالبان والاصواف والمصارين والاضلاف والقرون من حيواناتها ضياعا. لقد شاهدت قسما من رعاة الجنوب عندما تخصب الارض وتكثر الماخضة

يتوفر اللبن عندها فتستخلص زبدته وتسفح الباقي على الارض. كما ان سكان الاهوار يسرفون اكبر الاسراف بالسمك لوفرته عندهم احيانا خصوصا الصغار منه فيعرضونه للتجفيف بحرارة الشمس وبعد تيبيسه يقدمون قسما منه علفا للبقر والقسم الاخر يشعلون به التنور. كان الريف العراقي يمد العالم بمنتوجه وصناعاته ولكن موجات الغزاة وما صحب تلك الموجات من تخريب وتهديم تركت اسوأ الاثر في الريف واجتماعيات الريف واقتصادياته.
وانبرت جمجمة اخرى قائلة ان الهجرة من القرية الى المدينة ظاهرة اجتماعية موجودة في كل العالم، انها مد كان ولم يزل وعلى الاكثر يكون هذا المد نافعا للقرية والمدينة . ففي المدينة حاجات وضرورات تنادي القرية التي تستجيب الى ذلك النداء، والقرية معين لا ينضب من نشاط وزيادة في النفوس. فالهجرة تنفع القرية وترفه عنها ولكن يجب ان تكون طبيعية ومحدودة، اما الهجرة غير الطبيعية وغير المحدودة فهي مضرة بالقرية والمدينة من جهات عديدة خصوصا الجهة الاقتصادية ، لان العراق بلد زراعي اذا تأثرت زراعته تأثرت سائر اقتصادياته، اما هذه الهجرة المشهودة اليوم والتي سببها شحة دخل الفلاح والاهمال لسائر نواحيه الاجتماعية فيجب علينا الحيلولة دون توسعها . اننا نعترف بالمسيرة الطبيعية التي ينهجها الانسان، وانه كان ولا يزال ينتقل من البداوة الى الريف والزراعة ومن الريف الى المدينة والتجارة والصناعة ولكن يجب ان يكون ذلك الانتقال بصورة منتظمة ومنسجمة مع الحاجة بحيث لا تضر مرحلة بمرحلة .